893.08

تجليد كت
صالح ال

833.08
A98rA
c.1

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

فؤاد أيوب

روائع من الأدب الألماني

جوهان فون شيلر

الأخوان جريم

هنريخ هاين

هرمان سودرمان

توماس مان

ستيفان زفايج

سلسلة عيون الأدب العالمي

٤

Cat. Apr. 13 '54

جميع حقوق
النشر والطبع والاقتباس
محفوظة

١٩٥٣

مقـــدمة

في الأدب الألماني

إن الأدب الألماني يتمتع بأهمية من المرتبة الفكرية في الدرجة الأولى. فالألمانيون لا يعيرون « الشكل » كل ذلك الاهتمام وتلك العناية اللذين يقفها عليه الكتاب الفرنسيون مثلاً ، بل إن الفكر والحياة عندهم ليتحدان بالفن اتحاداً وثيقاً ثابتاً . وهكذا فان الشعر ، او المسرحية ، او الرواية ، تعبر جميعاً عن شخصية مبدع يعيش العمل الذي يخلقه ، وينقب فيه عن مفهوم عن العالم يعتنقه ويرتاح في أحضانه ، إنه ينطوي على ذاته ، ويفعل هذا الانطواء نفسه يفصح عنها الى القارئ ، ويعترف له بكل ما يعتلج في جنباتها . انه لا يستطيع ، وهو النائه في مجاهل عالم يتخبط في صيرورة دائمة ، إلا ان يطرح مشكلة الوجود على نفسه ، فاذا هو يجابه إذن عدداً لا يحصى من المتناقضات التي تعذبه : الحياة والموت ، الحب والحرية ، الارض الأم والعالم الذي يشملها ، المسيحية والوثنية ... انه يعيش في ثنائية دائمة هي التي تُغني مؤلفاته وتزيدها عمقاً ، مقتربة بها في هذا المضمار من الأدب الروسي إلى حد بعيد .

ولكن يجب ألا نفتش في الأدب الألماني عن تطور مستمر لا انقطاع فيه ، كما هي الحال في الأدب الروسي ، او الأدب الفرنسي ايضاً ، بل إن « النهضة » التي شملت الآداب الاوروبية عامة بعد القرن الخامس عشر ليقابلها في ألمانيا ، طوال ثلاثة قرون ، همود شامل وخمول عام . فالأدب الذي ابتدأ يتطور في القرن التاسع مع تطور الاقطاعية ، واحتكاك الامراء الألمان بطبقة النبلاء المثقفين في فرنسا وايطاليا ، هـذا الاحتكاك الذي خلق الملاحم الشعبية والفروسية والشعر الغنائي المنسجمة مع نمو الروح القومية ، وبروز جماعـة الفرسان ، وازدهار قصور الامراء ، قـد بدأ ينحدر ، في القرن الثالث عشر ، الى مستوى الطبقة الاجتماعيـــة التي نمت وتقدمت إلى الصفوف الاولى ، أعني البورجوازية . والحقيقة ان هـذا الجمهور الجديد ، المجرد عن الماضي ، الخالي من احساس التذوق ، الساعي وراء الربح فقط ، والذي لايسمو به اي انطلاق بطولي او شعري ، ليتطلب ادباً اقرب الى متناول يده وأفهامه . ولقد كان هذا الأدب الجديد يعدم كل اهميـة لولا نفخة من الالهام الديني والصوفي بعثت فيه بعض الحياة .

وإذا أضفنا الى عامل تغلغل الحياة البورجوازية ، الدور الذي لعبه الاصلاح الديني في الحياة الالمانية ، والانقسام الفكري الذي خلقه ، والحروب الدينية التي اثارها ، ثم حرب الثلاثين عاماً التي أحالت البلاد خراباً

ودماراً ، ادركنا سبب انفصال الحياة الفكرية في هذه البقعة من العالم إلى عصرين كبيرين ، اولهما عصر ازدهار القرن الثالث عشر الذي أتينا على ذكره ، والذي لا يثير الا اهتمام المتدين او صاحب الاختصاص ، وربما الفضولي الطامة ، وثانيهما هو عصر التفتح العظيم في القرن الثامن عشر ، الذي يعتبر احد العصور الأكثر روعة وجمالاً في تاريخ الفكر البشري .

ويبدأ هذا الازدهار مع تفوّق اللغة الالمانية على اللاتينية ، وتغلب الملكية البروسية البروتستانتية على الامبراطورية النمسوية الكاثوليكية ، ونموّ الشعور عند الكتاب بأنهم يعملون من اجل غاية قومية عظمى . أضف الى ذلك ان بعض ممثلي البورجوازية ، التي اثرت كثيراً في التجارة والصناعة ، قد تحرروا من حقارة أساليب حياة الطبقة التي ينتمون اليها ، لكي يرتفعوا الى مستوى روحي وفكري اكثر سموّاً . وهكذا نمت بُؤَرٌ جديدة من الفكر ، وخاصة في محيط البلاد ، تحت التأثير الفرنسي والانكليزي ، ضد التأثير الذي اطلق شرارة « عصر الأنوار » .

وفي الوقت نفسه نما تيار ديني جديد ، هو مذهب التقوى piétisme ، عاصفة من التمرد على أرثوذكسية الاصلاح الذي انقلب ، بعد ان كان بدوره تمرداً على أرثوذكسية الكنيسة الكاثوليكية يطالب بحرية الايمان ، دينا يريد ان يفرض ايمانه على البشر قسراً وعنوة .

ولكن الثورة الادبية الحقيقية قد انطلقت عام ١٧٧٠ وتكاملت

بمسرحية لكلينغر « العاصفة والانطلاق » التي اعطت اسمها لمجمل تلك الحركة المنطلقة من محيط البـــلاد لتزدهر في المدن الرئيسية (ستراسبورغ ، فرنكفورت) مع جوته وشيللر . ولعلها كانت الموجة الأولى من تلك المثالية الألمانية التي ستجتاح جرمانيا طوال ثلاثين عاماً، وتعطي مالايحصى من المؤلفات الأدبية والفلسفية القيّمة ،وهي في واقع الأمر رد فعل على « فلسفة الأنوار » التي تعطي للعقل المحل الاول ، وان كانت تهدف بدورها الى تحرير الانسان من الجهالة ، لتجعل منه مركز العالم وتقوده نحو الطبيعة والحياة . ولكن هـذا لايجردها في الوقت ذاته عن تأثير جماعـة مذهب التقوى الذين يعظّمون الشعور ، ويجعلون من الدين امراً ضرورياً . ولا ريب ان هذه الثورية فيها قـد قادتها الى انتصارات عديدة حققت بواسطتها ما يمكن ان نسميه عبادة الطبيعة والشخصية العبقرية ، كما أدت الى مفهوم جديد عن الحياة والفن ازدهر بصورة خاصة بين ١٧٧٠ — ١٧٨٥ .

ذلك ان تلاميذ هذه الحركة يتأثرون خطى روسو في محاولته قلب القيم ، وإنكار فضائل المدنية ، والعودة الى الطبيعة التي لم يُنظر اليها حتى ذلك الحين إلا من وجهة النظر العلمية ،والتي جُعلت دوماً خاضعة للمدنية والانسان . ومن جهة أخرى فهم يرون في هـذه الطبيعة ، مع هِرْدِر ، عضوية مكتملة في صيرورة دائمة . انهم يعيرونها انطلاقهم

الحيوي ، ويُرضون فيها نهمهم الى المطلق، فيخلقون بذلك منها معبوداً جديداً جسّده روح الارض في « فاوست » . واذا كانت هذه الطبيعة عندهم قوة ديونيزوسية تخلق وتدمر دون انقطاع مجموعات من الاشكال والكائنات هي تظاهرات الالوهية ، فهذا لايعني ان الحركة الجديدة « تمثل ديانة مستحدثة يتحقق فيها وعي الله في الطبيعة ، بل بالأحرى طبيعة استولى الانسان عليها ليجعل منها إلهاً» .وإن « مثالية الطبيعة » هذه ، هي الاساس فيما دعاه جوته « الثورة الالمانية الفتية » .

ولكن هذه الطبيعة انما تتظاهر وتتحقق في الشخصية الانسانية التي ليست هي الانسان المتمدن ، لأن الشعور والخيال هنا يحتلان مقام العقل ويتفوقان عليه ، بل العبقري بالأحرى ؛ والعبقرية هي كل ما في طبيعة الانسان من شيطاني لانها ليست شرارة من العقل الشامل ، بل عنصراً « من عناصر الطبيعة ،وقوة خالقة تسيرها الغريزة في المحل الاول » .

ولقد ولّد هذا المفهوم نظرية جديدة عن الحياة والفن ، لان « العاصفة والانطلاق » ليس مدرسة ادبية فحسب ، بل هو مدرسة حياة ايضاً تتفوق الاخلاق فيها على الجمال : يجب على الانسان ألا يطمح الى السعادة ، كما يريد الفلاسفة ، في تكييف عقلي لوجوده مع العالم الخارجي ، او في فعالية نفعية خاضعة لقوانين معينة ، بل يجب بكل بساطة ان يحقق ما يعتلج فيه من الامكانيات . مثل هذه العبقرية

لاتخضع لأي قانون مطلقاً ، بل هي التي تصنع شريعتها الخاصة ، فتحيا في ثورة على المجتمع (اللصوص) ، والدين (بروميتيه) ، وطغيان الدولة او الديانة (مؤامرة فيسكا ، دون كارلوس) ، وسائر التقاليد الاجتماعية التي قد تعيق تطورها وازدهارها (الدسيسة والحب) ، كما تعود الى الطبيعة حيث تصير ذاتها (فرتر) ، او تلتجيء الى بساطة حب ساذج كامل (غريشن) .. انها تصبح انساناً حقاً .

وسوف يكون الفنان حراً في عمله ، يغرد مثل العصفور الطليق ، ضارباً عرض الحائط « بكل القواعد التي تدمر الشعور الحق والتعبير الحق عن الطبيعة » (فرتر) ، ولا يتبع الا الطبيعة وحدها واولئك الذين نجحوا في ادراكها ايضاً . وعندئذ يضحي العمل الفني تعبيراً عن الطبيعة بالعبقرية ، او الطبيعة التي صارت عبقرية .

ولكن « العاصفة » مالبثت ان هدأت ، و « الانطلاق » ما عتم ان تخاذل ، فاذا بحركة انطواء وتراجع تتلو الحركة الثورية ، وخضوع الفرد لقواعد العقل يتبع ذلك الانفلات الشخصي ... انها الكلاسيكية .

ولم يكن القائمون على الكلاسيكية جيلاً جديداً من الادباء ، بل هم رجال « العاصفة والانطلاق » انفسهم ، وقد نموا واكتمل نضجهم ، فراحوا يحاولون تحقيق تركيب من عقلية « عصر الأنوار » وفردية « العاصفة والانطلاق » . وكانت عودة إلى العالم الاغريقي

انقسمت حسب تعبير نيتشه إلى اتجاهين: الاتجاه الابولوني (وينسلكمان، ليسنغ ، ويلاند ، جوته ، همبولدت) ، والاتجاه الديونيزوسي (هينس، هولدرسن ، هِرْدر) .

ويعترف الكلاسيكيون بوجود قوانين ابدية وضرورية يخضع لها عقلهم ، او ما يمكن تسميته « الحرية ضمن القانون » ، ولم يعودوا يؤمنون « بمثالية الطبيعة »، بل بالأحرى « بمثالية العقل » . ان تدهور الانسانية الحالي ليس نهائياً ، بل يتوجب على الانسان ان يعمل كي يصبح أفضل ، ويرتفع حتى فوق الانسانية التي يحلمون بها . انهم يؤمنون بانتصار الانسانية النهائي عن طريق الثقافة .

وبالاضافة ، فهناك مفهوم جديد عن علاقة الفنان بالطبيعة . وعند جوته ان المرحلة الاولى من الانتاج الفني هي التمثل بالطبيعة . ومن ثم يتطور الفنان نحو تشكيل طريقة شخصية في التعبير ، وبعد ذلك يبلغ الأسلوب ، ومن ثم بجرد الشيء من حقيقته الخاصة ، كي يرتقي به حتى الحقيقة العامة ، الضرورية والأبدية . وهكذا اصبح دور الطبيعة ان تُقدم الى الفنان الأشياء التي يحيلها عقله المنظم والمبدع آثاراً فنية .

اما الموجة الثالثة من المثالية الالمانية فهي الرومانطيكية التي يلتقي فيها المذهب العقلي والصوفية معاً ، والتي تشمل الأدب والفن والفلسفة والدين والموسيقى والعلم ايضاً . هؤلاء يرثون المدارس السابقة لهم

وينكرونها في الوقت ذاته ، ولا يرفضون العقل ، بل يسعون الى بلوغ وجدان نيّر ، راغبين في نفس الوقت ألا يدمروا ما يدخل في منطقة اللاشعور . انهم في حاجة الى العقل كي يضيئوا اكثر اعماق النفس ظلمة ، ويحللوا الشعور بواسطته .

ولكن ثورة ١٨٣٠ في فرنسا ما لبثت ان قلبت كل شيء رأساً على عقب ، وارسلت في جوته نفسه موجة من القلق . ومات هيجل (١٨٣١) ، ثم جوته (١٨٣٢) ، وفرّ هاينه الى باريس عاصمة الثورة . لقد ابتدأ الناس يفهمون « ان عالم الافكار والمثل لا يقوم محل الواقع الحي » .

انهم لا يفتشون بعد الآن عن عقيدة للحياة ، ولا ينادون بضرورة تحطيم القيود ، ما دامت هذه القيود تتحطم امام اعينهم . انهم يريدون ان يعيشوا ملء الحياة ، وان يعانقوا كل الواقع الذي يظهر لهم الآن في عريه الوثني ، ولن يلبث ان يكشف عن ذاته في عريه المادي . انهم لا يسألون بعد الآن كيف يجب ان تكون علاقات الفكر بالطبيعة ، وكيف يجب تنظيم التعاون بينهما لبلوغ العمل الفني ، بل ان الفكر يتقبل ، بكل بساطة ، قانون الواقع اكثر فأكثر ... انها المدرسة الواقعية .

ومنذ ذلك الحين وتيارات عديدة تتوازع الكتاب الألمانيين : المذهب الطبيعي ، والمذهب الانطباعي ، والرومانطيكية الجديدة

والكلاسيكية الجديدة ، ومذهب الفن من اجل الفن والمذهب التعبيري كردٌ فعل على الانطباعية . . وأخيراً العودة الى الواقع التي اخترعوا لها اسماً عصرياً : « الموضوعية الجديدة » . ولا ريب ان اسباب هذا التخبط قائمة في تخبط البلاد السياسي ، وعدم الاستقرار الذي يسود الحياة الداخلية والخارجية في ألمانيا منذ سبعين سنة ونيف .

فؤاد أيوب

روائـــع

من

الأدب الألماني

قصة من الواقع

لهو القدر

جوهان فون شيللر

٤٦ سنة

جوهان فون شيللر

١٧٥٩ — ١٨٠٥

ابن جراح عسكري اعتزل الخدمة ، وقد اراد في البدء ان ينصرف الى اللاهوت ، ولكن الدوق دي ورتنبورغ جعل منه طالباً في مدرسته العسكرية حيث لحقت به عاهة العرج . وحيث شكا من نظام عبودية يصنع دمى وينتج عبيداً ويفرق دون حياء بين ابناء الارستقراطيين وابنـاء البورجوازيين الصغار — وهذاما يفسر تمرده فيا بعد على رذائل العصر الاجتماعية والسياسية . وهناك اكتشف هوميروس ، وفرجيل ، وشكسبير ، ومعهم روسو وبلوتارك وجوته الفتى ، وهناك نظم اولى قصائده ، في حمية منقطعة النظير . ثم عاد فدرس الطب ، وفي ١٧٨٠ قدم اطروحة عن علاقة طبيعة الانسان الحيوانية بطبيعته الروحية . واصبح عندئذ طبيباً في احدى فرق الجيش في ستوتجارت ، دون ان يحق له حمل شعار الضابط . وقضى سنتين كانتا جحيماً عليه ، ثم فر من فرقته ، وظل طوال شهرين يعيش حياة الشاعر المشرد ، حتى وضع احد اصدقائه تحت تصرفه منزلاً ريفياً قضى فيه قرابة العام حراً من كل قيد . ثم عاد الى الحياة العامة ، ليعرف المجد والفشل ، والمرض والبؤس ، والحب الفاشل ايضاً .وفي هذه السنوات كتب مآسيه : « اللصوص» وهي مأساة التناقض بين المثل الأعلى والواقع، و « مؤامرة فييسك » ، وهي مأساة الطموح الفاعل لكن المصروع ، ثم « الدسيسة والحب » ، حيث يصبح الحب البشري مأساة بفعل دسيسة الأهل ، فتضاعف المشكلة الانسانية بذلك مشكلة اجتماعية . ثم كانت « دون كارلوس » ، وهي مأساة عائلة في بيت ملكي . وهكذا ، فان سائرمؤلفات شيللر تجد جذورها في مشكلة الحرية ، وبذلك تنتسب الى الحركة العظيمة التي بدأتها مسرحية كلينغر : « العاصفة والانطلاق » .

كان ألوزيوس فون ج .. ابناً لمواطن يتبوأ مركزاً على قدر من الاهمية في فرقة ... وكان هذا الفتى يتحلى بمواهب عظيمة نادرة أزهرت واينعت اذ سقيت بمياه ثقافة ممتازة واسعة ساعدته على الانخراط ، في سن مبكرة غير معهودة ، في سلك الخدمة العسكرية تحت راية امير مقاطعته . وكان كلا الأمير والفتى في أوار الشباب ولألائه ، تسيطر عليهما طبيعة نزوعة الى الاندفاع والمغامرة سرعان ما قاربت بينهما كثيراً ، فأصبح ج .. محبوباً من اميره كل الحب ، عزيزاً على قلبه حتى درجة بعيدة ، بحيث لم يمض قصير وقت حتى اضحى ـ وهو الرافل في حلة من الذكاء والفتنة والمجون يتوجها اطلاع واسع ومعرفة عظيمة ـ زينة بهية لسائر الحلقات التي يشترك فيها ، بينما الأمير يتمتع في الوقت ذاته بما يكفي من الحس السليم كي يقدّر هذه الفضائل منه حقّ قدرها . وعلاوة على ذلك فقد أبدى ج .. روحاً عظيمة من المثابرة والجد والنشاط زادت في قيمتها ، الى جانب سائر ميزاته الاخرى ، طلعة نضرة فائقة الجمال ، وقوة جبارة يانعة ، وصحة موفورة مزدهرة . وكان يتقن في سلوكه ، كل الاتقان ، التوفيق بين رفعة الروح وعزة النفس الطبيعيتين فيه ، واللتين يخفف من حدتهما شيء كثير من التواضع والبساطة ، حتى لقد سحر الأمير بمزايا رفيقه الجديد الداخلية والخارجية معاً ، فما أسرع ما ترعرعت بينهما إلفة ومودة متينتان ، يغذّيها تماثل السن ، وتوافق الميول ، وتشابه الاخلاق ؛ فاذا فون ج .. يرتفع سريعاً في المراتب العالية الرفيعة ، وان استمر الأمير يعتقد ، لكثرة ما كان يرى الخير في صديقه ، أن ترقيته تسير ببطء شديد للغاية .

وكان ج .. في الثانية والعشرين من سنيه بعد عندما صار الى مناصب سامية جداً ، يحسده عليها اكثر رجال الدولة جلالاً وقدراً بعدان يبلغوا غاية مطافهم . ولكن روح هذا الفتى الفاعلة لم تك تفقه معنى للسكون والراحة ، او للاكتفاء والرضى ، فراح يهب ذاته في عناد لا يعرف الكلل أو الفتور لأكثر المهات والمشاغل خطورة ، هذا بينا الامير مستسلم للذاته ،غارق في مباذل تسليته ومرحه .. وما أسرع ما اضحى هذا المحظي الجديد ، مع الزمن ، عظيم الفطنة والنباهة ، فائق المهارة والحذق ، فراح يستثمر مواهبه أكثر فأكثر دون انقطاع حتى غدا اخيراً امين سرّ الأمير ووزيره ، ومن ثم مشيره ، بعد ان لم يك فيما مضى الا نديماً له ، وشريكاً للذاته ليس غير ... ولم ينقض وقت قصير حتى أمسى الطريق الوحيدة لنيل رضى الأمير أوعطفه: لقد ملك الاشراف على سائر الرتب والوظائف ، كما اصبح حرّ التصرف في توزيع المنح والمكافئات ، على من شاء ، كيفما شاء ...

ولكنه كان ، على اية حال ، كثير الفتوة قليل التجربة ، حمله الحظ بخطى واسعة الى مناصب فائقة الرفعة حتى استحال عليه استعمال سلطانه باعتدال وتحفظ . ولقد نفخ فيه ذلك الخضوع المشبع بالاجلال والتذلل الذي يبديه نحوه كبار نبلاء الأرض- وهم الذين يتجاوزونه جميعاً محتداً وثروة وشهرة- رماد كبريائه وطغيانه الهاجعة، فراحت تنزو عنه قسوة في الأخلاق لم تفارقه بعد ذلك خلال سائر تقلبات دهره. والحقيقة انه لم تكن ثمة خدمة ، مهما عظم شأنها وعلا قدرها ، إلا ويجرؤ أصدقاؤه على التماسها منه ، أما اعداؤه فكان لهم وحشاً ضارياً لا يعرف الى الرأفة سبيلاً . ولم يعن قط بالآراء شخصياً، بقدر ما عني باغناء عدد من صنائعه ،الذين كان هوى خالص يملي عليه اختياره لهم بالأحرى من روح العدل والانصاف . وبالرغم من كل ذلك، فقد خلع عنه - لزمته واستبداده العظيمين ، وغطرسته في إلقاء اوامره ، وعجرفته

اللامتناهية ، وبمجمل سلوكه وسائر تصرفاته عامة — حتى اولئك المدينين له بكل شيء ، بينما انقلب خصومه ، وجميع اولئك الذين عمّر الحسد قلوبهم ضده ، الى اعداء لا يرحمون ولا يلينون البتة . كان هؤلاء القوم يكدسون المواد لادانته المقبلة ، وهم يراقبون كلاً من أفعاله في غيرة وحسد ، ويرسمون الخطط على مهل في سبيل نسف عظمته ، وفي عدادهم نبيل ايطالي من حاشية الأمير ، يدعى الكونت جوزيف مارتينزو ، رشحه ج .. نفسه لهذا المركز ، على اعتباره صنيعة مطيعة لا يُخشى منها ضرر أو أذية . وكانت مهمة هذا الايطالي تنحصر في تأمين رغبات الأمير الذي اصبح الوزير الجديد يجده الآن باعثاً على الملل ، بعد ان أمست المهات الكبرى تشغل كل وقته ، وتستعبده أكثر فأكثر يوماً بعد يوم .

كان صاحبنا على يقين تام — وهو يرى في هذا الرجل صنيعة يديه ، يستطيع في كل لحظة أن يردّه الى تفاهته الأصلية — من اخلاصه الذي لا بدّ ان يتمسك به خوفاً وامتناناً معاً ؛ وهكذا ، فقد وقع في ذات الخطيئة التي ارتكبها ريشيليو عندما ترك لويس الثالث عشر لرعاية الفتى لوغران . واذا تركنا جانباً عوزه لمقدرة ريشيليو في اصلاح مثل هذه الخطيئة الكبرى ، فقد كان عليه ان يعامل عدواً أكثر مرارة بما لا يقاس من ذلك الذي لقيه الوزير الفرنسي . ذلك ان مارتينزو ، بدلاً من ان يتباهى بحظه السعيد ويفتخر ، أو يبعث في سيد نعمته الشعور بامكانه الاستغناء عن تأييده بعد الآن ، فقد سعى على العكس من ذلك تماماً لاظهار تعلّقه بالمحسن اليه باستمرار ، والى تحكيم اواصر الاتحاد به وتمتينها أكثر فأكثر ... وفي أثناء ذلك ، لم يدع فرصة واحدة تسنح له بحكم مركزه إلا وتعلق بها كي يتحبب الى الأمير ، حتى اضحى ضرورياً له ضرورة الهواء الذي ليس عنه غناء ، بعد ان كان ذا فائدة فقط في المراحل الأولى من علاقته به . وإذ توصل هكذا ،

شيئاً فشيئاً ، الى اكتشاف كل الدروب المؤدية الى ثقة الأمير وحظوته ، لم يتوانَ عن التسلط والسيادة على فكره وتوجيهه حسب رغباته ، ولم يتورع - في سبيل بلوغ هدفه - عن اللجوء الى سائر الفنون التي علمت الكبرياءُ والخلقُ الرفيعُ الوزيرَ كيف يحتقرها ويزدريها : لقد كان استهتاره سواء بالنسبة للغاية ، وبالنسبة للوسائل الموصلة اليها معاً . كان يعرف تمام المعرفة انْ ليس من شيء يقود الى الثقة غير المتحفظة كالمساهمة في الرذائل المشتركة ، فطفق يستخدم هذه المعرفة كي يؤثر على الأمير ، فيثير اهواء كانت هاجعة حتى ذلك الحين ، ويوجهها نحو اسوأ الغايات ، ويغرقه فيها أكثر فأكثر ، بضروب مختلفة من فنون الاغراء ، في غلوّ وإفراط لاحدود لها ، دون ان يشرك احداً في ذلك ، او يكشف لكائن من كان عن مناوراته ، حتى صار اخيراً مالكاً لمعظم الأسرار واكثرها إدانة وخطورة . وعندئذ انطلق يرفع بناء مكانته الخاصة على اساس انحلال اخلاق الأمير وتفسخها ، لأن تلك الأسرار التي جعلت منه رجلاً رهيباً مكنته من السيطرة التامة على مشاعر الأمير ، قبل ان يخطر في بال ج ... ان هناك خصماً له ينافسه ويحفر الأرض تحت قدميه .

ولقد يبدو غريباً ان يغرُبَ عن ذهن الوزير مثل هذا التبدل الهام . ولكن حظه العاثر شاء له ان يكن تقديراً واعتباراً عظيمين لقيمته الخاصة ، حتى لا يرتاب لحظة في ان امرءاً مثل مارتينتزو قد يجرؤ على منافسته ، بينما كان هذا الأخير شديد الحذر من ارتكاب ادنى خطيئة يمكن ان توقظ سيد نعمته من أمنه واطمئنانه . وهكذا فان نفس تلك الثقة العاتية التي قادت الى انهيار كثيرين من السابقين له من قمة الحظوة الملكية ، كانت تهيىء بسرعة دمار الوزير الحاضر . ولم تكن العلاقات الطيبة بين الأمير ومارتينتزو تبعث فيه اي انزعاج أو قلق على الاطلاق ؛ كان في الواقع سعيداً بالتنازل عن نوع من الحظوة يحتقره ، ويزدريه ، ولا يرضي طموحه البتة... فهو لم يقدر صداقة

الأمير ، إلا بمقياس ما كانت تمهد الطريق امامه نحو السلطة ، فلا عجب ان طفق الآن يرمي بعيداً عنه ، في حماقة وجنون ، ذلك السلم الذي رفعه الى بغيته وعظمته .

وما كان مارتينتزو ليرضى بأن يلعب دوراً ثانوياً ، فطموحه يحمله ابداً الى الأمام قدماً . وهكذا اخذت آماله تتضاعف كلما تقدم خطوة جديدة في حظوة الأمير ، وطموحه يوزع جذوره في التربة الموانية اعمق فأعمق ، ويزداد تأصلاً وقوة يوماً بعد يوم ، بينما دور التذلل الذي يمثله تجاه المحسن اليه يثقل عليه اكثر فأكثر بمقدار ارتفاع مكانته ونموّ شهرته . أضف الى ذلك ان سلوك الوزير تجاهه ، بدلاً من ان يصير ألبق مع تقدمه في حظوة الأمير ، كان يهدف على العكس الى تذليل كبريائه بما لايحصى من الاخطارات التي تذكره بارتباطه وتبعيته . وأمسى هذا الطغيان أخيراً يتجاوز طاقة احتمال مارتينتزو ، فانطلق يكيد بكل جرأة لخصمه ، ويتآمر على تدميره بصفعة واحدة قاضية . ولقدأنجز مشروعه ، تحت ستار قاتم من الخفاء لاسبيل الى النفوذ منه ، وان ظل يتردد في وضعه حيز التنفيذ ، خائفاً من المغامرة بالدخول في مباراة مكشوفة مع خصمه ، مدركاً كل الادراك ان اشراق حظوة الأمير اذا اقترب من خاتمته ، فان اقل الظروف شأناً قد ترده الى ما كان عليه من التألق واللمعان ، مادام الأمير يضمر اعظم الاحترام لرجحان عقله وحسن رأيه ونصائحه ، وما دام الوزير لايقل اليوم سلطاناً وقوة منه حين كان يتمتع بمعزة الأمير له كصديق ورفيق ، هذه المعزة التي تلاشت الآن ولم يبق منها إلا آثارها فقط .

كان الايطالي يدرك كل ذلك ، ويدرك ايضاً ان الضربة التي ينوي إنزالها بمنافسه يجب ان تتكلل بالنجاح ، والا ارتدت عليه وكانت قاضية له ، بحيث بقيت الوسائل التي بلغ بها غرضه سرية لايدري بها إلا القلائل من

الذين تعاونوا معه على تحقيق مشروعه . وهكذا انطلق يروي للأمير انه اكتشف اتصالات مشبوهة يقوم بها الوزير مع بلاط مجاور ، ولكنه لايستطيع ان يؤكد فيما اذا كانت عروضه قد نالت الموافقة ، أو قوبلت بالرفض . ورأى الأمير ان ج .. لمن أكثر الناس خيانة وعقوقاً وغدراً ، وان جنحاته ثابتة اكيدة لاتنتظر الا العقاب الصارم الذي تم الاتفاق عليه خفية بين المحظي الجديد وسيده . ولم يشعر ج .. اثناء ذلك ابداً بتجمع العاصفة واقترابها ، بل استمر متدثراً في طمأنينته القاتلة حتى اللحظة الأخيرة المفجعة التي ألقت به من علياء امجاده الأميرية الى هاوية الكراهية والازدراء ، وحضيض المذمة والاحتقار .

وفي اليوم المقرر ظهر ج .. في قاعة الاحتفالات كالعادة . انه لم يكن ، قبل عدة سنوات ، الا جندياً بسيطاً ، اما الآن فهو ضابط رفيع الرتبة ، لا بل ان رتبته العسكرية هذه لم تكن في واقع الأمر إلا ستاراً يمارس سلطته السياسية التي تضعه حالياً فوق سائر المتقدمين في البلاد . وكانت قاعة الاحتفالات أشبه بالمنصة التي يشرف منها على مواطنيه ، فهو ههنا يحكم بكبرياء الوالي والراعي معاً ، وهو ههنا يتلقى ولاء صنائعه المتذلل الخاضع ، فيكافىء نفسه بذلك على اتعاب النهار وجهده . وكان اتباعه الرئيسيون ، وجميعهم من النبلاء وذوي المراتب الرفيعة ، يتأصعون حوله متلهفين على تقديم الخضوع له ، قلقين مع ذلك من اجل كيفية الاستقبال الذي سيلقاهم به . وكان الأمير نفسه ، إذ يمرُّ من هناك ، يتطلع الى وزيره الأول بعين عطوفة ، في نظرتها شيء من الاذعان ايضاً : كان يدرك تماماً ما سينجم عن الاستغناء عن خدمات مثل هذا الانسان من خطر بليغ يفوق ، من دون ادنى ريب ، خطر الاستغناء عن صداقة خصمه . ولقد وقع الاختيار على هذه البقعة بالذات ، حيث كانت ضروب الولاء والعبادة تقدم

الى الوزير فكأنه إله في علياء سمائه ، ليجري فيها مشهد خزيه وعاره المفجعين . وما لبث الأمير ان لحق بالايطالي ، وأعطاه الاذن بالشروع في العمل ، فبينا ج .. يتنقل غير آبه بين اصدقائه الذين يرفعون اليه ، وهم مثله لا يرتابون لحظة واحدة فيما ينتظره ، ضروب اجلالهم واحترامهم ، وينتظرون اوامره ورغباته ، اذ بمارتينزو يبدو - بغتة - وبرفقته بعض ضباط الجيش ... انه لم يعد ذلك المستعطف الضعيف ، المتذلل ، المبتسم ابداً ؛ بل إن غطرسة ووقاحة العبد الذي رُفع على حين غرة الى مصاف الاسياد كانتا باديتين في مشيته المتعجرفة ، وعينه المتقدة الشرسة . سار باستقامة نحو وزير الأمير ، ووقف امامه وجهاً لوجه ، دون ان يخلع قبعته ، بضع لحظات ، صامتاً لا ينبس ببنت شفة ، ومن ثم طلب منه سيفه باسم الأمير ، فأعطي له هذا السيف في شيء كثير من الانفعال والخوف . وعندئذ دفع بذؤابته العارية في الارض ، ثم حطمه بقدمه شظايا متطايرة تبعثرت عند قدمي ج ... ولدى ذلك ، امسك الضابطان بهذا الأخير ، واسرع احدهما يرفع عن صدره وسام الصليب ، والآخر يقتلع اشرطة الكتفين ، وحلية الثياب ، وحتى الأرياش عن قبعته . ولم تستغرق هذه العملية الوحشية المذلة اكثر من برهة وجيزة للغاية ، لم يرتفع اثناءها اي صوت بالاستنكار او الاحتجاج ، بل كان صمت مطبق يخيم على الحشد العظيم بأسره . كان مئات النبلاء الحاضرين يقفون دون حراك ، وقد شحبت وجناتهم ، وخفقت قلوبهم ، واجتاحت وجوههم سيماء الدهشة الأليمة ، اللهم إلا ج .. نفسه الذي احتفظ ، طوال هذه المحنة الشديدة ، برصانته وجلده وثباته .

وأخيراً ، سيق بين عديد صفوف المتفرجين حتى خارج القاعة ، حيث كان في انتظاره عربة مغطاة دُعي الى ركوبها ، بينما التفّ حول العربة كوكبة من الفرسان لحراستها . وفي اثناء ذلك ، انتشر الخبر في كل حدب

وصوب ، فاذا النوافذ تفتح على مصاريعها ، والشوارع تغصّ وتموج بجماهير الفضوليين الذين راحوا يلاحقون العربة ، وهم يطلقون صيحات الظفر والاحتقار والنقمة ، فتتردّد اصداؤها في كل جهة حتى مسافات شاسعة .

ونجا أخيراً من الضوضاء المرعبة ، ليستقبل محنة أشدّ هلعاً ايضاً ، فقد انعطفت العربة عن الطريق الرئيسية الى درب ضيقة جانبية غير مطروقة ، وذهبت في اتجاه ساحة الاعدام ، ومن ثم في طريق عامة ... وهكذا قضى سبع ساعات من البؤس واللوعة ، عرضة لحرارة الصيف اللافحة ، جاهلاً اسباب هذه المعاملة القاسية ، محروماً من كل عون او عزاء ، قبل ان يبلغ وجهته . كان المساء قد تقدم كثيراً عندما توقفت العربة ، فانتزع ج .. عن مقعده انتزاعاً ، فاقد الوعي ، وقد رضخت قوته العظيمة في النهاية لاثنتي عشرة ساعة من الركوب . وعندما استردّ وعيه ، وجد نفسه حبيساً في سرداب تحت الأرض ، يضيئه ولا يضيئه القمر المشرق الذي تتسرب شعاعاته عبر ثغرات قليلة محفورة في اعالي الجدار ، ووجد قريباً منه قطعة من الخبز الجاف القاسي ، واناء من الماء ، وكومة من القش ليرقد عليها . واستمرت الحال هكذا ، دون اي صدى دخيل ، حتى ظهر اليوم التالي ، عندما صافحت سمعه ضوضاء انفتاح احدى النوافذ الحديدية في مركز البرج ، وتراءت لباصرتيه يدان تدليان اليه سلة شبيهة ، في كل شيء ، بتلك التي كانت تحوي طعام البارحة . وأحس للمرة الأولى منذ اعتقاله ميلاً للاستفهام عن الدافع الى هذا الاعتقال ، وعن مصيره في المستقبل أيضاً . ولكنه لم يتلق من فوق اي جواب على سؤاله مطلقاً ، بل اختفت اليدان ، وأرتج المصراع بكل بساطة . وهكذا عاش دون ان يصافح نظره وجهاً انسانياً ، او يبلغ سمعه صوت بشري ، ودونما بصيص نور يضيء

مصيره القاتم ، جاهلاً المستقبل والماضي معاً كل الجهالة ، محروماً من دفء الشمس ومن برودة الهواء ، طوال اربعمائة وتسعين يوماً طافحة عذاباً ، تحفظ فيه شعلة الحياة علاوة ضئيلة من الخبز اليابس ليس غير . وكان لابدّ له ان يشرب كأسه حتى الثمالة ، إذ وقع يوماً على اكتشاف زاد في بؤسه وضاعف من شقائه ... لقد عرف محبسه ، فهو الذي امر ببنائه منذ عهد قريب في عاصفة من الغضب على ضابط فاضل ، شاء له سوء طالعه ان يسخط عليه وينقم ، لا بل كان هو من اقترح ايضاً الطريقة التي ستجعل هذا السجن اكثر هولاً ورعباً ايضاً . وما زاد الثمالة مرارة وعلقماً أنّ ذلك الضابط نفسه ، الذي كان مقدراً له ان يفنى ويتلاشى في ذلك الحبس ، قد خلف رئيس القلعة المتوفى حديثاً ، فأصبح بذلك ، بفضل نوع من العدالة المنتقمة ، سيد مصير عدوه السابق الذي حُرم بذلك حتى العزاء الأخير ، عزاء الرثاء لنفسه والاشفاق عليها ، هذا العزاء الذي يعرف حق المعرفة انه غير جدير به أو أهل له ، مما يثير فيه الشعور بأنه مثار للقرف ومدعاة لاحتقار الذات - وهو أشد ما في الحياة مرارة على الاطلاق - تابع لنبل انسان لم يُبدِ هو تجاهه ذرة من النبل قط .

ومن حسن حظه ان كان سجانه رجلاً نبيل الشعور ، أبت عليه كرامته ان يلجأ الى انتقام وضيع من عدوه ، لا بل انه أسف عظيم الأسف لذلك الدور الذي عُهد اليه بتنفيذه ، إن لم يجد له مبرراً على أية حال ، وهو الجندي القديم والتابع المخلص ، في الابتعاد عن القوانين المتبعة ، ولم يجرؤ على الانحراف عن التعليمات المعطاة له ... ولقد اشفق عليه ، على اية حال ، فعهد به الى احد مساعديه ، وهو واعظ السجن الحنون الذي قرّر ، اذ تأكد من انعدام كل إدانة ضد حبيسه ، اللهم الا مجرد الاشاعات ، ان يخفف من آلامه ما استطاع الى ذلك سبيلاً . ولقد اعتقد هذا الرجل الممتاز - الذي افضّل ان

احذف اسمه ههنا ـ انه يتمم واجبه الديني على أكمل وجه اذا ما خلع مساعدته الروحية ومؤاساته على كائن محروم من اي أمل في الرحمة والرأفة ، وساعده على الخلاص من محنته القاسية .

ولما لم يستطع ان ينال السماح له برؤية السجين من رئيس القلعة نفسها ، فقد غدا الى العاصمة كي يلتمس موافقة الأمير نفسه على ذلك ، وخرّ جاثياً على ركبتيه امامه ، مسترحماً بعض التخفيف من عذابات ذلك الرجل البائس . ولقد اصرّ ، باسم دعوته الدينية ، على السماح له بزيارته متى اراد ، باعتباره نائباً هو مسؤول عن روحه في الدرجة الأولى . ولقد جعله موضوعه بليغاً في التماسه ، فما اسرع ما اثر في الأمير الذي رفض طلبه بادئ الأمر . ولقد ربح اخيراً ، لكثرة ما بذل من الجهد ، الاذن بزيارة الأمير الشقي في كل وقت ، وتأمين كل حاجياته الروحية له .

وهكذا كان أول وجه انساني يطالع ج .. بعد قرابة ستة عشر شهراً من إساره ، هو وجه هذا المحسن الجديد اليه . ولقد كان بليغاً في امتنانه وعرفانه بالجميل لذاك الصديق الوحيد الذي بقي له في العالم بأسره ... ان كل رفاهيته وعظمته السابقتين لم تربيا له صديقاً واحداً فقط ، اما القسيس فقد امتلأ قلبه فرحاً ودهشة اذ دلف الى تلك الزنزانة الرهيبة ، تبحث عيناه عن الكائن الانساني الملقى فيها ، فلا تصافحان الا هيكلاً عظمياً ابيض اللون ، وحشي الصورة ، يزحف في اتجاهه زحفاً ، بطيئاً متهالكاً ، وقد أشبه مضجعه عرين وحش مفترس بالأحرى من مأوى انسان حقيقي . وكان يبدو ان سائر امارات الحياة قد غاضت من ملامحه التي حفر اليأس والحزن فيها اخاديد عميقة ، وقد نمت لحيته وطالت اظافره حتى درجة مرعبة ، وتهدلت ثيابه عليه اسمالاً بالية وخروقاً مهترئة ، اما الهواء الذي يتنفسه فكان ملوثاً فاسداً لنقص الماء وكل وسائل النظافة الأخرى . وما اسرع ما عاد القسيس

ادراجه ، وقد تملكه ما يشبه الرعب امام الحالة الرهيبة التي وجد الأسير عليها ، وحث الخطى الى مدير القلعة يلتمس منه تخفيفاً جديداً لآلام ذلك الشقي المسكين ، مادام يخشى بدون ذلك ان يكون التنازل الأول عديم الفائدة . ولما كان مطلبه يتعارض مع التعليمات الدقيقة الواردة في رسالة الحاكم ، فقد قرّر هذا الراعي الطيب القلب ان يسافر الى العاصمة مرة اخرى ، املاً في الحصول على امتيازات جديدة من الأمير نفسه . وهناك أعلن انه لا يستطيع ان يناول الأسرار المقدسة الى بائس يكاد يتجرد عن كل شبه بالكائن الانساني ، دون ان يدنس الصفة المقدسة لتلك الأسرار . وقد نال مطلبه في النهاية ، فأصبح مصير الأسير منذ ذلك الحين افضل كثيراً مما كان عليه سابقاً .

وعلى اية حال ، فقد ظل ج .. يتفسخ في الاسار عدة سنوات اخرى ، وان امست محنته اقل عذاباً وأخف وطأة مما قاساه قبلاً في المراحل الاولى من اعتقاله ، وخاصة بعد ان انقضت المدة القصيرة التي استلم فيها مارتينزو مقاليد الحكم ، وخلفه آخرون كانوا إما اكثر انسانية منه ، او بريئين من كل دافع الى الانتقام والتشفي . ومع ذلك ، فقد مرت عشر سنوات دون اي تنقيب قضائي او اية تبرئة صورية ، حتى اطلق سراحه أخيراً بعد ذلك الزمن الطويل ، وقدمت له حريته على انها هبة اميرية ، وطلب منه في الوقت ذاته ان ينفي نفسه من وطنه الأم . وهنا تبدأ المعلومات المروية بالنقصان والقصور ، بحيث أجدني مضطراً الى غض النظر عن مرحلة متوسطة تبلغ عشرين سنة تقريباً ، انخرط اثناءها من جديد في السلك العسكري ، في خدمة بلاد غريبة ، حتى بلغ بحذقه ومثابرته الى نفس المراتب العليا التي توصل اليها قبلاً في بلاده . ولقد فعل الزمن فعله ايضاً ، فانقضت بالنسبة للأمير أيام اللذة والهوى ، واستردت العاطفة الانسانية سلطانها عليه شيئاً فشيئاً ، حتى إذا شاب شعره ، واخذ يرتعش

عند شفا رمسه ، تراءى له صديق شبابه ، وطفقت صورته تعكر صفو راحته وهنائه باستمرار . وفي الختام ، دعا الرجل المنفي لزيارة وطنه عساه يصلح ما استطاع الاساءات التي ألحقها به . ولقد كان ج .. يتلهف بالطبع منذ زمن طويل الى العودة ، ولكن اللقاء كان شاقاً لكليهما ، وإنْ كان عاطفياً وحاراً في ظاهر الأمر . ولقد راح الأمير يحدّ النظر في لهفة ، فكأنه يحاول ان يتذكر تلك الملامح المألوفة لديه كل الالفة ، والغريبة عنه مع ذلك كل الغرابة . وبدا كأنه يتذكر تلك الغضون العميقة التي حفرها ، هو نفسه ، في هذه السيماء ، ولكنه لم يستطع ان يتعرّف في اي من تقاطيع ذلك الوجه المسن ، المتعب كمداً وعذاباً ، الى اي من ملامح رفيق صباه وصديق فتوته . وكان الترحاب ونظرات الثقة المتبادلة مصطنعة من كلا الجانبين .. فالحياء المشترك ، والخوف ايضاً ، قد فصلاهما الى الأبد ، وأقاما بينهما هوة يصعب اجتيازها . إن نظرة وحيدة حملت الى نفس الأمير ادراكاً تاماً بذنبه ، فآلمته وآذته ، اما ج . . . فأحس انه لا يستطيع بعد اليوم ان يضمر اي ودّ او محبة لذلك الذي صنع بؤسه وشقاءه .

وسعى الأمير الى التكفير عن ذنوبه ، واكتساب الراحة لضميره ، فردّ على ضحيته كل المجد والسلطان اللذين كان يتمتع بهما سابقاً ، ولكنه لم ينجح قط في استرداد ذلك الاخلاص وتلك المحبة اللذين كانا يميزان صداقتهما القديمة . ولقد أحزنه فشله للغاية ، حتى وجد قلبه موصداً في وجه جميع مباهج الحياة ، الأمر الذي القى ظل الشقاء على آخر ايام حياته .

أما ج .. فتابع حياته المضطربة طوال تسعة عشر أخرى من الأعوام ، دون ان يخمد الزمن او القدر نار هواه ، او يطفئا لهيب عاطفته ، او يبهما حيوية خلقه . ولقد ظل ، حتى حين بلغ السبعين من سنيه ، يلاحق شبحاً من السعادة لم يملكه حقاً الا عندما كان في العشرين من عمره فقط . ومات وهو

مدير قلعة يُسجن فيها المجرمون السياسيون ، كان الجميع ينتظرون منه ان يعامل البائسين الحبيسين فيها إنسانية حقة ، ولكنه كان يعاملهم ، على العكس من ذلك ، بقسوة عظمى ومزاج سيء للغاية . وان هو تذكر تعاساته القديمة يوم كان سجيناً ، فانه لم يشر الى ذلك ابداً ، لا بالقول ولا بالفعل ، حتى تهاوى في احدى النوبات القلبية التي صار عرضة لها أكثر فأكثر يوماً بعد يوم ، فلم يسترد وعيه منها ، بل مات اخيراً ضحية الاهواء التي دمرت خلقه ، كما حطمت مجده ...

[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

كأنه يتذكر تلك الشجون العميقة التي حفرها [illegible] في نفسه [illegible]

ولكنه لا يستطيع ان يشير [illegible] الى اي من تقاطيع ذلك الوجه [illegible] كذا وعذابا ، الى اي من ملامح [illegible] وصدق [illegible] . وكان [illegible] ويظن ان [illegible] مصطنعة من كلا الطرفين [illegible] ، [illegible] ايضا ، قد [illegible] الى [illegible] يجتاز [illegible] . ان [illegible] وحيدة [illegible] الى نفس الأمير [illegible] ، [illegible] . [illegible] لا يحس انه لا يستطيع بعد اليوم ان يشعر اي ود [illegible] يأسه وشقائه .

ومضى الأمير الى [illegible] من [illegible] الراحة [illegible] الى [illegible] كل [illegible] والسلطان [illegible] ، ولكن [illegible] في [illegible] الا [illegible] وتلك [illegible] . ولقد [illegible] ، حتى وجد قلبه [illegible] في [illegible] ، الأمر الذي [illegible] الشقاء على [illegible] .

[illegible] حياة [illegible] طوال [illegible] من الأعوام ، دون ان [illegible] الزمن او القدر [illegible] ، او [illegible] ، او [illegible] . ولقد [illegible] ، حتى [illegible] ، [illegible] من السعادة [illegible] .

سندريللا

الأخوان جريم

کلیہ سلطنت

جزو ثانیہ ۱۲

الأخوان جريم

كبيرهما جاكوب ، ولد عام ١٧٨٥ وتوفي عام ١٨٦٣ ؛ اما الآخر ، ولهلم ، فقد عاش بين سنتي ١٧٨٦ – ١٨٥٩ ، وكلاهما وجهان بارزان من وجوه المدرسة الرومانطيكية الجديدة في الأدب الألماني التي نشأت بعد ان تفسخت المدرسة الرومانطيكية القديمة بموت نوفاليس ، ومغادرة شليغل لألمانيا الى باريس ، وكذلك تيك وشليلماخر . والواقع ان الجيل الجديد لايؤلف مدرسة بالمعنى الصحيح ، بل جماعات رومانطيكية اقل تماسكاً ، واقل اتجاهاً نحو التأملات الواسعة ، واكثر ميلاً نحو اللاعقلي ، وما يسمونه « بالناحية المظلمة من النفس » . ولقد كان بين الأخوين جريم فروق عديدة جعلت التعاون بينهما خصباً للدرجة القصوى ، وهكذا جمعا كل الأقاصيص الشعبية المنتشرة في ألمانيا ، وقدماها الى القراء في بساطتها وسذاجتها ونكهتها الشعبية اللذيذة . ثم اتجه ولهلم نحو ترجمة الاغاني والأقاصيص الدانمركية ، وكتب عام ١٨٢٩ « اسطورة الجرمانيين البطولية » . أما جاكوب فأنتج « الميثولوجيا الألمانية » (١٨٣٥) ، ثم « قواعد اللغة الألمانية » و « تاريخ اللغة الألمانية » (١٨٤٨) .

والقصة التالية « سندريلا » أهل لاحتلال مكان لائق في كل مجموعة من القصص الألمانية ، فهي من اقدم القصص الشعبية المروية بين الألمان ، كما انها تمثل روح كل ذاك الجيل الجديد من الكتاب الرومانطيكيين الذي أتينا على ذكره آنفاً . ولقد جعلها الاخوان جريم ذائعة الصيت في سائر ارجاء العالم ، عندما سجلاها على الورق ، وارسلاها بين ايدي الناس في كل مكان .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

في ذلك الزمان ، كان رجل عظيم الثراء توفيت زوجه فخلّفت له طفلة صغيرة السن ، غضة الاهاب ، فائقة الوداعة . وبعد مضي عدة سنوات على ترمّله ، اراد ان يمنحها حدب الأم وحنانها ، فتزوج من جديد ، ولكن زوجته هذه المرة كانت أرملة في حاشيتها ابنتان بالغتان . ولقد كانت هذه الزوجة الجديدة متكبرة وحسودة ، إلا ان الابنتين كانتا تفوقانها شراً ورذيلة ، فاشتركا بتامع والدتهما على تعكير صفو حياة الفتاة الصغيرة ، وتحويلها الى جحيم من شقاء عظيم ، وتعاسة كبيرة ، وبؤس دائم . وكانت الاختان تغاران من شقيقتهما الصغيرة اشدّ الغيرة ، فهي تتحلى بجمال فائق يبهر الأنظار ، بينما القبح والدمامة ميزتهما البارزة ، فراحتا تبذلان كل ما في وسعهما لتنغصا عليها الحياة حتى امسى الوجود بالنسبة اليها مع الزمن - بتأثير غيرتهما وحسدهما المتواصلين - عبئاً ثقيلاً ، وجحيماً لايطاق . وهكذا دُفع بالفتاة المسكينة الى المطبخ تقضي أيامها في إنجاز اشق الاعمال وأوسخها . ولما كانت ترتدي دوماً الأسمال المهترئة ، وتقعد الى جانب النار المتأرّثة في الموقد فتنعكس عليها حمّى اللهيب المتوهّجة ، فقد اطلقوا عليها لقب سندريللا ، اي الجمرة .

وكان لملك تلك البلاد فتى وحيد بلغ سن الزواج ، فأراد أبوه ان يجد له عروساً لائقة . ولذلك ، فقد أحيا حفلة كبيرة دعا اليها سائر سيدات البلاد وأوانسها دون تفريق . وانتشر الخبر في كل حدب وصوب ان هذه الحفلة ستكون رائعة للغاية ، فتدوم طوال ثلاث ليالٍ دون انقطاع ، الأمر الذي

اثار في الناس شوقاً لاهباً لحضورها ، وبصورة خاصة عندما عرفوا ان الأمير الفتى سيختار عروسه من بين السيدات الحاضرات .

وقد تلقت أختا سندريللا دعوة الى تلك الحفلة العظيمة ، مثلهما في ذلك مثل بقية قريناتهما . ومنذ تلك اللحظة اصبح محور حديثهما الوحيد الثياب التي سترتديانها ، والزينة التي ستتحليان بها . لقد كانت كلّ منهما تأمل في سرّها ان يختارها الامير شريكة لحياته ...

وعندما جاء اليوم المنشود اخيراً ، هرعتا الى ارتداء ثيابهما بعد طعام الافطار مباشرة . وقامت سندريللا بمساعدتهما ، فقضت طوال النهار تصفف لهما شعرهما ، وتقضي طلباتهما ، وترتب هندامهما دون تذمر او احتجاج . ولكم ودّت ، اذ شاهدت ثيابهما الجميلة ، ان تصحبهما الى الحفلة ، حتى اذا سألتهما في حياء وخجل شديدين إن كانت تستطيع ذلك ، قوبلت بسخرية لاذعة منهما ، إذ أجابتاها ضاحكتين :

– انت تذهبين الى الحفلة ؟ وماذا تريدين ان تفعلي هناك بثيابك البالية ، ووجهك القذر المتسخ على هذه الصورة الفظيعة ؟ لا ، لا ياسندريللا ! عودي الى مقعدك بين الرماد ، فهو المكان اللائق لفتاة مطبخ صغيرة مثلك !

وهكذا غدت الشقيقتان وأمهما في عربة فاخرة الى قصر الملك ، وخلفن سندريللا وراءهن وحيدة بائسة .. جلست الصغيرة على الأرض امام نار المطبخ ، واخذت تبكي بهدوء بينها وبين نفسها . انها تحسّ الوحدة والتعاسة بصورة تفوق طاقة احتمالها وتتجاوزها .

وبينما هي قابعة في الظلمة بين الرماد ، ونور اللهب يتراقص امامها ، ووجهها مدفون بين راحتيها ، سمعت صوتاً يهتف بها : « سندريللا ، سندريللا ! » . فتطلعت مرتاعة لترى من يكون المنادي ... فشاهدت امرأة مسنة تقف قبالتها ، وهي تتكيء على عصا فارعة . كانت العجوز ترتدي معطفاً طويلاً احمر اللون ،

وحذاء عالي الكعبين ، وقبعة سوداء مرتفعة . ولم تستطع سندريللا ان تفهم من أين جاءت هذه المرأة ، وكيف دخلت ... فهي لم تعبر من الباب بسكل تأكيد ، ولا من النافذة ايضاً ، ما دام كلاهما مغلقين .

لقد بلغت الدهشة بسندريللا حداً عظيماً لدى رؤيتها هذه المرأة ، حتى توقفت عن البكاء ، وراحت ترقبها في حيرة وارتباك .

وسألت المرأة العجوز :

— لماذا تبكين ، ياصغيرتي ؟

— لأن والدتي وشقيقتيّ ذهبن الى الحفلة ، وخلفني هنا وحيدة .

فقالت العجوز :

— هل تريدين ان تذهبي الى الحفلة ايضاً ؟

فردّت الصغيرة متأوهة :

— بلى ، ولكن لافائدة من ذلك ! انني لا املك لباساً سوى هذه الأسمال البالية المرقعة .

فأجابت العجوز :

— حسناً ، حسناً ! كوني فتاة طيبة ولا تبكي . . انا هي جنيتك ، إذا ما فعلت ما أطلبه منك فلعلك تذهبين اذن بالرغم من كل شيء . اسرعي الى الحديقة وجيئيني بيقطينة من هناك !

وانطلقت سندريللا تعدو الى الحديقة ، وعادت بأكبر يقطينة وجدتها هناك . فقالت الجنية :

— والآن ، أحضري مصيدة الفيران من القبو .

فأسرعت الفتاة تنفذ الطلب . .

كان في المصيدة ست فيران ، أسرجتها الجنّية الى اليقطينة ، ووضعت جرذاً كبيراً في المقدمة ليقودها ، وحرباوين في الخلف ، حتى اذا تمّ لها ذلك

رفعت عصاها السحرية العقيدة فوقها ، فاذا باليقطينة تنقلب على الفور الى عربة فاخرة مسقوفة ، والفيران الى ستة من الجياد الاصيلة ، والجرذ الى سائق ضخم ، والحرباوان الى خادمين طويلين شعرهما مصفف ولباسهما من الحرير الخالص .

وقالت الجنية :

— انظري ، هذه هي العربة التي ستحملك الى الحفلة .

فأجابت الفتاة :

— واأسفاه ! كيف لي ان اذهب الى الحفلة ؟ انني لا أملك لباساً سوى هـذا !

ولمست ثوبها الممزق ، فردّت الجنيّة :

— أهذا كل شيء ؟

ومرة اخرى رفعت عصاها السحرية العقدة ، فاستحالت أسمال الفتاة المهترئة الى اجمل ثوب في العالم ، ثوب يشع بخيوط من الذهب والفضة ، ويتضوأ بالأحجار الكريمة الرائعة . ولقد توّج رأس الجمرة كذلك بطوق من اللؤلؤ ، بينما كسيت قدماها بحذائين لم يُرَ قط اكثر منهما بهجة وانافة وجمالاً ولطفاً .

وقالت العجوز :

— تقدرين الآن ان تذهبي الى الحفلة ، ولكن تذكري ان الرجوع واجب عليك قبل ان تضرب الساعة دقاتها الاثنتي عشرة . فاذا توانيت عن هـذا الوقت ، تلاشى كل هذا البهاء واضمحلّ ، وارتدّت ثيابك الى ما كانت عليه من اسمال بالية مرقعة ...

ووعدت سندريلا بأن تكون عند اوامر الجنّية ، ثم استقلت العربة الجميلة التي أغلق الخادم بابها ، في حين ألهب الحوذي بسوطه ظهور الجياد ، فانطلقت خبباً نحو القصر .

وحين وصلته اجتاحت الدهشة سائر الحاضرين . ان احداً لم ير قط وجهاً بمثل هذا الجمال ، أو ثوباً بمثل هذه النفاسة والروعة ، بحيث ساد الاعتقاد بأنها ، من دون ادنى ريب ، أميرة قدمت من بلاد اجنبية .

وتقهقر سائر اهل البلاط والمدعوين ليفسحوا لها الطريق . ولم يكد الأمير يشاهدها حتى وقع في حبها من النظرة الأولى ، وراح يراقصها طوال المساء . ولم يراود الشك احداً من القوم في ان اختياره قد وقع عليها لتكون عروساً له ...

وفي تمام الثانية عشرة إلا ربعاً ، تذكرت سندريللا نصيحة جدّتها الجنيّة ، فودّعت الأمير وقفلت راجعة الى الدار التي بلغتها والساعة تضرب دقاتها الاثنتي عشرة تماماً . وعندئذ ، في مثل لمح البصر ، انقلب السائق والخدم الى جرذ وفئران ، والعربة الى يقطينه .. وحين عادت الأختان بعد قليل ، وجدتا سندريللا مرتدية اسمالها البالية العتيقة ، وجالسة في مكانها المعتاد بين الرماد ...

كانت الأختان القبيحتان تغليان غيظاً ، وتفوران نقمة على تلك الأميرة التي أتت الحفلة على غير انتظار ... ولم تنيا عن الحديث عنها طوال اليوم الثاني ، دون ان يخطر لهما لحظة ان تلك السيدة الجميلة إنْ هي الا أختهما المحتقرة سندريللا ...

وفي العشية ، بعد مغادرتهن الدار الى الحفلة ثانية ، عاودت الجنية الظهور . ومرة ثانية انطلقت سندريللا الى القصر في عربتها التي تجرها ستة من الجياد المطهمة ، وهي ترتدي ثوباً أكثر روعة وجمالاً منه في الليلة السابقة . ومرة ثانية راقصها الأمير طوال السهرة دون انقطاع .

وحدث في ثالث ليلة ان غبطة سندريللا كانت فائقة جداً ، بحيث انستها

تماماً تحذير الجنية لها ، حتى طرقت سمعها فجأة ضربات الساعة معلنة منتصف الليل . وعندئذ تذكرت ان ثيابها الجميلة ستنقلب مجدداً الى أسمال مهترئة منذ اللحظة التي تدق الساعة فيها دقتها الأخيرة ... فقفزت مرتاعة خائفة ، ثم انطلقت تركض ساعية وراء الهرب ، فاندفع الأمير خلفها يحاول اللحاق بها وإمساكها . ولكن سندريللا ، في ذعرها ، كانت تعدو بسرعة فائقة بحيث خلفت وراءها احد خفيها الزجاجيين الذي سقط من قدمها الصغيرة ، فتوقف الأمير يلتقطه ، تاركاً لها بذلك فرصة الهرب . وبينما هي تقطع ساحة القصر ، ضربت الساعة دقتها الأخيرة ، فتلاشى بغتة كل بهاء ثيابها ، وعادت الأسمال تغطي جسدها مرة ثانية ... لقد أفلتت في الوقت المناسب ! ...

وعندما بلغ الأمير سلم القصر لم يجد للأميرة اثراً . وروى له حراس القصر ان احداً لم يمرّ بهم ، إلا فتاة مطبخ صغيرة بائسة ... وعاد الأمير الى الحفلة معدماً إلا من خفّ زجاجي صغير يذكره بالفتاة الجميلة التي كان حبها يطغى عليه حتى درجة الجنون .

وارسل الملك ، في اليوم التالي ، المنادين بمرسوم يعلن ان الأمير سيتزوج من السيدة التي يناسب الخفّ قدمها . وبالرغم من ان جميع نساء تلك البلاد جربن الخف ، إلا انه لم يناسب قدم اي منهن ابداً . كانت أقدامهن جميعاً أكبر منه .

وجاء المنادون أخيراً منزل سندريللا ، فحاولت الأخت الكبرى اولاً احتذاء الخفّ .. لكن ذلك استحال عليها لأن أبهامها كان كبيراً جداً ، وعندئذ أتتها أمها ، التي كانت ترقب المشهد في لهفة وقلق عظيمين ، بسكين كبيرة وقالت لها :

— اسرعي واقطعي أبهامك ، فماذا يهمك اذا اصبحت عرجاء ، ما دمت

ستصيرين عروس الأمير ، فلا تتنقلين الا في عربات فاخرة ؟

وهكذا قطعت الأخت الكبرى أبهامها الكبير، ولكن عبثاً فعلت ، فالخف يأبى ان يحتوي القدم الضخمة . ووجدت نفسها اخيراً مضطرة لافساح المجال لأختها الثانية التي لم يك حظها بأفضل من حظ تلك على الاطلاق . ولقد نجحت حقاً في وضع اصابعها داخل الخف ، ولكن قدمها كانت طويلة بحيث ظل عقبها بارزاً خارج الحذاء ، فدفعتها والدتها الى اجتثاثه وهي تقول :

– ما الضرر من ذلك ما دمت ستصبحين عروس الأمير ، فلا تعودين تسيرين على قدميك مطلقاً ؟

ولكن الخف ظل بالرغم من اقتطاعها جزءاً من عقبها صغيراً لا يتسع لقدمها .. فاضطرت اخيراً للكفّ عن محاولة احتذائه ...

وعندئذ تقدمت سندريللا في خياء من وراء الباب ، حيث كانت تختفي عن الأبصار ، وسألت إنْ كان بامكانها تجريب الخف ، فأغضب سؤالها هذا خالتها واختيها اللواتي هممن بطردها ورحن يصفعنها لو لم يتدخل رسول الأمير قائلاً :

– ان الادارة السامية تنصّ على ان تجرّب الخف كل امرأة في هذه البلاد دون تفريق .

وبعد ان طلب الى سندريللا الجلوس، ركع على ركبتيه ، وحاول إدخال قدمها الصغيرة في الخف الدقيق ، فاذا به يلائمها تماماً . وبينما سائر الحاضرين يشخصون بدهشة وعجب وحيرة ، اخرجت سندريللا من جيبها الخف الآخر واحتذته ... وما كادت تفعل ذلك حتى تبدلت خروقها الممزقة الى ثوب الحفلة الجميل مرة اخرى ، فاذا تلك السيدة الرائعة الحسن ، التي وقع الأمير في غرامها اثناء الحفلة ، تنتصب بجمالها الفاتن وزينتها التي تبهر الأنظار ...

وكان فرح الأمير يفوق التصور للقياها ، فتزوج منهـا بأبهة عظيمة وسرور كبير ...

اما الأختان الحانقتان فقد ملكتهما الحسرة من شدة الحسد والغيرة . وكانتا تزدادان ، على مرّ الايام ، بشاعة وقبحاً ، حتى بلغتا اخيراً درجة مخيفة من الدمامة تمنع المرء عن التطلع اليهما طويلا ؛ بينما سندريللا تزداد ، يوماً بعد يوم ، جمالاً وروعة وبهاء ...

ولقد عاشت ، بعد ذلك ، سعيدة في كنف الأمير ، الى الأبد ...

آلهة في المنفى

هنريخ هايني

وكان فرح الأمير يفوق التصور للقياها ، فتزوج منها بحفلة عظيمة وسرور كبير ...

أما الأختان الحاقدتان فقد تملكتهما الحيرة من شدة الحسد والغيرة ، وكانتا تزدادان ، على مر الأيام ، بشاعة وقبحاً ، حتى بلغتا أخيراً درجة مخيفة من الدمامة تمنع المرء عن التطلع اليهما طويلاً ، بينما سندريللا تزداد ، يوماً بعد يوم ، جمالاً وروعة وبهاء ...

ولقد عاشت ، بعد ذلك ، سعيدة في كنف الأمير ، الى الأبد ...

هنريخ هايني

١٧٩٧ — ١٨٥٦

حمل له « كتاب الأغاني » الشهرة كشاعر كبير وهو في سن الثلاثين بعد ، ولكن ذلك لم يمنعه عن ان يكون كاتباً بديع النثر ايضاً ، إن في الكتب التي وصف فيها رحلاته (١٨٢٦ – ١٧٣٠) ، او في المؤلفات التي اراد ان يكون فيها همزة الوصل بين وطنه الأم المانيا ، ووطنه الفكري فرنسا الذي فر اليه منذ ١٨٣٠ ليشترك في حياته العاصفة. وهايني في الأدب وريث الرومانطيكية ، ولكنه يجردها من كل محتواها الميتافيزيائي ، ويتجه بها نحو الواقعية بخطى حثيثة ؛وهذا التطور باد لديه بكل وضوح حتى في « كتاب الأغاني » . انه بالنسبة للأدب الألماني ، مثل ألفريد دي موسيه بالنسبة الى الأدب الفرنسي ، الابن الرهيب والمرعب ، أو «الرومانطيكي البالي » كما يلقب نفسه ايضاً ؛ اما في السياسة ، فهو ليبرالي متمرد ، وان يك أرستقراطياً في الأصل ، معتنق لمذهب سان سيمون الاشتراكي ، صديق لكارل ماركس وفريدريك أنجلز ، حالم بتحقيق ملكوت السموات على الأرض ، ثائر ، دون ان يدري الطريق إلى الحقيقة ، افضل ما يصفه هو ذلك العنوان الذي اعطاه لاحدى قصائده:« الصبي الضال » . لقد عاش ضالاً ، وهكذا مات ايضاً ...

... وأود ان أتحدث عما ألمّ بآلهة الاغريق والرومان من استحالة الى أبالسة شياطين عندما توصلت المسيحية الى تحقيق السيطرة المطلقة على العالم أجمع . ان الأساطير الشعبية تعزو الى هؤلاء الآلهة وجوداً حقيقياً ، ولكنه وجود أصابته اللعنة ، وحلّت عليه النقمة ، الأمر الذي يتفق كل الاتفاق مع تعاليم الكنيسة في هذا الموضوع . والحقيقة ان هذه الكنيسة لم تكتفِ بالقول إن الآلهة القدامى انهم إلا مجردّ أساطير ، أو خلائق كذب وضلال مبين ليس غير ، كما فعل الفلاسفة والمفكرون ، بل راحت تدّعي انهم أرواح شريرة تدهورت من قمة سلطانها بانتصار السيد المسيح ، وهي ما برحت حتى اليوم تجرّ ذيول وجودها البائس في دكنة الهياكل العارية وديا جير الكهوف المسحورة ، ملتجئة الى سائر فنونها الشيطانية ، الى الشهوة والشبق والفتنة ، وخاصة الى الرقص والغناء ، كي تغري بالجحود والكفر بعض المسيحيين ضعاف الايمان الذين ضلوا طريقهم في مجاهل الغابات الكثيفة ...

ويودي ههنا أن أذكر القارىء بأن الحيرة الفائقة والارتباك العظيم اللذين وقع فيهما هؤلاء الآلهة الاشقياء أيام انتصار المملكة المسيحية النهائي – أي في القرن الثالث – ليماثلان بصورة عجيبة حقاً تلك الحوادث المؤسفة التي سبق أن وقعت لهم إبّان ألوهيتهم . لقد وجدوا أنفسهم غارقين في ذات الضائقة المحزنة التي ألمّت بهم فيما سبق ، في تلك الأزمان البعيدة الغابرة ، ذلك العصر الثوري الذي انطلق فيه التيتان العمالقة ، أبناء السماء والارض ، من حبسهم

الذي نفوا إليه في أوركوس ، وتسلقوا الأولمب الرفيع وهم يكدسون جبل بيليون فوق جبل أوسّا . وفي ذلك الحين ، اضطر الآلهة المساكين الى الهرب بصورة معيبة شائنة ، ليختفوا في أرجاء الارض على صورِ شتى . ولقد لجأ أكثرهم الى مصر حيث اتخذوا ، كما هو معلوم ، أشكال الحيوانات سعياً وراء الأمن والسلامة . وكذلك كانت الحال بالنسبة اليهم عندما غرس سيد الكون الحقيقي راية الصليب في الأعالي السماوية ، وراح أولئك الغيورون القساة ، الذين لا يعرفون للرحمة أو الرأفة معنىً — أعني بهم عصابة الرهبان السود — يصطادون الآلهة بالنار واللعنة ، ويمحقون معابدهم ويطمسون آثارها ، عندئذ اضطر هؤلاء الآلهة الوثنيون البائسون أن يولوا الادبار من جديد ، باحثين عن السلامة بأسماء مستعارة ، وأن يختبئوا في أكثر الاماكن نأياً وأمناً . ولقد اضطر كثيرون من هؤلاء اللاجئين البؤساء ، المحرومين من المأوى الدافيء والطعام الشهي ، أن يعملوا في شتى الحرف العامية السافلة حتى يؤمنوا معاشهم ، فأضحى عدد غفير منهم في مثل هذه الظروف ، بعد أن صودرت ذخائرهم ، حطابين أو حارثين للأرض في جرمانيا ، مكرهين على احتساء الجعة بدلاً من السلسبيل والرحيق . ولقد تبيّن أن أبولون قد صار الى مثل هذه الحالة المريعة ، وتدهور الى الدركات السفلى حتى إنه قبِلَ العمل مع رعاة الابقار والقطعان ؛ ومثلما عني فيما مضى بقطعان الملك أدميتوس ومواشيه ، راح اليوم أيضاً يعيش راعياً بسيطاً في النمسا الدنيا ، حيث أثار الارتياب والشك ، على أية حال ، بعذوبة غنائه ورقته وحلاوته ، حتى اذا عرف فيه أحد الرهبان المثقفين واحداً من أولئك الآلهة الوثنيين السحرة القدامى ، أسرع فأسلمه الى السلطات الاكليريكية التي اعترف لها ، تحت وطأة العذاب الأليم ، انه الاله أبولون . ولقد

توسّل الى جلاّديه ، قبل أن ينفذوا فيه حكم الاعدام ، أن يسمحوا له — للمرة الاخيرة — بالضرب على القيثارة ، والغناء على أنغامها . غير أنه عزف بصورة فائقة الروعة والتأثير ، وأنشد بصورة عظيمة السحر والعذوبة ، وكان جميلاً جداً ، رائع الفتنة وجهاً وشكلاً ، حتى إن العبرات انهمرت غزيرة من عيون النسوة الحاضرات ، بل ان الكثيرات منهن سقطن مريضات فيما بعد ، مما دفع الناس إلى اعتبار ذلك الالـه وحشاً مستنزفاً للدماء ماصاً لها ، وتقرير نقل جثمانه من القبر ، ولما يمض على دفنه بعد إلا فترة وجيزة فقط ، وذلك كي ينصبوه على خازوق حادّ على اعتبار ذلك دواء شعبياً مجرّباً سيشفي النسوة المريضات بكل تأكيد . ولكن القبر كان فارغاً من كل أثر ، عندما فتحوه ...

وليس لدي إلا القليل من المعلومات عن مصير مارس ، إلـه الحرب القديم . ولست بعيداً عن الاعتقاد بأنه قد استفاد ، أثناء العصور الاقطاعية ، من العقيدة السائدة آنذاك كي ينال التبرير والغفران . وقد التقى لانك شيملبينيغ ، ابن أخي جلاد مدينة مونستر ، بمارس مرة في بولونيا ، وتحدث إليه طويلاً ، وعرف منه انه قد خدم قبل ذلك بزمن قصير فلاحاً في أراضي فرودسبرج ، وحضر اقتحام روما أيضاً . ولا ريب أن أفكاراً مريرة للغاية قد ملأت صدره لدى رؤيته مدينته القديمة المفضلة ، والهياكل التي طالما كان فيها مع اخوته الآلهة موضع الاكرام والاجلال ، وقد طمست معالمها الآن بصورة مزرية تبعث على الاشفاق والألم ...

ولكن نصيب الالـه باخوس ، في هذه الهزيمة العظمى ، كان أفضل من نصيب زميليه مارس وأبولون ، فالأساطير تروي عن مصيره القصة التالية : إن بحيرات كبيرة مترامية الأطراف تنتشر في طول مقاطعة التيرول وعرضها ،

تحفُّ بها اشجار فائقة الروعة والبهاء تنعكس خيالاتها في المياه الزرقاوية اللون بصورة لا حدّ لفتنتها . وان الأشجار والمياه معاً لترسل همساً رقيقاً مستمراً لا انقطاع فيه ، بحيث تجتاح قلب المرء مشاعر غريبة من الخشية والهيبة اذا ماتجوّل وحيداً في تلك الأصقاع الخالية . وكان كوخ صياد فتى يقوم على ضفاف احدى هذه البحيرات ، يتعيّش صاحبه مما تلتقطه شباكه من صيد كثير أو قليل ، ويرتزق مما يمنّ عليه من أجر المسافرون الراغبون في عبور البحيرة الى الجانب الآخر . وكان هذا الصياد يملك زورقاً كبيراً يربطه الى جذع شجرة عجوز غير بعيد عن مسكنه ؛ ويعيش هناك ، في هذه البقعة النائية من الارض ، معتزلا البشر والعالم ، وليس من يؤنس وحدته أبداً . ولكنه سمع ذات مرة ، حوالي زمن اعتدال الخريف ، وقد قارب الليل أن ينتصف ، طرقاً على نافذته ، حتى اذا فتح الباب شاهد ثلاثة رهبان قد حجبوا وجوههم بقلنسواتهم ، وبدت عليهم دلائل العجلة والاندفاع ، أسرع أحدهم يسأله بكلمات متلاحقة ان يتفضّل باعارتهم زورقه ، قاطعاً على نفسه عهداً أن يرده اليه خلال ساعات قليلة فقط . لقد كان الرهبان ثلاثة ، فليس في استطاعة الصياد اذن ان يتردد في إجابتهم الى طلبهم ، ولذا أسرع يحلّ رباط الزورق ، حتى اذا ركبوه وانطلقوا فوق صفحة الماء ، عاد الى كوخه واضطجع في فراشه راغباً في النوم .... ولقد كان شاباً في إبان فتوته ، فما أسرع ماستغرق في نومه الذي لم يوقظه منه الا عودة الرهبان بعد بضع ساعات من مغادرتهم له . وعندما خرج لملاقاتهم ، دفع أحدهم في راحة يده بدينار من الفضة ، ثم حثّ ثلاثتهم الخطى مبتعدين . وانطلق الصياد ساعياً الى زورقه ، فألفاه مربوطاً الى جذع الشجرة العجوز . ولدى ذلك فقط ارتعش جسده برمّته ، لكن هذا الارتعاش لم يكن مسبباً عن الريح

الليلية الباردة أبداً : ان قشعريرة من نوع خاص قد اخترقت أعضاءه بأسرها، وخيل اليه ان قلبه قد تجمد تماماً بين ضلوعه عندما لمس الراهب يده وهو ينقده القطعة الفضية : لقد كانت أصابعه باردة كالجليد ... وظل الصياد أياماً عديدة عاجزاً عن نسيان هذه الحادثة ، ولكن الشباب النابض في عروقه سرعان مانفض عنه المؤثرات الغريبة ، وأغرب عن فكره ذلك الحدث حتى كان العام التالي ، اذ طرقت نافذة الكوخ مرة أخرى ، تماماً زمن اعتدال الخريف، والليل قد انتصف او كاد، ومرة أخرى تراءى الرهبان الثلاثة ، ومرة أخرى سألوا استعارة الزورق . ولقد سلمهم الصياد زورقه وهو أقل قلقاً من أجله منه في المرة الاولى ؛ ولكنهم عندما عادوا بعد ساعات قليلة ، واسرع أحدهم يدفع في يده بقطعة فضية ، ارتجف مرة اخرى لدى ملامسة تلك الاصابع الجليدية الباردة ، واجتاحت القشعريرة بدنه بكامله. ولقد ظل هذا الحدث يتكرر كل عام، في الوقت ذاته وعلى الغرار نفسه؛ حتى تملك الصياد أخيراً، عند اقتراب زيارة الرهبان السابعة ، رغبة عظمى في أن يعرف ، بأي ثمن كان ، السر المختفي وراء تلك القلنسوات الثلاث . . . وهكذا ، فقد كدّس كومة من الشباك في جانب الزورق ، بحيث يستطيع ان يختبىء وراءها دون ان يحس به أحد ، بعد أن يبلغها خفية بينا الرهبان منهمكون في عملية الابحار . ولقد قدم المسافرون المنتظرون في الوقت المعتاد ، وسياء كآبتهم المعهودة تقنع وجوههم . ونجح الصياد في الاختباء تحت الشباك دون أن يحس به أحد منهم . ولكم كانت دهشته عظيمة إذ لم تستغرق السفرة الا زمناً قصيراً جداً ، بينا هو يقضي عادة ماينيف عن ساعة كاملة حتى يبلغ الضفة الثانية من البحيرة . ولكن ذهوله وعجبه مالبثا ان تضاعفا عندما بصر ، في هذه البقعة المألوفة لديه ، ممراً عريضاً يخترق الغابة لم تقع عينه عليه من قبل قط ، تفرشه ورود يانعة غريبة

عنه كل الغرابة ... وكان عدد لا يحصى من المصابيح يتدلى من الاشجار ، وأوانٍ ملأى بشعلات متأججة ترتاح على قواعد مرتفعة من الرخام . لا بل ان القمر أيضاً كان يسطع فائق اللمعان حتى ليستطيع الصياد أن يرى ، بيُسْرٍ مطلق ، الى كل ما يجري حواليه ، فكأنما هو في رابعة النهار . وكان هناك بضع مئات من الفتيان والفتيات ، جميعهم يتحلون بجمال عظيم كذلك الذي يتضوأ من الصور ، وان كانت وجوههم جميعاً بيضاً بلون الرخام مما يضفي عليهم - بالاضافة إلى كسوتهم المؤلفة من قمصان بيض ، بيضٍ جداً ، تزينها حِفاف من القرمز ، ويمنطقها زنار من ذات اللون أيضاً - مظهر تماثيل قادرة على الحركة . وكانت النسوة يتوجن رؤوسهن بأكاليل من ورق الكرمة الطبيعية والمصنوعة من الذهب والفضة ، اما شعورهن فكانت بعض ضفائرها مجورة فوق جباههن مثل تيجان تكللهنّ ، والضفائر الأخرى متدلية غدائر عريضة فوق أعناقهن البضة ، وكذلك كان الفتيان يحملون أكاليل من أوراق الكرمة ، ويهزون في أيديهم - مثلهم في ذلك مثل النساء - قضباناً مكسوّة بورق العنب ، وهم يسرعون في مرح وحبور ليرحبوا بالقادمين الجدد . وسرعان ما ألقى أحد هؤلاء الثلاثة بقلنسوته جانباً ، كاشفاً بذلك عن رجل في متوسط العمر ، سفيه الملامح ، شهواني السيماء ، يبعث وجهه على النفور ، وتشبه أذناه أذني ماعز مدببتين ، ويطفح من عينيه شبق فاضح يفوق الوصف والتخيل . وكذلك رمى الراهب الثاني بغطاء رأسه جانباً ، فبان للعيان فتى ضخم البطن ، يكاد أن يكون عرياناً ، ما أسرع ما توجت النسوة الشريرات رأسه الأصلع بأكاليل من الزهور . وكان وجه الراهبين ، مثلهما في ذلك مثل سائر المحتشدين ، أبيض كالثلج ، وناصعاً كالثلج أيضاً كان وجه الراهب الثالث الذي رفع القلنسوة عن رأسه ضاحكاً ، وحلّ حزام ثوبه ، وخلع عنه الدثار الديني القذر ورماه جانباً باشارة تدل على الاشمئزاز والقرف ، وكذلك قذف بعيداً

الصليب عن صدره ، ووضع اكليل الورد على رأسه . . وعندئذ - يا لله ! - بانت لعيون الحاضرين فتوة مدهشة الجمال ، متدثرة في قميص براق كالماس الثمين ، متناسقة الاعضاء والشكل ، اللهم إلا بعض الأنوثة البادية في الوركين المستديرين والخصر النحيل ، والتي تضاعف منها نوعاً ما تينك الشفتان المقوستان بعذوبة ، وتلك الملامح الرقيقة المتحركة في لين وحنان ، الأمر الذي لم يمنع وجهه عن ان يطفح في الوقت ذاته ببطولة جريئة لاتعرف للهيبة معنى . . . وراحت النسوة يلاطفنه ويمسحن على جسده بحماس وحشي ، وقد توجن رأسه باكليل من اللبلاب ، وألقين على كتفيه رداء مصنوعاً من جلد ثعبان فائق البهاء . وفي تلك اللحظة ، اقتربت عربة مذهبة ذات دولابين تطوي بساط الارض بسرعة ظافرة ، يجرها أسدان هائلان ، فاعتلاها الفتى بجلال ومهابة ، وعيناه تبعثان في الوقت ذاته بنظرة مرحلة تصافح الجموع المحيطة به ، وراح يسوق طهمين الضار بين بعنان قرمزي . وانطلق احد صاحبيه يحث الخطى عن يمين العربة ، وحركاته الشهوانية وشكله المعيب الشائن يرسل البهجة في قلوب المتفرجين - بينما اندفع زميله ، الأصلع الرأس العظيم الكرش ، عن اليسار منها ، راكباً حماراً رفعنه عليه النسوة المرحات انفسهن ، وهو يحمل في يده كأساً مذهبة يعاد املاؤها بالخمرة دون انقطاع . . وسارت العربة قدماً ، ومن ورائها تدوّم حشود الرجال والنساء اللاهين ، الراقصين ، المكللين بالكرمة . . وفي مقدمة الموكب الظافر كانت الجوقة تسير : الفتوة المرحة ، المضرّجة الوجنات ، تعزف على المزمار ؛ ومن ثم عرائس الماء ، بقمصانهن العالية الحزام ، وهن يضربن الرقّ الرنان ببنانهن الرقيقة ؛ ومن بعدهن الضاربات على الطبول ، وهن جميعاً متكافئات في الجمال ، يتبعهن ؛ فخو الأبواق المنتعلون احذية من جلد الماعز ، بطلعتهم الجميلة لكن المفعمة

دعارة ورذيلة ، وهم ينفخون في آلاتهم معتلين صدقات بحرية عجيبة وقرون ذات اشكال خيالية مدهشة . وفي المؤخرة كان يأتي لاعبو الناي ...

ولكن ، ياقارئي العزيز ، لقد نسيت انك مثقف واسع الاطلاع ، ادركت دون ريب منذ فترة طويلة اني اصف عيداً من اعياد باخوس ، ووليمة من ولائم ديونيزوس . ولعلك كثيراً ما رأيت في النحوت القديمة ، او في رسوم بعض المؤلفات الأثرية ، صوراً عن المواكب الظافرة التي يُحتفل بها على شرف الالـه باخوس . ومما لاريب فيه ان شعور الرهبة والذعر لن يراودك ابداً ، وانت الذي تتحلى بالمعرفة الواسعة ، ومحبة الاشياء العتيقة الكلاسيكية ، حتى وان انبثقت امام عينيك في وحشة الليل وظلمته الكئيبة البهيمة ، وانت تعبر غابة مهجورة غير مطروقة ، اشباح مثل هـــذا الاحتفال الباخوسي بحاشيته النشوانة المعهودة . ولعلك اذن ستحسّ ، على الاكثر ، ارتعاشاً لذيذاً لطيفاً ينفذ في اعضائك ، إنّ هو في واقع الأمر إلا المهابة التي تملك المرء تجاه عظمة الجمال المتجلي لدى رؤية هذه الجماعة الشاحبة من الأشباح الفاتنة التي نهضت من نعوشها الأثرية او من مخابئها بين انقاض الهياكل القديمة ، كي تتمم مرة اخرى قداسها الالهي الفرح القديم ، وتحتفل مرة اخرى ، في الغبطة واللهو ، بالموكب الظافر للمحرر الالهي ومخلص الحواس ، وترقص مرة اخرى رقصة الوثنية المرحـــة ، رقصة العالم القديم ، ترقصها دون تصنّع منافق أو رياء ، ودون خوف من تدخل شرطة المناقب والأخلاق الروحانية ، بل باستسلام الأيام الخوالي الوحشي ، في الصياح ، والتهليل ، والضرب . . . ألا فليحيا باخوس ! ...

ولكن واأسفاه ، ياقارئي العزيز ، فذلك الصياد المسكين لم يكن ذا اطلاع في امور الميثولوجيا - كما انه لم يقم يوماً بدراسات أثرية على الاطلاق ، بحيث

ان الرعب والخوف استوليا عليه لدى مشاهدته ذلك الظافر وهو ينبثق مع شريكيه العجيبين من تحت ارديتهم الرهبانية ، فراح يرتجف فرقاً امام حركات الباخوسيات وقفزاتهن العاهرة ، ويرتعش امام منظر آلهة الحقول ، أمام تلك الكائنات التي لا هي بشر ولا هي ماعز ، بل نصفها الأعلى بشر ونصفها الأسفل ماعز ، والتي بدت له بقرونها وحوافرها شيطانية بكل معنى الكلمة. وهكذا طفق ينظر الى الجماعة بأسرها على انها مؤتمر من الأشباح والأبالسة الساعية بطقوسها العجيبة الى جلب الدمار على سائر المسيحيين . ولقد قفّ شعر رأسه لدى رؤية اوضاع هاتيك النساء المجنونات اللواتي انتشرت شعورهن ، وانعطفت رؤوسهن الى الخلف ، ورحن يتأرجحن في الهواء بصورة عجيبة. وخيل اليه ان دماغه نفسه يدور في قحفه ويدوّم لدى مشاهدة اولئك المخبولين الذين يجرحون اجسادهم ، في حماسة مجنونة ، بنصال قصيرة حادة وهم يبحثون عن اللذة في الألم والعذاب بالذات . وبدا له ان انغام الموسيقى العذبة ، لكن الفائقة الهول في الوقت ذاته ، تخترق روحه اختراقاً مثل لهيب محرق ، مهلك ومعذب وقاتل معاً . ولكنه عندما رأى الى ذلك الرمز المصري المشين ذي الحجم المبالغ فيه ، المتوّج بالورود ، والذي ترفعه امرأة عاهرة فوق صارية طويلة جداً ، عندئذ نبذه بصره وسمعه معاً ، فنكص سريعاً على اعقابه في اتجاه زورقه ، وزجف تحت الشباك ، واسنانه تصطك واعضاؤه ترتعش ، فكأن إبليساً نفسه قد اطبق على قدميه بقوة وعنف . وما اسرع ما عاد الرهبان الثلاثة بدورهم ، وانطلقوا بالزورق فوق صفحة المياه الهادئة ، حتى اذا بلغوا الشاطىء الآخر ، تدبّر الصياد أمره كي يهرب من مخبئه دون ان يحسّوا به ، بحيث حسبوا انه إنما كان يقف خلف اشجار الصفصاف ينتظر إياهم فقط ، فضغط احدهم - كالعادة - الاجرة في راحته بأصابعه الباردة الجليدية ، ثم طفقوا يحثون الخطى مبتعدين في الاتجاه الذي قدموا منه .

ولقد رأى الصياد من واجبه ، كي يخلص روحه التي لم يشك لحظة في تعرّضها لخطر الهلاك الأبدي ، ولكي يحمي المسيحيين الصالحين الآخرين من المصير المفجع ، ان ينقل خبر ذلك الحديث العجيب غير منقوص الى سلطات الكنيسة . ولما كان رئيس احد الأديرة الفرنسيسكانية المجاورة مشهوراً بقدرته العظيمة على طرد الأرواح الشريرة ، فقد حزم الصياد امره على الذهاب اليه دون تأخير . وهكذا وجدته الشمس المشرقة في طريقه الى الدير حيث سرعان ما امتثل ، في تواضع جمّ ، امام صاحب السعادة الرئيس الذي استقبله جالساً في مقعد مريح في مكتبة الدير ، وقلنسوته تغطي القسم الاكبر من وجهه ، والذي راح يصغي اليه متأملاً وهو يقصّ عليه حكايته الرهيبة . وعندما انتهت الرواية ، رفع الرئيس رأسه ، فسقطت القلنسوة عن وجهه ، فاذا الصياد يرى - وقد شلّ الرعب كل اعضائه - ان سعادته ليس الا احد الرهبان الثلاثة الذين يبحرون فوق البحيرة كل عام ، وعلى التعيين ذلك الراهب الذي شاهده في الليلة السابقة شيطاناً وثنياً ممتطياً العربة الذهبية التي يجرها الأسدان الهائلان . كان الوجه الأبيض الرخامي ذاته ماثلاً امامه بملامحه المنسجمة الجميلة عينها ، وبفمه نفسه ذي الشفتين المقوستين الرقيقتين . وكانت هاتان الشفتان تنفرجان الآن عن ابتسامة لطيفة لتسقط من ذلك الفم هذه الكلمات الغنائية العذبة :

- « ايها الابن الحبيب في المسيح ، اننا لنصدق تماماً انك قضيت الليل في صحبة الالـه باخوس ، وان قصتك الخيالية هذه عن الأشباح لتقدم برهاناً اكيداً على ذلك . ليس اننا نريد ان نقول شيئاً سيئاً في حقّ هذا الالـه ، فهو يطرد الاحزان والهموم في بعض الأحايين من دون ادنى ريب ، ويفرح قلب الانسان . ولكنه عظيم الخطر على اولئك الذين يعجزون عن احتمال

الكثير من شرابه ، وأنت فيما يبدو من عـدادهم . واننا لننصحك ألا تتناول في المستقبل عصارة الكرمة الذهبية إلا بتقتير عظيم ، فلا تزعج مرة اخرى السلطات الروحية بأوهـام دماغ ثمل. اما فيما يخص هذه الرؤية الأخيرة التي شاهدتها ، فمن الأفضل ان تحفظ لسانك في جوفك وترده عن الحديث عنها ، وإلا فان الذراع القوية لسلطتنا الكنسية ستعدّ لك خمساً وعشرين جلدة غير منقوصة . والآن ، ايهـا الابن الحبيب في المسيح ، اذهب إلى المطبخ حيث سيقدم لك الأخ الساقي والأخ الطباخ شراباً لطيفاً وغذاء خفيفاً » .

وعندئذ ، اعطى الرئيس الجليل البركة للصياد الذي تحامل على نفسه ، مذهولاً مرتبكاً ، حتى المطبخ حيث كاد يسقط ارضاً من الفَرَق الذي ألمّ به عندما قابل الأخ الساقي والأخ الطباخ وجهـاً لوجه . لقد كانا بالضبط ذينك الراهبين اللذين رافقا الرئيس في نزهـاته الليلية عبر البحيرة ، عرف احدهما من كرشه الضخم ورأسه الأصلع ، وعرف الآخر من سيمائه الشهوانية وأذنيه الشبيهتين بآذان الماعز . ولكنه امسك لسانه بالرغم من كل شيء ولم يروِ هذه القصة الغريبة إلا بعد انقضاء سنوات عديدة على حدوثها ...

وهناك تواريخ اخرى عديدة تتضمن اساطير مماثلة ، ولكنها تعين مكان هذا الحادث في مدينة سبيير ، على نهر الرين .

ثم إننا نجد تقليداً مشابهاً على طول شاطىء فريسلاند الشرقي ، نستطيع ان نستبين فيه بوضوح اعظم الفكرة المنتشرة في الأزمان الغابرة عن انتقال الموتى الى مملكة الجحيم ، هذه الفكرة التي تختفي وراء سائر تلك الأساطير على حد سواء ، وإن لم تأتِ اي منها قط على ذكر شارون ، ملاح المركب ، فكأن هذا الرجل العجوز قد اختفى تماماً من الأقاصيص الشعبية ، فأصبح العثور عليه مستحيلاً إلا في القراطيس وحدها .

ولكن هناك شخصية خرافية اخرى ، اكثر اعتباراً من شارون الى حد بعيد ، يمكن التعرف عليها في ذلك العميل الذي سبق ان اطلق عليه الاسم المذكور ، وهو المصدّر الذي يقوم بالترتيبات الضرورية لنقل الموتى ، ويدفع للمُراكب بصورة مباشرة المال اللازم تعويضاً عن اجرة النقل في قاربه. اما هذا المُراكب فهو يقوم ، بصورة عامة ، بأعباء وظيفة شارون. وفي الحقيقة ان المرء يستطيع بسهولة تامة ان يخمن اسم هذا المصدّر ، بالرغم من تنكره الظريف ، بحيث يكفيني ان اروي هنا الاسطورة حسبما بلغتني بكل الأمانة الممكنة وبدون اي تعليق على الاطلاق .

ان شواطىء فريسلاند التي تتاخم البحر الشمالي تغص بالخلجان الصغيرة التي يستفاد منها كموانىء بحرية ، يقوم في اقصى كل منها ، على الرأس الممتد عميقاً في البحر ، كوخ منعزل يقطنه صياد يعيش في طمأنينة واغتباط مع عائلته . ان الطبيعة ترتدي ههنا مظهراً حزيناً مكتئباً ، فأنت لاتسمع هناك صداحاً لعصفور البتة ، بل بالأحرى صراخاً جارحاً يرسله نورس بحري من حين لآخر ، وهو ينطلق من عشه بين أكمات الرمال ، معلناً بذلك عن اقتراب الشتاء العتيد ودنوّه ، بينما هدير البحر الرتيب يتناسق حتى درجة بعيدة مع الظلال القاتمة المتنقلة التي تلقيها السحب العابرة. لا بل ان المساكن البشرية نفسها لاتغني ههنا ، فلا يطرق اذنك قط ، على هذه الشطئان الكئيبة ، حتى ولا لحن ضال من تلك الأغنيات الشعبية التي يحب الصيادون ان يرددوها عادة اثناء عملهم . إن القوم الذين يعيشون ههنا هم بشر مجتهدون ، دؤوبون على العمل ، شريفو الاخلاق ، فخورون بفكرهم الجري ، وحرياتهم التي ورثوها عن اجدادهم . وطبيعي ان يكون مثل هؤلاء الناس بعيدون عن كل خيال ، غير ميالين الى التأملات الميتافيزيائية ، يعتمدون على الصيد في الدرجة الاولى ، وبالاضافة على

القليل من المال الذي يمنح لهم كأجرة لنقل المسافرين الذين يريدون العبور الى احدى الجزر المجاورة .

ويقال ان مسافراً يقدم إلى احدى تلك البقع النائية في ذات التاريخ من كل عام ، عند الظهيرة تماماً ، بينا الصياد وعائلته يجلسون إلى المائدة يتناولون طعام الغداء ، فيدخل الكوخ ويسأل سيد الدار ان يمنحه جلسة صغيرة لاتستغرق أكثر من بضع دقائق كي يتحدث إليه في شؤون تتعلق بعمله . ويلبي الصياد طلب الغريب ، بعد ان يدعوه عبثاً إلى مشاركتهم الغداء ، فيخطو كلاهما جانباً ويجلسان الى مائدة صغيرة يتشاوران . ولن اصف هنا مظهر الغريب الخارجي في تفاصيله ، على غرار طريقة كتاب القصص العويصة ، بل سأكتفي بتعداد قصير لبعض الامور البارزة فيه: انه رجل قصير القامة ، متقدم في السن ، لكن يتمتع بصحة جيدة بالرغم من ذلك ، حتى لتقول عنه إنه شاب أشيب اللحية إن صح التعبير ، ممتلىء الجسم لكنه ليس بديناً ، احمر الوجنتين فكأنها تفاحتان ، صغير العينين اللتين تطرفان باستمرار في مرح وحبور كثيرين ، يغطي رأسه المطلي بالمساحيق بقبعة صغيرة مثلثة القرون ، ويرتدي تحت معطفه الأصفر الوهاج ، بياقاته المتعددة ، لباساً قـــديم الزي لتاجر ألماني ميسور الحال ، كما نراه مرسوماً في الصور القديمة ، يعني رداء قصيراً من الحرير مخضر اللون ، وقميصا مطرزاً بالورود ، وصدرية قصيرة سوداء ، وجوربين طويلين متعددي الالوان ، وحذائين مزينين بالابزيم . وكان هذان الحذاءان مصقولين بصورة لامعة جداً ، حتى ليصعب على المرء ان يفهم كيف يستطيع حاملها ان يدب خطوة واحدة خلال الطين اللزج الذي يغمر الشاطىء ، ويحتفظ بهما نظيفين بالرغم من ذلك . واما صوته فسُبرانو رفيع ، رَبُويّ اللحن ، يميل أحياناً نحو ان يكون بكاء .

ولكن حديث الرجل الصغير وسلوكه كانا رزينين وموزونين كما يليق بتاجر ألماني، وان تكن تلك الرزانة تبدو مصطنعة اكثر منها طبيعية، تتناقض بصورة بينة مع نظرات العين المنقبة، الباحثة، التائهة، السريعة اللحظات، ومع تململ الساقين والذراعين المكبوح بصورة سيئة فاشلة. ولم يكن مظهر الغريب وحده يثبت كونه تاجراً المانياً، بل كذلك دقته وحذره التجاريان اللذان أبداهما وهو يبذل جهده كي تكون الصفقة التي سيعقدها ملائمة لعملائه ما امكن. ولقد قال انه عميل مصدّر، عهد اليه بعض اصدقائه التجار مهمة نقل عدد من النفوس بمقدار مايتسع لها قارب عادي، من شاطىء فريسلاند الشرقي حتى الجزيرة البيضاء، وانه يريد ان يعرف، كي ينفذ مهمته على خير وجه ممكن، اذا كان الصياد مستعداً ان يشحن البضاعة المذكورة في قاربه هذه الليلة بالذات إلى الجزيرة المذكورة آنفاً، وانه قد فوّض في مثل هذه الحال ان يدفع اجرة الشحن سلفاً، آملاً في سره ان الصياد سيجعل تلك الأجرة، في إنصاف مسيحي، معتدلة قدر الامكان. وقد قدم التاجر الألماني (والحقيقة ان هذه الصفة حشو فارغ، مادام كل ألماني هو تاجر في آخر تحليل) ذلك الاقتراح في عدم مبالاة مطلقة، وكأن الصفقة تتعلق بشحنة من الجبن ليس غير، وليس بنفوس الموتى من الناس. ولقد انتفض الصياد لدى كلمة «النفوس»، وزحفت قشعريرة سوداء على طول ظهره، لانه ادرك مباشرة ان المعني ههنا هي نفوس الاموات، وان الغريب ليس سوى ذلك الألماني الشبح الذي سبق ان عهد الى العديد من زملائه الصيادين بأمر نقل نفوس الموتى، ودفع لهم أجراً طيباً أيضاً في سبيل ذلك.

ان هؤلاء الفريسلانديين الشرقيين، كما سبق فأشرت آنفاً، قوم شجعان ممتلئو الصحة، وعمليون بالاضافة، يعوزهم ذلك الخيال المرضي الذي يجعلنا

شديدي التأثر من أمور الأشباح وكل ماهوفوق طبيعي بصورة عامة، وهكذا فان ذعر صيادنا المستهجن لم يطل اكثر من برهة وجيزة ، فما اسرع ماتمالك نفسه من جديد ، متغلباً على ذلك الاحساس المغلوط الذي راح يستولي عليه خلسة ، واتخذ مظهر اللامبالاة المطلقة ، وفي نيته ان يؤمن اكبر مبلغ ممكن من المال أجراً له . وسرعان ماتوصل الطرفان، بعد مساومة قصيرة، الى التفاهم أخيراً ، وتصافحا كي يمهرا الصفقة المعقودة فيما بينهما ، ومن ثم تناول الالماني محفظة جلدية وسخة من جيبه ، مليئة بدراهم فضية صغيرة مصكوكة في هولندا ، وعدّ منها قيمة الصفقة كاملة ، ومن ثم استأذن من العائلة بأسرها للانصراف بعد ان اعطى الصياد كامل التعليمات عن وجوب استعداده بقاربه في المكان المعين حوالي منتصف الليل ، عندما يصبح القمر مرئياً ، ورفض دعواتهم المتكررة الى مشاركتهم الطعام ، وابتعد أخيراً رزين المحيا شامخ الأنف أكثر منه في اي وقت آخر .

وفي الموعد المتفق عليه ظهر الصياد في المكان المعين . وكان القارب في البدء يتأرجح الى الأمام والخلف بفعل الأمواج ، ولكن عندما ارتفع البدر تماماً فوق الأفق لاحظ الصياد ان قاربه اصبح يتأرجح بصعوبة اكبر من ذي قبل ، وانه قد أخذ يغطس اعمق فأعمق في التيار حتى ارتفعت المياه أخيراً إلى بعد قليل من حافته ، لايتجاوز عرض راحة اليد . ولقد أعلن له ذلك أن المسافرين معه ، النفوس، قد ركبوا قاربه جميعاً ، فأبحر مبتعداً عن الشاطىء إلى عرض البحر بشحنته هذه .

وبالرغم من انه اجهد عينيه حتى الدرجة القصوى ، فانه لم يستطع ان يميز إلا بعض الخيوط البخارية التي كانت تتأرجح هنا وهناك امام ناظريه ، وتختلط ببعضها البعض دون ان تتخذ قط شكلاً معيناً ، كما أرهف اذنيه

جهده ، ولكنه لم يسمع شيئاً : اللهم إلا بعض الحفيف الضعيف جداً الذي تكاد الأذن ألا تميزه ابداً . وكان احد طيور النورس يحلق فوق رأسه ، من حين لآخر ، وهو يرسل صراخاً حاداً في اذنيه؛ أو سمكة تقفز قريباً منه خارج التيار ، وتروح تصرو اليه برهة وجيزة بنظرة فارغة . وكانت رياح الليل تتنهد ، وأنسام البحر تزداد برودة ، وفي اي مكان فيما حوله لا يوجد إلا الماء ، ونور القمر ، والسكون ! ولقد كان الصياد ، هو الآخر ، ساكناً مثل كل ما يحيط به ، حتى بلغ الجزيرة البيضاء أخيراً ورسا بقاربه على شاطئها . لم يجد أحداً على الساحل ، ولكنه سمع صوتاً مرتجفاً ، رَبَوياً اخنّ وبكّاء ، عرف فيه صوت الرجل الألماني . كان يبدو ان هذا الأخير يقرأ قائمة من اسماء العَلَمَ بلحن خاص ، رتيب بشكل غريب ، وكأنه يتلو امثولة قد سبق وحفظها عن ظهر قلب . وكانت بعض الأسماء معروفة من الصياد ، لأن اصحابها اناس قد توفوا في بحر ذلك العام نفسه . وكان حمل القارب يخف ، بصورة تدريجية طبعاً ، خلال قراءة الأسماء ، حتى اذا تردد النداء بالاسم الأخير ، ارتفع القارب على حين غرة ، وسبح حراً طليقاً ، بالرغم من انه كان غارقاً عميقاً في الرمال قبل لحظة واحدة فقط . وكان ذلك اشارة تعلم الصياد ان شحنته قد افرغت على خير وجه ، فجذّف عائداً في هدوء وطمأنينة الى زوجته وابنه ، الى بيته المحبوب في المرفأ ...

... ولقد خمنت هوية تلك الشخصية الأسطورية الهامة التي وردت في هذا التقليد ، بالرغم من تنكرها الخصيف . انها ليست سوى الالـه عطارد ، هرمز بسيكوبومبوس ، المرشد السابق للموتى إلى الجحيم .. وفي الحقيقة انه اكثر آلهة الوثنية فتوة وكمالاً ، ابن مائيا المكتار المحتال ، يختفي تحت ذلك المعطف الأصفر القذر ، ووراء وجه هذا التاجر العافه . ولم يكن يُرى على

قبعته المثلثة القرون أي أثر للأرياش يمكن ان يذكرنا بحامل القبعة المجنحة ، كما ان الحذائين المزينين بالابزيم المعدني كانا اعجز عن ان يوحيا بأقل شبه بالصندلين المجنحين ايضاً . ان هذا الرصاص الألماني الثقيل الخطير المظهر ليختلف كل الاختلاف عن ذلك الزئبق الفرّار المتحرك الذي اشتق الاله اسمه منه . ولكن التناقض كان بارزاً بصورة شديدة للغاية بحيث فضح غاية هذا الاله التي تقوم في إخفاء هويته . ولعل الاختيار لم يقع على هذا القناع بفعل الهوى وحده ، لأن عطارد كان ، كما تعلمون ، الاله الحامي للصوص والتجار ، ومما لا ريب فيه انه أخذ بعين الاعتبار ، عندما اراد ان يختار لثاماً يخفيه ، ومهنة يربح منها خبزه ، مواهبه وسوابقه جميعاً ...

... وهكذا حدث ان أذكى الآلهة وأخبثهم قد صار تاجراً ، وكي يكيف نفسه بصورة تامة مع دوره ، اصبح التاجر الذي لا يمكن التفوق عليه ـ تاجراً ألمانياً . وإن ممارسته الطويلة في الأزمان الغابرة ، باعتباره بسيكو بومبوس ، او شاحن الأموات الى مملكة الجحيم ، قد جعلته متأهباً بصورة خاصة للاشراف على نقل نفوس الأموات الى الجزيرة البيضاء ، على الطريقة التي سبق وصفها آنفاً .

وان الجزيرة البيضاء لتدعى ايضاً في بعض الأحيان بريا ، او بريطانيا . لعل لذلك علاقة بالمرتفعات الحوارية القائمة على الساحل الانكليزي ؟ تلك تكون اذن فكرة مفعمة بالدعابة ، اذ تجعل من انكلترا بلد الأموات ، مملكة بلوتو ، أو الجحيم بكلام آخر . والحقيقة ان انكلترا قد بدت هكذا في أعين عدد غفير من الغرباء .

ولقد ناقشت بصورة مفصلة ، في دراستي عن فاوست ، الخرافة الشعبية المتعلقة ببلوتو وملكه ، وبيّنت فيها كيف انقلبت مملكة الأشباح جحيماً ، وكيف

تفاقمت الأخلاق الشيطانية لحاكمها العجوز الصفراوي المزاج اكثر فأكثر على مرّ الأيام . ذلك ان بلوتو ، إلـه المناطق الدنيا ، ونبتون إلـه البحر ، لم يهاجرا مثل بقية الالهة ، بل بقيا في اراضيهما ، حتى بعد انتصار المملكة المسيحية ، بقيا في عناصرهما الخاصة . ان بلوتو ليجلس الى جانب بروسرباين ، مهما ابتدعوا من خرافات خبيثة بخصوصه في الأرض عالياً ، دافئاً مطمئناً في العالم الأسفل ، مرتاحاً في أحضانه .

اما نبتون فقد قاسى من النميمة والافتراء الدنيئين أقل مما قاساه اخوه بلوتو ، فلم يستطع طنين اجراس الكنائس ، ولا سائر جهود الأرغنات ، ان تسيء الى اذنيه في اعماق المحيط القديم حيث يقعد في سلام وطمأنينة إلى جانب زوجته الناصعة الصدر ، السيدة أمفيترايت ، المحاطة ببلاطها المؤلف من بنات البحر وأغواله . ومن حين لآخر فقط ، حين يعبر ملاح مبتدىء خط الاستواء ، فان بلوتو ينبثق اذن من اعماق المياه المالحة ، وهو يلوّح في يده بالصولجان المثلث الشعب ، وقد توجت حشائش البحر رأسه ، وراحت لحيته البيضاء الفضية تتدفق ممتدة حتى سرته . وعندئذ ، فانه يهب ذلك المبتدىء معمودية ماء البحر الرهيبة ، مصاحباً إياها بخطاب طويل ثقيل الوطأة تتخلله دعابات البحارة الفظة ، بينما الملاحون المرحون يبتهجون بكل ذلك ويطربون له طرباً فائقاً .

وكان نبتون يقطع خطابه بين الفينة والفينة ببصقات من كتل معطرة من التبغ الممضوغ يبعثرها فيما حوله بسخاء وحرية عظيمتين . وقد أكد لي الصديق الذي زوّدني بمثل هذا الوصف الدقيق عن الطريقة التي تتحقق بها مثل هذه المعجزة البحرية ، ان الملاحين انفسهم الذين يضحكون من صميم قلوبهم لمجون نبتون الظريف لم يرتابوا لحظة واحدة بوجود مثل هذا الالـه ،

بل كانوا يرفعون اليه صلواتهم ، في بعض الأحيان ، عندما تحدق بهم الأخطار أثناء إبحارهم .

لقد بقي نبتون إذن ، كما رأينا ، سيداً على المملكة المائية ، بينما استمر بلوتو ، بالرغم من تحوله إلى إبليس رجيم ، اميراً على المناطق الدنيا من العالم . وهكذا كان نصيبها افضل من نصيب أخيها جوبتر الذي اصبح بعد سقوط ابيهم المشترك ، زُحل ، حاكم السماء ، وأقام في الاولمب على اعتباره سيدالكون بأسره ، وهناك استمر يحكم بالفرح والسعادة العاطرين ، محاطاً بفيالقه المؤلفة من الآلهة ، والالاهات ، وعرائس المـــاء المشرّفة . ولكن عندما وقعت الـكارثة الكبرى — عندما أعلن حكم الصليب ، هذا الرمز الأبدي للعذاب — هرب هؤلاء الآلهة العظام جميعاً وولو الادبار ، وتلاشوا في قلب الاضطراب والضوضاء اللذين أثارتهما هجرة الأجناس المختلفة وفرارها . ولقد ضاع كل اثر عنه ، بحيث اني راجعت دون طائل سائرالتواريخ التي تحفظها العجائز ، ولم أظفر بشيء منها ابداً : إن اية منهن لم تستطع ان تعطيني معلومات ذات ادنى فائدة تتعلق بمصيره . وكذلك نقّبت عبثاً ، بحدوني الهدف نفسه ، مختلف المكتبات حيث أروني الوصـايا الرائعة المزينة بالذهب والحجارة الكريمة ، والتي هي أشبه ما تكون بجوارٍ حقيقية في حريم العلم : واني اتقدم ههنا بالشكر المـألوف إلى العلماء العريقين في المعرفة الذين فتحوا لي تلك الكنوز المتلألئة في لطف عظيم . ليبدو انه لا يوجد اي تقليد شعبي عن جوبتر عاش في القرون الوسطى ، وكل ما استطعت ان أجمعه عنه ينحصر في قصة رواها صديق لي يُدعى نيلز أندرسون .

... إن الحوادث التي سأرويها الآن — قال ذلك نيلز أندرسون موجهاً حديثه إليّ — قد جرت في جزيرة لا استطيع أن أعيّن موقعها بالضبط ، لأن

أحداً لم يستطع أن يصل إليها من جديد منذ اكتشافها ، يمنع الناس عن ذلك كتل الجليد الجبارة التي تتعالى مثل جدار حصين حول الجزيرة ، وتمنع بكل تأكيد الاقتراب منها كثيراً ، إلا فيما ندر جداً من الأحايين ، بحيث لم يستطع أن يدوس أرض تلك الجزيرة إلا بحـــارة مركب شراعي روسي طردته العاصفة بعيداً جداً نحو الشمال ، الحادثة التي انقضى عليها حتى الآن مائة ونيف من الأعوام .

وعندما هبط الملاحون أرض الجزيرة ، بواسطة قارب صغير ، وجـدوا الجزيرة متوحشة بائسة : لم يكن هناك إلا قليل من الأعشاب الناحلة تتموج على أكمات الرمال ، وقليل من اشجار التنوب الممسوخة والجذوع الجدباء قد نبتت هنا وهناك متباعدة جافة . وقد شاهدوا عدداً من الأرانب البرية تنطلق من مختلف الأرجاء بين الفينة والفينة ، الأمر الذي دعاهم إلى تسمية المـكان «بجزيرة الأرانب» ، ولم يكن هناك إلا كرخ حقير يوحي الى الذهن بأن كائناً بشرياً يقطن هذه الأرض ، حين دخلوه وجدوا رجلاً عجوزاً ، عجوزاً جداً ، ملتفاً بصورة بائسة بلباس مصنوع من جلد الأرانب التي خيطت الى بعضها البعض بصورة سيئة للغاية ، جالساً في مقعد حجري قبالة المصطلى ، يحاول ان يدفىء يديه الناحلتين وركبتيه المرتجفتين بلهيب النار التي اشعلها من أغصان مقتطفة من تلك الأشجار المجدبة بكل تأكيد .

وكان يقف عن يمينه طير عظيم ، هو نسر من دون ادنى ريب ، قـــد اقتلعت سائر أرياشه ، أللهم الا قوادم أجنحته المتقشفة ، الأمر الذي أضفى عليه هيئة غريبة في الحقيقة ، لكن قبيحة للغاية في الوقت ذاته . وكان عن يسار الرجل الشيخ عنزة ضخمة بصورة غير مألوفة ، مجردة عن الشعر ، قد تربعت على الارض ، وسائر مظاهرها تشير الى تقدمها في السن كثيراً هي الأخرى ، وإن

كان يتدلى من بطنها ثديان مفعمان لبناً ، قد احمرّت حلمتها وانتبجت كثيراً .

وكان هناك عدد من اليونانيين بين البحارة، توجه أحدهم بالخطاب الى زميل له ، قائلاً في لغته الأصلية ، دون ان يخطر له لحظة واحدة ان الرجل العجوز الذي يسكن الكوخ سوف يفهم كلامه : « ان هذا الشيخ شبح أو شيطان شرير » . ولكن الرجل المسن هبّ بغتة من مقعده لدى سماعه هذه الكلمات ، فاذا أعين البحارة تشاهد ـ لدهشتهم العظيمة ـ قامة منتصبة قد ارتفعت في استقامة بالرغم من سنها المتقدمة ، وراحت عينان آمرتان تشعان في محياها باعتزاز أشبه ما يكون باعتزاز الملوك ، بينما كاد الرأس ان يبلغ سقف الكوخ لشدة ارتفاعه . وكانت ملامح الوجه تُظهر ، بالرغم من إعيائها وقسوة الطقس عليها ، آثاراً من جمال أصيل ، يطفح منها النبل والتناسق معاً . وسقطت بعض خصل فضية على جبينه الذي احتفرته الكبرياء والسن جميعاً بأخاديد عميقة ، تطل من العينين تحته نظرة قاتمة ثابتة ، تبرق احياناً بلهيب قاسٍ ، بينما سقطت من شفتيه ، باللغة الاغريقية القديمة الجميلة الوقع والطنين ، هذه الكلمات : « انك مخطىء ، أيها الفتى ، فأنا لست شبحاً ولا شيطاناً شريراً ؛ أنا إنسان عجوز شقي عرف فيما مضى أياماً أفضل . ولكن ، من عساكم تكونون ؟ » .

أطلعه الملاحون على الحادث الذي وقع لهم ، ومن ثم راحوا يستفهمون منه عن الجزيرة ، لكن لم ينالوا منه إلا معلومات طفيفة للغاية ، فقد روى لهم ذلك العجوز أنه يقطن هذه الجزيرة منذ أزمان سحيقة ، تفيده حصونها الجليدة كملجإ أمين ضد أعدائه الألداء الذين لا يرحمون ولا يعرفون إلى الشفقة سبيلاً ، وأنه يقيم أوده باصطياد الأرانب البرية في المحل الأول ، ويبيع جلودها لبعض القبائل من المتوحشين الذين يؤمّون الجزيرة على نقالات

خشبية في كل عام ، عندما يذوب الجليد ، ويلقى منهم بدلاً منها أشياء مختلفة لاغناء عنها بالنسبة اليه ، وان الحيتان التي تسبح أحياناً حتى شواطىء الجزيرة هي أفضل اصحابه وأقربهم الى قلبه ... ولكنه سعيد جداً الآن إذ يسمع من جديد لغته الأصلية ، لأنه يوناني التبعة هو الآخر ، ولذا فهو يرجو من مواطنيه أن يحدثوه بالتفصيل عن أحوال اليونان الحاضرة . ويبدو ان العجوز قد سُرَّ كثيراً وابتهج عندما علم أن الصليب قد نُزع عن مباني المدن اليونانية ، ولكنه لم يشعر بأدنى سرور على أية حال عندما علم أن الهلال قد رُفع هناك بدلاً من الصليب . والأمر الذي يدعو الى الاستغراب حقاً أن أحداً من البحارة لم يعرف أسماء المدن التي كان الرجل الشيخ يسأل عن أخبارها ، والتي كان ازدهارها عظيماً في أيامه كما أكد لهم مراراً وتكراراً . وكذلك فان أسماء المدن والقرى اليونانية الراهنة التي أتى الملاحون على ذكرها كانت مجهولة منه ، فهو يهز رأسه في كآبة لدى سماعها ، بينما البحارة يتطلعون الى بعضهم البعض في حيرة وارتباك . ولقد لاحظوا انه يعرف تمام المعرفة مختلف مناطق اليونان وجميع خصائصها الجغرافية ، وأنه يصف بصورة دقيقة حية سائر الخلجان ، والرؤوس ، وسلاسل الجبال ، بل حتى أبسط الروابي وأتفه المرتفعات الصخرية وأقلها شأناً ، بحيث أن جهله بتلك المناطق التي ذكروها له يبعث على الدهشة والعجب حقاً . ولقد سألهم في شيء من الاهتمام الخاص ، بل في شيء من القلق ايضاً ، عن هيكل قديم كان في أيامه ، كما أكد لهم ، أروع الأشياء في الأرض اليونانية وأكثرها جمالاً ، وإن لم يعرف أحد من المستمعين الاسم المذكور الذي لفظه في حنان كثير وحب فائق . ولكن ملاحاً فتى تعرّف أخيراً على المكان الذي يصفه هذا الرجل الغريب عندما عاد فوصف موقع الهيكل

في تفصيل كثير . قال ذلك الملاح ان القرية التي ولد فيها تقع غير بعيد عن ذلك المكان ، وأنه كثيراً ما رعى خنازير والده ، عندما كان صبياً بعد ، في ذات المكان بالضبط الذي وُجدت فيه أنقاض بناء عتيق تدل على عظمة رائعة جداً من مخلفات الماضي . أما الآن فلم يبقَ من تلك العظمة إلا عدد قليل من الأعمدة الضخمة المنتصبة ، بعضها مسطح غير مزخرف ، وبعضها الآخر يعلوه هرم حجارته مربعة الشكل . وكانت عرائش الياسمين البري المزدهرة ، وأزهار الجرس الحمر تتدلى نحو الأرض من شقوق الحجارة ، بينا كانت أعمدة أخرى - بعضها مصنوعة من الرخام ذي اللون الزهري - تتبعثر على الأرض هنا وهناك ، وقد اجتاحت الأعشاب وأغصان العليق رؤوسها الرخامية الثمينة ، المزينة بنقوش جميلة تمثل اوراقاً وازهاراً مختلفة الأنواع . وكانت كتل ضخمة من الرخام مرتمية على الأرض ، نصف غارقة في التربة ، بعضها مربعة الشكل ، وبعضهـــا الآخر شبيهة بتلك التي تستعمل لبناء الجدران ، والبعض الآخر أيضاً مثلثة القرون كتلك التي تستعمل في تزيين السقوف . وكانت شجرة تين كبيرة تمتد فوقها ، وقد نمت من خلال تلك الأنقاض وتطاولت عالياً في الفضاء .

وتابع الفتى يقول انه قضى الساعات الطوال ، في ظل تلك الشجرة ، وهو يتفحص الرسوم الغريبة المحفورة في الكتل الرخامية ، والتي تمثل فيما يبدو مختلف انواع الرياضات والقتال ، تبهج النظر كثيراً ، سوى ان الزمن - وياللأسف الشديد - قد أساء الهياكل الاساءة ، بينا غمرها الطحلب ونبات العليق من كل حدب وصوب . ولقد حدثه ابوه ، عندما سأله عن المعنى العجيب لهذه الأعمدة والنقوش ، ان هذه الأشياء هي بقايا هيكل وثني قديم ، وانها كانت في يوم من الأيام مسكناً لإله وثني شرير قد تقلّب هنا في احضان فجور شهواني دنيء ،

واستسلم للفساد والدعارة ، ومختلف الآثام غير الطبيعية . ولكن الوثنيين الجاهليين كانوا يذبحون على شرفه في كل عام ، بالرغم من كل ذلك ، مائة ثوراً دفعة واحدة ، وكتلة الرخام المجوفة التي كانت دماء الذبائح تجمع فيها مابرحت موجودة حتى الآن ، وهي بالضبط ذلك الجرن الذي اعتادوا أن يستعملوه كاناء تجمع فيه الفضلات التي تتغذى الخنازير بها .

هكذا تحدث البحار الفتى ... اما الرجل الشيخ فقد صعّد زفرة حرّى فضحت مايحسه من ألم شديد للغاية ، ومن ثم سقط في مقعده الحجري ، وهو يترنح ويتطوّح ، وغطى وجهه بيديه ، وراح يبكي مثل طفل صغير . وعندئذ صفّق الطير الكبير الناحل بجناحيه ، وهو يرسل صراخاً حاداً مرتفعاً ، وهدّد الغرباء بمنقاره ومخالبه ، بينما راحت العنزة العجوز تلعق يدي سيدها ، وتثاغي في اكتئاب وكأنها تريد ان تعزّيه .

واجتاح رعب شديد البحارة لدى هذا المشهد الغريب ، فأسرعوا يغادرون الكوخ ، وأحسوا الارتياح والسرور عندما انقطعت أصوات بكاء الشيخ وصياح الطير وثغاء العنزة عن البلوغ اليهم . وعندما صعدوا إلى ظهر مركبهم بأمان ، حدثوا رفاقهم بمغامرتهم ، فأعلن روسي مثقف من عداد الركاب ، — وقد كان استاذاً للفلسفة في جامعة قازان — ان تلك قضية ذات أهمية قصوى ، وراح يؤكد للبحارة ، وقد وضع سبابته على جانب أنفه ، متخذاً هيئة العارف العليم ، ان رجل الجزيرة العجوز هو من دون أدنى ريب الاله القديم جوبتر ، ابن زحل وريا ، وان الطير الواقف الى جانبه هو بكل تأكيد النسر الذي حمل الصواعق بمخالبه مرة ، وان العنزة العجوز هي ، كما تشير سائر الدلائل ، ألتيا بالضبط ، مربية جوبتر الشيخة ، التي أرضعته في جزيرة كريت ، وهي مابرحت حتى الآن تغذيه أيضاً بحليبها في منفاه الاجباري .

هذه هي القصة كما رواها لي نيلز أندرسون . ولا بدّ لي من الاعتراف بأنها قد ملأت قلبي بكآبة عظيمة. ان الانحطاط ليجتاح كل ما هو عظيم في هذا الكون، والآلهة انفسهم سوف يسقطون أخيراً تحت وطأة المصير البائس نفسه ، فقيد القضاء يريد ذلك ، ولا بدّ اذن حتى لأعظم الخالدين من أن يطأطىء رأسه في خضوع امام تلك الارادة الحديدية . ان الذي غناه هوميروس ، والذي نحته فيدياس بالذهب والعاج ، ذلك الذي كانت الأرض ترتجف لدى مرآه ، والذي كان عاشقاً ليدا ، وألكمينا ، وسيمليا ، ودانايا ، وكاليستو ، وإيو ، وليتو ، واوروبا ... إلخ ، لمضطر هو الآخر ان يخبىء نفسه خلف حصون القطب الشمالي الجليدية ، وأن يتاجر ببيع جلود الأرانب ، مثل أحد سكان السافوا البائسين ، كي يمدّ في وجوده التعيس ويطيل منه !...

ولست أرتاب ان هناك قوماً سيحصّلون سروراً خبيثاً من مثل هذا المشهد. لعلهم سلالة اولئك الخنازير السيئي الحظ الذين كانوا يذبحون ، في الأضاحي القديمة ، على مذبح جوبتر . ألا فافرحوا إذن ! إن دم أجدادكم — هؤلاء الشهداء المساكين للخرافات — قد نال ثأره . أما نحن ، البريئين من حقد موروث يسمّم كياننا ويتّقدُ فيه ، فان مشهد العظمة الساقطة يؤثر فينا ، فلا نستطيع أن نمنع أقدس عواطفنا عن التظاهر — التعبير عن ذاتها بكل حرية وانطلاق ...

اعترافات رأس السنة الجديدة

هرمان سودرمان

هرمان سودرمان

١٨٥٧ — ١٩٢٨

نالت روايته الأولى : « المرأة المتشحة بالسواد » (١٧٨٧) شهرة عظيمة ونجاحاً باهراً ، وكذلك مسرحيته الأولى « الشرف » (١٨٨٨) ، وبذلك بعث بعض الآمال في جو ألمانيا الأدبي الكئيب ، وان لم يستطع ، مع العدد الضئيل جداً من زملائه الكتاب ، ان يبدد شعور الانهيار الأدبي المثقل على ألمانيا والذي قاد نيتشه الى التساؤل عما اذا كان نصر جرمانيا العسكري (١٨٧٠) الذي لم تشاهد السنوات العشر التالية له ظهور اي مؤلف أدبي جديد « لن يتحول الى هزيمة ، لا بل الى اجتثاث الفكر الألماني على حساب الامبراطورية الألمانية » . ولقد كان احساس القلق هذا عمومياً شاملاً حتى ان الشبيبة المنضوية تحت راية « ألمانيا الفتاة » قد راحت تطالب « بعاصفة وانطلاق » جديد ، فارتدت الى الطبيعة مجدداً متمثلة في ذلك بالحركة الأدبية التي سبقتها بقرن كامل والتي تكتلت بكتاب كلينغر « العاصفة والانطلاق » (١٧٧٧) ، وبذلك خلقت مدرسة طبيعية جديدة متأثرة بالقصة الفرنسية من جهة والمسرحية السكاندينافية من جهة اخرى ، هذه المدرسة التي يمثل سودرمان أحد وجوهها البارزة .

أواه يا سيدتي العزيزة ! ما أحيلى ان يكون المرء ههنا ، الى جانبك من جديد ، جلوساً في سلام فائق على هذا المقعد الدافىء المريح ، مستعداً لسمر لذيذ ، مقبلاً عليه ! ألا شكراً لك الف الف مرة ، فهذه ضوضاء العيد قد انقضت ، وجلبته قد تلاشت ، فأصبحتِ تجدين بعض الفراغ من جديد لتمنحيني إياه .

إيه ، يا موسم عيد الميلاد ! ليخيل اليّ ان الشيطان قد اختلقه خصيصاً ليزعجنا نحن العازبين ، ويضاعف في كآبة حياتنا البائسة التي يُعوِزها البيت العائلي . ان ما هو ينبوع غبطة وسعادة للآخرين لمصدر عذاب وشقاء لنا. طبعاً ، طبعاً ، نحن لا نحيا جميعاً في الوحدة القاتلة والعزلة البهيمة ، بل ان البهجة المنبعثة عن هبة الفرح والسرور لتزدهر لعدد عظيم منا أيضاً . ولكن اللذة الخالصة التي ينالها المرء من اقتسام اللذة مع الآخرين لينغصها كثير من انتقاد الذات الساخر من جهة ، ويعكر صفوها من جهة أخرى تلك اللهفة المريرة التي اودّ ان ادعوها داء الزواج ، بدلاً من داء البيت العائلي كما اعتاد الناس ان يسمّوها .

تسألينني لمَ لمْ آتِ فأفتح لك قلبي ، مهرقاً امامك كل ما يعتلج فيه ويضطرم في جوفه ؟ انت يا ايتها النفس الحنون التي تهب العزاء في كرم عظيم وأريحية كبيرة ، بينما لا تبعث اكثر بنات جنسك في النفس الا الغل الحقير ، والضغينة المقيتة . أواه ، يا سيدتي ! ولكنك ترين جيداً ، من دون شك ، ان القضية ليست على شيء كثير من البساطة. ألست تعرفين ما يقول سبيدل في حديثه

الساحر عن « العصافير الوحيدة » ، هذا الكتاب الذي بعثت به اليّ في اليوم الثالث من العيد ، وقد خمّنت ، بصورة إلهية حقاً ، الحال التي أتلوّى فيها والمشاعر التي تطغى على نفسي ؟ انه يقول : « ليس عند العازب الأصيل إرادة للعزاء ، فهو اذا ما اضحى بائساً مرة ، سعى - راغباً - ان ينغمس في شقائه أكثر فأكثر » .

والى جانب عصفور سبيدل الوحيد ، يوجد نوع من العازبين الشيوخ القنوعين بما قسم الله لهم ، هؤلاء هم اصدقاء العائلات وخلاّنها . انا لا اعني اولئك الذين امتهنوا تدمير كيان العائلة وتحطيمه ، الذين يتسللون في رياء ونفاق ونيّة مفعمة عدواناً وشراً الى المأوى الزوجي الذي يرحّب بهم في بساطة وسذاجة ، فيرتاحون في أحضانه البريئة ويعيثون فساداً في جنباته وأرضه الطيبة ، بل اعني ذلك العمّ العجوز الطيب القلب ، رفيق الأب على مقاعد الدراسة فيما غبر من الزمان ، الذي يداعب الطفل المعتلي ركبتيه ويلاطفه ، بينما يقرأ للأم ، بكل إجلال واحترام ، القصة المنشورة في صحيفة المساء ، ضارباً الصفح عمّا يرد فيها من المقاطع الشائنة .

اني اعرف رجالاً كثيرين وقفوا كل حياتهم على خدمة عائلات ارتبطوا معها بصلات الصداقة الطاهرة ، رجالاً يقضون ايام وجودهم ، دون ان تراودهم ادنى رغبة او شهوة على الاطلاق ، الى جانب امرأة جميلة يعبدونها في سرّهم مثلما يعبدون الآلهة ، دون ان يفصحوا عن ذلك قط .

أترتابين في ذلك ؟ آه ، انت تعترضين على قولي : « دون ان تراودهم ادنى رغبة او شهوة » ! بلى ، لربما كنتِ على صواب ! لمن المحتمل ان رغبة وحشية تكمن حتى في اعماق اكثر القلوب إلفةً وانساً ، ولكنها على اية حال - وهذا واضح كل الوضوح - رغبة مكتومة مكبوحة الجماح .

وإني لأحب ان اعطيك مثالاً على ذلك ، فأروي لك حديثاً تبادله سيدان متقدمان في السن ، في رأس السنة الجديدة هذه بالذات . اما كيف بلغني هذا الحديث فهذا ما يجدر بك ألا تسألي عنه ، كما يجدر بك ألا تروية لأي انسان آخر . أيمكنني ان ابدأ ؟

أما فيما يتعلق بالمشهد ، فتصوري غرفة عالية السقف ، مؤثثة على الطراز القديم ، يكاد المصباح المعلق في وسطها ، والصقيل الجنبات حتى ليند عنه بريق قامي اللمعان ، والمستور بغطاء اخضر اللون يزهو به ويتضوأ ، والشبيه الى حد بعيد بتلك المصابيح التي كان آباؤنا يستعملونها قبل عصر البترول المكرر ، يكاد هذا المصباح اذن الا يضيئها مطلقاً . ولقد كان نوره الضئيل يسقط على مائدة مستديرة تتوسط الغرفة ، مكسوة برداء ابيض ، وقد استقرت عليها المواد التي يتركب منها شراب السنة الجديدة ، ولوثت مركزها بعض قطرات من الزيت تنتشر في صفحة الغطاء الناصع ببطء شديد .

كان صاحباي الشيخان قاعدين في النور المعتم الذي يلقيه الظل الأخضر ، خرائب عفنة تشهد عن زمان عفى الدهر عليه ، وكل منهما قد انطوى على نفسه مرتعش الأوصال ، وكل منهما يشخص في الفراغ بعيني الشيخوخة المظلمتين ، ونظرة الهرم الخابية . كان احدهما ، وهو رب الدار ، رجلاً عسكرياً كما يتضح من النظرة الأولى الى جذعه المنتصب باستقامة تامة ، وشاربه المدبب الطرفين ، الحليق تحت النهايتين الرفيعتين ، وحاجبيه المعقودين في تقطيبة حربية . وكان يجلس مترا كماً في مقعد هزاز ، مطبقاً على مسند الذراعين مبه بكلتا يديه بشدة وعنف . ولم يكن شيء يتحرك فيه ، أللهم إلا فكه الأسفل الذي يصعد ويهبط دون انقطاع في حركة ماضغة . اما الآخر الجالس على الأريكة الى جانبه ، فكان طويلاً ناحلاً ، ضيق الكتفين ، ذا

رأس حاد الزوايا ، عريض الجبهة ، كثير الشبه برأس المفكّرين ، ينفخ سحباً قاتمة من الدخان من غليون طويل على وشك الانطفاء . وكانت لفائف من الشعر الأبيض كالثلج تؤلف إطاراً حول وجهه ، وابتسامة هادئة عذبة تستقر في آلاف الخطوط الرقيقة التي تحفر جلده الأملس الجاف ، ابتسامة لا يمكن ان يطبعها على ذلك الوجه الشيخ إلا السلام الذي يبعثه في النفس رفض الانسان لهذا العالم ، وعزوفه عنه .

كانا يجلسان صامتين دون ان ينبسا ببنت شفة على الاطلاق ، بحيث كنت تستطيعين ان تسمعي في ذلك السكون صدى التهاب الزيت مختلطاً بأنين التبغ المحترق في خفوت . ومن ثم علا أزيز الساعة المعلقة في الجدار القائم الجانبي قبل ان تضرب دقاتها الاحدى عشرة .

قال الضيف بصوت تردّد في ارجاء الغرفة عذباً ينتابه بعض الارتعاش :

— هذه الساعة التي كنتما تصنعان فيها شرابكما قد اقتربت .

فأضاف الآخر ، وكانت لهجته قاسية جافة ، فكأن صدى الأوامر التي يهتف بها في ساحة القتال يتردد الآن في صوته :

— بلى ، هذه هي الساعة .

فعاد الضيف يقول :

— اني لم أظن قط أن الحياة بدونها ستكون كئيبة حتى هذه الدرجة .

فهزّ المضيف رأسه ، واشتدت حركة فكه الماضغة قوة ، ولم يقل شيئاً .

— لقد صنعت لنا شراب رأس السنة الجديدة أربعاً وأربعين مرة .

فقال الجندي القديم :

— بلى ، فمنذ ذلك الحين وانا اعيش ههنا في برلين ، وانت تقدم لزيارتنا دون انقطاع .

وتابع رجل الفكر حديثه قائلاً :

— في مثل هذا الوقت من العام الماضي كنا ثلاثتنا لمّا نزل سوية ، تحفُّ بنا السعادة من كل جانب . ولقد كانت تجلس هناك ، في هذا المقعد المريح ، تصنع جوربين من الصوف لأكبر أبناء بولس ، وتسرع في ذلك ما استطاعت الى العجلة سبيلاً ، وهي تقول : يجب إنجازها قبل حلول منتصف الليل .. وهكذا كان ... ومن ثم جرعنا الشراب ، ورحنا نتجادل في امور الموت بكل اطمئنان وثقة . ولم ينقضِ شهران على ذلك ، حتى حُملت الى المقبرة . انت تدري اني كتبت مجلداً ضخماً عن خلود الفكرة ، ولكنك لم تستطع قط الاستماع اليه ، وانا ايضاً لم اعد قادراً على ذلك منذ توفيت زوجك . والواقع الذي لا جدالَ فيه اني لا آبه بعد الآن لأية افكار كانت اكثر مما آبه لقشرة بصل ملقاة على قارعة الطريق .

فقال زوج المتوفاة :

— ، بلى ، لقـــد كانت امرأة صالحة . ولطالما عُنيتْ بي ، وأحاطتني برعايتها ، وغمرتني بحدبها وحنانها . وعندما كنت اضطر للنهوض في تمام الساعة الخامسة صباحاً كي اغدو الى الخدمة ، كانت تنهض قبلي دوماً ، وتعمل على ان اتناول قدحاً لذيذاً من القهوة قبـــل خروجي . ولقد كانت لها اخطاؤها أيضاً .. عندما كانت تستغرق في التفلسف معك مثلاً ... يالطيف!

فقال الضيف :

— انك ، بكل بساطة ، لم تفهمها !

وارتعش في زاويتي فمه شيء أشبه بحقد دفين ونقمة مكبوتة ، وان كانت النظرة التي أراحها طويلاً على وجه صديقه حزينة ووديعة معاً ، فكأن نفسه تحمل في احشائها وعياً مكنوماً لخطيئة عظمى .

وابتدأ يقول ، بعد فترة من الصمت :

ـ إسمع يا فرانز ، لا بدّ لي من ان احكي لك شيئاً ... شيئاً يتآكلني منذ زمن طويل كالسوس اذ ينخر العظم ، ولن استطيع قط ثواء في قبري وانا احمله ، بل لا بدّ لي من رفعه عن كاهلي والخلاص منه .

فقال فرانز ، وهو يتناول الغليون الطويل الملقى بالقرب منه ، ويحشوه تبغاً :

ـ هيا اذن ، ما دام الأمر كذلك .

ـ ذات مرة . جرى شيء .. بيني وبين .. زوجتك .

فقال فرانز :

ـ رجاءً لا تهزل ، يا دكتور .

ـ بل انا جاد كل الجد ، يا فرانز . ولقد حملت هذا السرّ معي طوال اربعين سنة حتى الآن ، ولقد حان الوقت اليوم كي اتخلص منه .

فصاح الجندي القديم حانقاً :

ـ أتعني ان زوجتي قد خدعتني ؟

فقال الفيلسوف بابتسامته الكئيبة الأنيسة :

ـ ألا فاخجل ، يا فرانز !

فدمدم فرانز برهة ، وتمتم شيئاً ما من بين اسنانه ، ثم اشعل غليونه ، بينما تابع الفيلسوف حديثه قائلاً :

ـ كلا ، لقد كانت طاهرة مثل ملاك كريم . ولكننا ، انت وانا ، مجرمان أثيمان . استمع اليّ جيداً . لقد كان ذلك قبل ثلاثة واربعين عاماً ، وانت قد نُقلت إلى برلين حديثاً بعد ان بلغت رتبة رئيس في الجيش ، اما انا فقد كنت ألقي دروساً في الجامعة . انك لم تنسَ اي فتى متوحش كنت يومذاك .

ـ هم ! هم !

همهم فرانز بذلك ثم رفع يده المرتجفة كي يفتل شاربيه الرفيعين المدببين .

ـ كانت هناك ممثلة فاتنة ذات عينين سوداوين كبيرتين ، وأسنان صغيرة بيض . أتذكر ذلك ؟

ـ اني لأذكر ذلك جيداً . لقد كان اسمها بلانكا . ولقد كانت تعرف كيف تعض .. صدقني انها كانت تعرف كيف تعض ..

ومرت ابتسامة هزيلة على محيا الرجل العجوز المجعد كالجلد المحروق ، حيث انطبعت بوضوح تام علامات الحياة القاسية العجولة .

ـ لقد خنت زوجتك ، فارتابت هي في ذلك ، ولكنها لم تقل شيئاً قط ، بل تحملته في صمت وسكينة . وانت لم تلاحظ ذلك ، اما انا فلاحظته . وكانت هي المرأة الاولى التي اعرفها بعد وفاة امي ، جاءت حياتي مثل كوكب براق مشع ، فرفعت اليها ابصاري كما ارفعها الى كوكب مشع ... واخيراً جمعت قواي ، واستدعيت كل شجاعتي كي اسألها عما يزعجها ويضايقها ، فابتسمت وقالت انها تحس وعكة لما تبرأ منها جيداً بعد . ولقد كان ذلك ، كما تذكر ، قبل ولادة بولس فتاك بوقت قصير . ومن ثم جاء عيد رأس السنة الجديدة .. ثلاثاً واربعين سنة بالضبط قبل هذه الليلة ـ فقدمت منزلك حوالي الساعة الثامنة كما هي عادتي . وجلست هي تطرز بعض الأقمشة ، بينما رحت انا اقرأ لها في بعض الكتب بانتظار إيابك ، ولكن الساعات مرت ، الواحدة تلو الأخرى ، وانت ولم تأتِ . ولقد رأيت الاضطراب الذي انتابها ، وكيف راحت ترتعش كالريشة في مهب الريح ، فرحت ارتجف واياها .. كنت اعلم ما الذي يشغلك ويحجزك بعيداً ، وكنت خائفاً لئلا تنسى الساعة الثانية عشرة وانت بين ذراعي تلك المرأة . وكانت تلك الساعة تقترب سريعاً ،

فتوقفت عن التطريز ، وتوقفت بدوري عن القراءة ، وخيم علينا سكون مقيت للغاية . واخيراً صافحت عيناي عبرة تزحف ببطء بين اهدابها ، ثم تسقط على القماش بين يديها ، فقفزت على قدمي وبغيتي الخروج كي أعود بك الى الدار : كنت اشعر بأني املك القدرة على انتزاعك بالقوة من احضان تلك المرأة . ولكن زوجتك هبت ناهضة كذلك في اللحظة ذاتها ، وكانت من قبل تجلس على هذا المقعد نفسه الذي أقتعده انا الآن ، وصاحت بي : « إلى أين انت ذاهب ؟ » . كان محياها يطفح بخوف لا يمكن وصفه او التعبير عنه قط . قلت : « اني ظامئ افتش عن فرانز » . فزعقت لدى سماعها ذلك هاتفة بي : « من اجل السماء ابق معي . على الأقل ابق انت معي ، ولا تتركني لوحدي » .

وألقت بنفسها عليّ ، واحاطت عنقي بذراعيها ، واخفت وجهها الندي في صدري ، وعندئذ ارتجف جسدي برمّته ... ابداً لم تقترب مني امرأة على هذه الصورة من قبل . ولكني تماسكت ، وتمالكت نفسي ، ورحت اتحدث اليها مواسياً مطمئناً ... لقد كانت بحاجة قصوى الى المؤاساة ، وسرعان ما رجعت انت ، ولكنك لم تلاحظ اضطرابي . لقد كانت وجنتاك مضرجتين ، وعيناك تحملان نظرة طافحة باعياء الحب الثمل ..

ولقد احدث في رأس السنة ذاك تغييراً ملأني رعباً وخشية ، ذلك أني منذ احسست بذراعيها الناعمتين تحيطان عنقي ، وبعطر شعرها العذب يملأ خيشومي ، تهاوى الكوكب من علياء سمائه ، وقامت « المرأة » مكان الكوكب ، المرأة الجميلة التي تتنفس الحب وتزفره مع كل من انفاسها . وكنت اعرف ان الحمية والنار يتأرجحان في نظراتي ، فرحت اتهم نفسي بالغدر والخيانة ، واسعى الى التفريق بينك وبين خليلتك كي اكفر عن ذنبي بعض التكفير ، وأحمل الى ضميري بعض الراحة . ومن حسن الحظ اني كنت املك بعض المال الذي ورثته ، فعرضت على تلك الممثلة مبلغاً رضيت به ... و...

فقاطعه الجندي العجوز صائحاً :

ـ وحقّ الآلهة ، اذن فأنت هو المسؤول عن كتاب الوداع المؤثر الذي بعثت به بلانكا اليّ ، والذي تحدثني فيه بأنها انما تهجر حبي بقلب محطم مكسور ؟

ـ نعم ، انا هو المسؤول عن ذلك . ولكن اسمع . لقد كنت انتظران انال السلام بالمال الذي أعطيتها اياه ، ولكني كنت مخطئاً ، فقد ظلت تلك الأفكار المتوحشة تدوّم وتدوّم في دماغي وهي تتفاقم اكثر فأكثر ، فحاولت ان اهرب منها بأن ادفن ذاتي في اعمالي ومؤلفاتي ، وفي ذلك الحين كوّنت فكرتي المركزية عن كتابي : « خلود الفكرة » . ولكن عبثاً حاولت ، فالسلام لم يأتِ عن تلك الطريق .

وهكذا انقضت سنة كاملة ، وجاء عيد رأس السنة التالية ، وجلست بالقرب منها على هذا المقعد مرة اخرى . وكنت انت في الدار هذه المرة ، ولكنك كنت ترقد على الأريكة في الغرفة المجاورة متعباً من فترة المجون والمرح التي قضيتها في النادي قبيل إيابك الى الدار . وبينما انا اجلس ههنا ، قريباً منها ، أنظر الى وجهها الشاحب ، عادت اليّ ذكرى رأس السنة المنصرمة واجتاحتني بعنفوان لم استطع له مقاومة او صموداً على الاطلاق . أواه ! لو احسّ رأسها على عنقي مرة اخرى ، لو أقبّلها مرة اخرى فقط ، ثم فليكن كل مايمكن ان يكون ! والتقت نظراتنا برهة ، فخيل اليّ ان فهاً دفيناً قد اشرق في عينيها ، فلم استطع ان ضبط نفسي اكثر مما فعلت ، فرحت جاثياً عند قدميها ، ودفنت وجهي الملتهب في حضنها .

وبقيت هناك هكذا ، دون حراك ، حوالي الثانيتين تقريباً ، عندما احسست يدها الباردة تمسح على رأسي ، وسمعت صوتها العذب يقول في رقة

ولطف عظيمين : « يجب ان تكون جيداً ! » .

بلى ، يجب ان اكون جيداً ، يجب ألا أخون الرجل الراقد في الغرفة المجاورة في ثقة واطمئنان ، فقفزت ناهضاً ، وتطلعت حوالي متبلبلاً حائراً لااملك شيئاً من زمام نفسي . اما هي فالتقطت كتاباً عن المائدة وناولتني اياه ، ففهمت ماتعني بذلك ، وفتحت الكتاب دون تعيين وشرعت اقرأ بصوت مرتفع . وشرعت الأحرف تتراقص امام عيني ، ولكن العاصفة هدأت شيئاً فشيئاً ، حتى اذا دقت الساعة الاثنتي عشرة ، وجئت انت من الغرفة المجاورة تتمنى لنا سنة سعيدة بعينين ناعستين ، احسست ان تلك اللحظة من الخطيئة قد اصبحت بعيدة جداً ، بعيدة الى الوراء مني ، يكتنفها جيل مضى وانقضى من عهد طويل .

ومنذ ذلك الحين اصبحت اكثر هدوءاً . كنت اعرف انها لاتبادلني ذلك الحب ، واني لااستطيع ان انتظر منها اكثر من الرثاء والشفقة . ومرت السنون ، وكبر ابناؤك وتزوجوا ، وهرمنا نحن الثلاثة ايضاً ، وطلقت انت الانهماك في الشهوات ، ووقفت حياتك على تلك المرأة وحدها ، مثلي انا الذي لم اكف عن محبتها ابداً . كلا ، كان ذلك مستحيلاً ! ولكن حبي ارتدى اشكالاً اخرى ، فقد طرح عنه الرغبات الأرضية ، وانقلب الى مشاركة روحية خالصة . كنت غالباً ماتضحك منا عندما تسمعنا نتفلسف ، ولكن هل خمنت مرة مبلغ الوحدة التي امتزجت بها نفسي ونفسها معاً ؟ لو فعلت لثارت في قلبك اذن غيرة عظيمة مهلكة . اما الآن فلقد توفيت ، ولعلنا سنتبعها قبل حلول رأس سنة جديدة ، ولهذا فقد حان لي ان ارفع عن كاهلي ثقل سري هذا ، وان اقول لك : « لقد أخطأت تجاهلك مرة يافرانز ، فاصفح عني ! »

ومدّ يده نحو صديقه متوسلاً، ولكن فرانز اجاب بلهجة غاضبة :

– ايه ، ياللحشو الفارغ والهراء ! وما اعظم الخطيئة كي نصفح عنها ! ان اخبارك هذه التي سميتها اعترافاً لعتيقة مبتذلة بالية . فأنا على معرفة بها منذ اجيال ، اذ حدثتني هي نفسها بها قبل اربعين عاماً . وانا الآن استطيع ان اقرّ لك بالسبب الذي كان يدفعني الى الركض وراء النساء الأخريات ، كما ظلت حالي حتى هرمت واصبحت عجوزاً ... ذلك انها اعترفت لي ، عندما قصّت عليّ حديث تلك الحادثة ، انك الرجل الوحيد الذي أحبّته طوال حياتها ...

فأسفّ ضيفه النظر إليه في سكون وصمت ... وفي تلك اللحظة ، ارتفع أزيز الساعة المعلقة في الجدار ، ثم ضربت دقاتها الاثنتي عشرة ، معلنة بدء العام الجديد ...

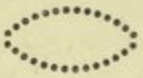

الدرب الى المقبرة

توماس مان

[illegible]

[illegible]

٨

توماس مان

١٨٧٥ — ... ١٩٥٥ (رحمه الله)

يعتبر مع أخيه هنريخ الممثلين الكبيرين لقصة الألمانية المعاصرة ؛ اما توماس ، وهو اكثرهما فناً وأعمقهما نفوذاً الى النفس الانسانية ، فليس بين الأدباء من ينازعه إعجاب الألمانيين به كروائي عظيم . وان بعض النقاد ليعتبرون قصته : « الموت في البندقية » (١٩١٣) « اجمل ما كتب في الآداب العالمية من القصص القصيرة الطويلة » . ولكنه اشتهر ، بصورة خاصة ، برواياته الثلاث الكبرى : « آل بودنبورغ » (١٩٠١) التي تستوحي موضوعها من بلزاك وزولا مباشرة ، والتي يحاول الكاتب فيها ان يصف عظمة عائلة بورجوازية وانحدارها المتلاحقين ، و « الجبل السحري » (١٩٢٤) وهي قصة عن الحياة في المصحات وعن الديمومة البرغسونية ، ثم سلسلة « يوسف واخوته » (١٩٣٤ - ١٩٤٣) التي تكاد ألا تنتهي . اما كتابه الاخير « الدكتور فوستوس » او « حياة الموسيقي الألماني ادريان ليفر كوهن » (١٩٤٧) ، فعودة الى العالم الألماني في الدرجة الأولى .

ولقد ترك توماس مان ألمانيا عندما استولى النازيون على الحكم . وعاش طوال تلك الفترة في اميركا ، ثم عاد بعد الحرب الى موطنه ، حيث حاول الفريبون ان يحتكروه . ولكنه تحدى ادعاءهم ، ومر الى المنطقة الشرقية حيث نفى فترة من الزمن ، معلناً ان الشعب الألماني لايمكن ان يكون الا واحداً دوماً . وان كتاباته السياسية التي طلعت على العالم في المدة الأخيرة لذات قيمة وأهمية عظيمة ، اما القصة التي نقدمها هنا فقد كتبها وهو في السادسة والعشرين من عمره .

كانت الدرب الى المقبرة تمتد الى جانب الطريق الرئيسية ، تمتد الى جانبها على طول المسافة حتى النهاية ، يعني حتى المقبرة . وعلى الجانب الآخر منها كانت تقوم بيوت كثيرة لا حصر لها ، بيوت حديثة منعزلة ، لم ينته بعد بناء عدد وفير منها . ومن بعد هذه المنازل ، كانت الحقول الشاسعة المترامية الأطراف تستلقي في تراخ وكسل على مدّ البصر حتى الأفق البعيد البعيد . وكانت الطريق الرئيسية مجنحة بالأشجار ، أشجار باسقة من خشب الزان العجوز الطاعن كثيراً في السن . وكانت نصفها مرصوفة بالحجارة ، اما النصف الآخر فلم تنله يد التعبيد من قريب او بعيد قط . ولكن الدرب الى المقبرة كانت مكسوة برذاذ من الرمال الدقيقة اشبهها بممر لطيف خطته الأقدام على الأرض المهجورة . وكان اخدود ضيق جاف يمتد بين الطريق الرئيسية وهذا الممر ، طافحاً بالعشب الأخضر والأزهار البرية .

وكان الربيع في اوج ازدهاره ، يكاد ان يكون صيفاً فائظ الحرارة . وكانت الدنيا تبتسم بفرح ، وسماء الله الزرقاء مليئة لا بشيء ، إلا بقطع من السحب ، قطع صغيرة مستديرة ، كثيفة متراكمة ... كانت السماء مكسوّة ، من اقصاها الى اقصاها ، بعناقيد من كتل لطيفة ناصعة البياض كالثلج النقي الطاهر . وكانت العصافير تغرّد في اشجار الزان معتقلة بين اغصانها ، وريح رقيقة حنون تهب عبر الحقول نسيماً عليلاً عذباً .

وكانت عربة قادمة من القرية المجاورة في اتجاه المدينة ، تعبر الطريق

الرئيسية ، يسير نصفها فوق القسم المرصوف من الدرب ، والنصف الآخر فوق القسم غير المرصوف منه . وكانت رجلا السائق متدليتين على جانبي العريش تتأرجحان في غير تناسق أوانسجام ، وهو يصفر من بين شفتيه لحناً مألوفاً . وفي مؤخرة العربة كان يقبع كلب صغير ، اصفر اللون ، مدبب البوز ، ادار ظهره للسائق ، وراح يشخص ، بطريقة رزينة مهيبة تتجاوز الوصف حقاً ، الى الطريق التي اتى منها . كان كلباً صغيراً مدهشاً عظيم الفتنة في الحقيقة ، جيداً مثل الذهب الخالص ، يحمل تأمله اللذة والانشراح الى النفس ، والغبطة والسرور الى القلب . ولكن لا ، فهذا الكلب لا شأن له بالقصة التي نحن بصددها الآن ، فلنتركه جانباً الآن ونتجاوزه .

هذه جماعة من الجنود تقترب على طول الطريق ، قادمة من الثكنات القريبة من ذلك المكان . كانوا يحثون الخطى في قلب الغبار الذي يثيرونه بأقدامهم ، وهم ينشدون الأغاني في الوقت ذاته . وهذه عربة اخرى تعبر الطريق ، ولكنها — على خلاف تلك — واردة من المدينة وساعية الى القرية المجاورة . وكان سائق العربة يبخبخ في نومه ، ولم يكن فيها اي كلب على الاطلاق ، فهي عديمة النفع اذن ، غير اهل لأي اهتمام ابداً . وكان يتبعها مسافران راجلان ، احدهما عملاق ضخم الجثة ، اما الآخر فأحدب مقوّس الظهر . كانا يسيران حافيين ، لأنهما كانا يحملان احذيتهما على ظهرهما ، عندما صاقبا العربة ألقيا تحية طيبة مرحة على السائق المستغرق في النوم ، ثم تابعا طريقهما في هدوء وسكينة . بلى ، لم يكن هذا إلا معبر تجارة بسيطة متواضعة ، تلاحق اهدافها دون حوادث مؤسفة ، أومشاكل معقدة ، أو عواقب سيئة وخيمة .

اما الممر الذي يُفضي الى المقبرة فكان يعبره شخص وحيد ، ينقل خطاه

ببطء عظيم ، محني الظهر ، معتمداً على عصا سوداء ضخمة . وكان هذا الرجل يدعى بيبسام ، شُكر الله بيبسام على وجه التحقيق ، وليس اي اسم آخر مطلقاً . واني اذكر هذا كله ههنا عن قصد ، بسبب سلوك هـذا الرجل اللاحق الغريب جداً .

كان يرتدي ثياباً سوداً ، لأنه في سبيله الى زيارة قبور أحبائه . وكان يغطي رأسه بقبعة عالية من الفرو ، ذات حفـاف عريضة للغاية ، ويلبس فراكاً جرُبَ لونه لكثرة ما أكل الدهر عليه وشرب ، وسراويل ضيقة كثيراً وقصيرة جداً في وقت واحد ، وقفازين اسودين من جلد الماعز ، قد غاض منها كل بريقها وزونقها . وكان عنقـه ، هذا العنق الطويل المتغضن الذي برزت تفاحة آدم فيه ضخمة عملاقة ، ينهض من ياقة مهترئة مقلوبة .. بلى ، ان هذه اليـافة المقلوبة قد تهدلت زواياها وتآكلت منذ زمن طويل . وكان هذا الرجل يرفع نظره من حـين لآخر ليرى كم تبعد المقبرة عنه بعد ، فاذا ما فعل ذلك استطعت أن تخطف نظرة سريعة إلى وجه غريب ، وجه لا ريب أنك لن تنساه بسرعة قط اذا ما رأيته مرة واحدة .

كان حليق الوجه شاحب اللون ، ولكن أنفاً ضخماً كثير البروز كان يندفع مزهواً بين الوجنتين الغائرتين الصفراوين . وكان هـذا الأنف يشع بحمرة غير متناهية وغير مألوفة ، ويزدحم بحشد عظيم من البثور الصغيرة ، والدمامل الكريهة الـتي تضفي عليه مظهراً غريباً ، وترهقه بوعورة فائقة التشويه . وكان لمعان الأنف الشديد يتناقض كثيراً مع شحوب الوجه ، فيخيل إلى الناظر إليه أنه أنف مصطنع غير حقيقي ، فكأن صاحبه قد لصقه هناك في وسط محياه كما يفعل الناس في الأعياد الاحتفالية التنكرية ، وارتداه هكذا على اعتباره نكتة مأتمية كئيبة . وكان فمه واسعاً ، متهدل الزاويتين ،

مما دفعه إلى إطباق فكيه بعنف وشدة . وكان حاجباه أسودين فاحمين، ملطخين بشعرات بيض قليلة العـــدد ، يرفعهما كلما رفع ابصاره عن الأرض ليتطلع امامه ، حتى يختفيا تحت حافة قبعته ، بحيث تستطيع ان ترى بوضوح تام إلى عينيه اللتين ألهبهما المرض ووخط حواشيهما بالحمرة القانية ... وبكلمة مختصرة ، فقد كان ذلك وجهاً يدعو كل شيء فيه إلى الرثاء ، مثـــيراً الشفقة في الناظر إليه .

ولم يكن مظهر شكر الله بيسام باعثاً على الانتعـــاش أو الابتهاج مطلقاً ، بل لم يكن يتلائم أبداً مع تلك العشية الرائعة الجميلة . كان يبدو كثير اليأس والانحطاط ، حتى بالنسبة إلى رجل يزور قبور احبائه المتوفين. ولكنك لو استطعت النظر إلى باطنه فقط ؛ لوجدت أن إنسانه الداخلي يبرّر في الواقع كل التبرير حالته الخـارجية ... بلى ، لقد كان يائساً بعض اليأس ، شقياً بعض الشقاء ، أسيئت معاملته بعض الشيء ... انه ليصعب عليكم ، أنتم الناس السعداء ، أن تنفـذوا إلى نفسه وتفهموا مشـاعره . والحقيقة هي أن الأمور لم تك سيئة قليلاً بالنسبة إليه فحسب ، بل كانت سيئة حـتى درجة بعيدة قصوى .

إنه يسكر في المحل الأول ، ولكننا سنعود إلى هذه القصة فيما بعـد . ولقد كان أرملاً ، مهملاً ومهجوراً من سائر الناس ، وليس من نفس على وجه هذه الأرض تحبه أو تحدب عليه . ولقد أخذت منه زوجته ، واسم عائلتها ليزلت ، قبل ستة شهور عندما وضعت له طفلاً ذكراً . كان الطفل الثالث ، ولقد ولد ميتاً ، وكذلك توفي الاثنان الآخران ؛ احدهما بالديفتريا ، والآخر من لاشيء على وجه التعيين ، اللهم إلا من الحرمان العام ... لكأن كل هذا لم يكن كافياً ، بل كان لا بدّ له من ان يفقد عمله أيضاً ، فحرم بذلك ،

في عار واستيحاء عظيمين ، من مركزه وخبزه اليومي معاً . وذلك كله نتيجة عيبه بالطبع ، هذا العيب الذي كان دوماً أقوى من بيبسام نفسه .

ولقد وجد القدرة ، ذات مرة ، على مقاومته حتى درجة ما ، وان كان يستسلم إليه خاضعاً لسلطانه من حين لآخر . ولكن عندما انتزع منه امرأته وطفله ، وعندما فقد العمل والمركز على حدّ سواء ، ولم يعد لديه ما يعتمد عليه ويستند إليه ، وعندما وقف وحيداً في هذا العالم دون عضد او معين ، عندئذ أخذ ضعفه يتغلب عليه شيئاً فشيئاً . لقد كان كاتباً في جمعية للاحسان ، وكانت وظيفته في هذه الجمعية ان ينسخ ما لا يحصى من الأوراق مقابل مرتب لا يزيد عن تسعين ماركاً في الشهر . ولكنه كان سكيراً مزمناً ، ومهملاً لواجباته ، ولذلك طرد من عمله بعد عدد كبير من الانذارات والاخطارات التي لم تنفعه شيئاً ، ولم تستطع لردّه عن غيّه سبيلاً .

ومن المؤكد أن كل هذا لم يُصلح ذرة من حال بيبسام الاخلاقية والمعنوية ، بل إنه راح يستسلم أكثر فأكثر لسقوطه وانهياره دون أدنى مقاومة على الاطلاق . وفي الحقيقة إن البؤس والتعاسة يدمران كرامتنا الانسانية واحترامنا لذاتنا تدميراً تاماً ـ ولا بأس علينا ههنا من تفهم هذه الأمور تفهماً بسيطاً ، لأن فيها كثيراً من الغرابة حقاً ، هذا إذا لم نرد أن نقول من الاثارة والرهبة . إن الانسان لا يستفيد شيئاً قط إذا ما ثار على الاحتجاج مدعياً براءته من كل ذنب وجرم ، لأنه إنما يحتقر نفسه ويزدريها في أكثر الأحايين بسبب شقائه بالذات . وإن ازدراء الذات والسلوك السيء لقائمان في أكثر العلاقات المتبادلة هولاً ، يغذيان بعضهما بعضاً ، ويلعبان بين يدي بعضهما البعض في أسلوب تبعث مشاهدته على النفور والاشمئزاز . وهكذا كانت الحال مع بيبسام . لقد كان يسكر لأن كل احترام ذاتي قد

انعدم لديه ، وكان فاقداً لكل احترام ذاتي لأن انهيار نواياه الحسنة المستمر كان يبتلع ذلك الاحترام ابتلاعاً . وكان يحتفظ في دولاب ثيابه في الدار بزجاجة تحتوي على سائل سام ملوّن سأمتنع هنا عن تسميته . ولقد سقط شكر الله مرة جاثياً على ركبتيه أمام هذا الدولاب بالذات ، وفي صراعه مع نفسه عضّ بأسنانه على لسانه حتى أدماه ... وبالرغم من كل ذلك فقد ألقى سلاحه في النهاية . اني لا أحب أن أذكر مثل هذه الأشياء ، ولكنها ذات فائدة خلاصية على كل حال ، ويمكن أن يستخرج الانسان منها عبراً عديدة .

وهذا هو الآن يسلك طريقه إلى المقبرة ، وهو يضرب الأرض أمامه بعصاه السوداء كلما تقدم نحو هدفه ... وكان النسيم العليل يتلاعب حول أنفه أيضاً ، ولكنه لم يشعر به ابداً . كان يحدّ البصر إلى الأمام منه باستقامة ، هو الكائن الانساني الضائع الذي يغمره شقاء عظيم ، وتعاسة لا حدود لها ؛ ويرفع حاجبيه عالياً أثنـاء ذلك دون أن يرى شيئاً ... وعلى حين غرة ، سمع ضوضاء إلى الوراء منه ، فأصاخ بسمعه ... إنه صدى خفيف لطيف يأتي من المدى البعيد سريعاً لا يلوي على شيء ، فاستدار وقد توقف عن المسير ... هذه دراجة تقـترب بأقصى سرعة ممكنة ، ودولاباها الهوائيان يسحقان الرمال الدقيقة تحت وطأتها سحقاً ، ثم تخفض من سرعتها ، لأن بيبسام يقف مباشرة في قارعة الطريق يعترض سبيلها ...

كان شـاب في مقتبل العمر يمتطي السرج ، فتىً في ريعـان الصبا يسوق دراجته في ابتهاج عظيم ولا مبالاة كثيرة . مما لا ريب فيه أنه لا يدعي الانتساب إلى عظماء هذه الأرض وأسيادها المتفوقين في القوة ... آه ، كلا يا إلهي ، ليس شيء من هذا على الاطلاق . كان يركب دراجة رخيصة ، متواضعة للغاية لم تعرف ، دون ادنى شك ، معنى العناية مطلقاً . ربما كانت

تساوي ، على أكثر تقدير ، مائتين من المارکات . إنه يركبها وينطلق بها في هذا العالم ، قادماً من المدينة وأشعة الشمس تنعكس بلمعان عظيم على دوّاستيها ، وهي تحمله في سبل الله العريضة الواسعة .. مرحى ، ألف مرة مرحى ! وكان يرتدي سراويل ملونة ، وسترة رمادية ، وأقمطة حول ساقيه ، وأكثر قبعات هذه الدنيا وقاحة وصفاقة ، قبعة كرنفالية لا مراء فيها ، ذات نقوش غبراء ، وزر يعلو قمتها في مباهاة وفخار . ومن تحت تلك القبعة كانت حزمة ثخينة من الشعر الأشقر تتدلى على جبينه ، أما عيناه فكانتا زرقاوين لامعتين مضيئتين . ها هو ذا آتٍ ، مثل الحياة ذاتها ، يدق جرسه ، ولكن بيبسام لم يتزحزح عن طريقه قيد أنملة ، بل وقف هناك لا حراك به ، ينظر الى الحياة في جمود وغباء ...

ورمته الحياة بنظرة غضبى وتجاوزته ... وعندئذ ابتدأ بيبسام بدوره يسير قدماً . وعندما صاقبته الحياة قال ببطء ، وهو يشدّ على المقاطع في نقمة وهياج :

ـ الرقم تسعة آلاف وسبع مائة وسبعة ...

وأطبق شفتيه باحكام وعنف ، وتطلع الى الأرض دون أن يجفل او يرتعش ، وهو يحسّ عين الحياة الغاضبة مثبتة فيه .

كانت الحياة قد استدارت ، وامسكت بالسرج من خلفها بيد واحدة ، وهي تتابع المسير بتمهل ...

سألت الحياة :

ـ ماذا قلت ؟

فردّد بيبسام مرة أخرى:

– الرقم تسعة آلاف وسبع مائة وسبعة ... أوه ، لا شيء أبداً ، إني سأبلّغ عنك فقط .

فسألت الحياة ، وقد استدارت اكثر من ذي قبل ، وتمهلت في ركوبها اكثر من ذي قبل أيضاً ، بحيث اضطرت الى بذل شيء من الجهد كي تحتفظ بتوازنها :

– سوف تبلغ عني ؟

فأجاب بيبسام بعد خمس أو ست خطوات :

– بكل تأكيد .

فسألت الحياة ، وهي تكفّ عن الركوب :

– ولمه ؟

ووقفت هناك في وضع تحفز وانتظار ...

قال بيبسام :

– أنت تعرف ذلك جيداً .

– كلا ، أنا لا أعرف .

– يجب أن تعرف !

فقالت الحياة :

– كلا ، أنا لا أعرف . وبالاضافة ، أصدقك القول ان ذلك لا يهمني في كثير او قليل .

واستدارت الى دراجتها تريد اعتلاءها من جديد .. ان في جوف الحياة لساناً يعرف النطق بكل تأكيد !

قال بيبسام :

– سوف ابلغ عنك لأنك تركب ههنا ، في هذا الممر الى المقبرة ، بدلاً من الركوب على الطريق الرئيسية هناك .

فقالت الحياة ، وهي تستدير إلى مخاطبها مرة أخرى ، وترسل ضحكة قصيرة تدلّ على نفاد صبرها :

— ولكن ياسيدي العزيز ، انظر إلى علامات الدراجات على طول هذا الدرب . إن الجميع يستعملون هذا الممر .

فأجاب بيبسام :

— سواء بالنسبة إليّ ، فسوف أبلغ عنك على أية حال .

فقالت الحياة ، وهي تركب دراجتها :

— كما تشاء ...

وفي الواقع اعتلت إحدى الدوّاستين ، وبدفعة واحدة من قدمها استقرت في مكانها على السرج ، ثم انحنت وهي تجتهد في الانطلاق بالسرعة التي يتطلبها طبعها ومزاجها .

وعاد بيبسام يقول ، وقد علا صوته وارتعش :

— حسناً ، إذا ما ظلت تسير في هذا الممر المخصّص للراجلين ، فلسوف ابلغ عنك بكل تأكيد .

ولكن الحياة لم تعره أدنى اهتمام أو انتباه ، بل تابعت طريقها لا تلوي على شيء ، وهي تجمّع السرعة وتكدّسها اكثر فأكثر .

ولو أن امرءاً شاهد وجه شكر الله بيبسام في تلك اللحظة ، لارتدّ مشدوهاً من شدة الصدمة التي سيلقاها إذن ... لقد أطبق شفتيه بعنف شديد حتى تشوهت وجنتاه ، وتبدلت حدود أنفه الأحمر وتغير شكله أيضاً ، وارتفع حاجباه على قدر ما يستطيعان الارتفاع ، بينما راحت نظراته تلاحق الدراجة المنطلقة وفيها دلائل الجنون والخبل . وفجأة ، انطلق إلى الأمام بعزم ، وطوى ركضاً المسافة التي تفصل بينه وبين الحياة ، وأمسك بالحقيبة

الجلدية الصغيرة المعلقة خلف السرج بكلتا يديه كي يمنع الدراجة عن متابعة الحركة .. أطبق عليها يشدُّ بها الى الخلف بكل قواه ، هي التي تأبى الجمود بل تتابع الدوران ، وقد انسحبت شفتاه حتى فقدتا كل سيماء انسانية ، واتسعت عيناه بصورة وحشية ، وأخرس الغضب لسانه فهو لا ينطق ببنت شفة على الاطلاق . وكان يصعب على المرء للوهلة الأولى ان يعرف على وجه التأكيد ما اذا كان بيبسام يسعى في خبث ، وعن سابق إصرار وعمد ، لايقاف الدراجة ؛ ام انه يريد فقط ، وقد داهمته هذه الفكرة على حين غرة ، ان يركب وراء الحياة وينطلق في سبل الله العريضة الواسعة بدواستين تبرقان تحت شعاع الشمس اللامع . ألا مرحى ، الف الف مرحى ؛ ولكن الدراجة ، اية دراجة ، لم تستطع احتمال الثقل الواقع عليها ، فتوقفت ، ومالت على احد الجانبين ، ثم تهاوت .

ولكن الحياة ، الآن ، قد تملكها الغضب والهياج . اضطرت الى الوقوف ورجلها الواحـــدة تعتمد على الأرض ، ومدت الى الأمام ذراعها اليمنى ، ووجهت الى الهر بيبسام دفعة شديدة في صدره أجبرته على التقهقر الى الخلف عدة خطوات وهو يترنح فاقداً توازنه ، ثم قالت وصوتهـا يرتفع شيئاً فشيئاً كي يصبح وعيداً بيّناً لا ريب فيه :

- انك ثمل من دون شك ياصاح ، ولكن اذا تابعت محاولتك لايقافي ايها الفتى الظريف ، فلسوف أحطمك إرباً إرباً بكل بساطة ... هل تفهم ؟ لسوف أسحق سائر اعضائك وأفصلها عن بعضها البعض ، فتفضّل بتقبّل ما أقوله في ذهنك .

ثم ادارت الحياة ظهرها للهر بيبسام ، ودفعت بقبعتها فوق جبينهـا في

ثورة ، ومن جديد صعدت على الدراجة . بلى ، لمن المؤكد ان للحياة لساناً في جوفها يجيد النطق والكلام ! ولقد اعتلت الدراجة بخفة وإتقان مثلها في المرة الأولى ، أي دفعة واحدة ، واستقرت على السرج ، وملكت قياد الآلة الجامدة مباشرة . واستطاع بيسام ان يرى الى ظهرها وهو يبتعد بسرعة تتزايد باستمرار ...

وقف هناك لاهثاً منقطع الانفاس ، يشحذ البصر وراء الحياة المبتعدة . ولكن الحياة لم تسقط عن دراجتها . ولم تنزل بها أية كارثة ، ولم ينفجر اي من دولابيها ، ولا قام في طريقها حجر يعترض سبيلها . كانت تبتعد على دولابيها المطاطيين غير آبهة لأي شيء على الاطلاق . عندئذ شرع بيسام يصيح ويزعق ، ولم يعد صوته بعد الآن كئيباً ، بل كنت تستطيع بكل سهولة ان تسميه زمجرة وحشية .

هتف :

– لايحق لك ان تتابع المسير ، عليك ان تركب على الطريق الرئيسية هنالك ، وليس ههنا على الدرب الى المقبرة ... هل تسمع ؟ اخرج ، اخرج توّاً ! لسوف ابلغ عنك ، لسوف ارفع دعوى عليك . آه يارب ، آه يالهي ! هلا وقعت ! لو انك تقع فقط ، انت ايها الحشرة الحقيرة ! لسوف ادوسك ، لسوف ادوس وجهك بحذائي ، ايها الوغد اللئيم ، أيها ...

ابداً لم تقع عين على مثل هذا المشهد ، مشهد رجل يهذي ويجن على قارعة الدرب إلى المقبرة ، رجل انتفخ وجهه لكثرة الزمجرة ، رجل يرقص غضباً وثورة ، ويقفز في خبل ، ويلوّح بذراعيه في كل اتجاه ، وقد فقد زمام نفسه تماماً . وكانت الدراجة اثناء ذلك قد اختفت عن الانظار ، ولكن بيسام ما برح واقفاً حيث كان يزعق ويسبّ ويشتم .

– أوقفوه ، أوقفوه ! أيحق له ان يركب على الدرب إلى المقبرة ؟ ايها السفيه ، ايها الجرو المشين ، أيها الحمار اللعين ! لأود ان اسلخ جلدك عن لحمك وأنت حي ، أنت يا ذا العينين الزرقاوين ، أيها الكلب الأخرق ، أيها الحشرة الحقيرة ، أيها الأبله المعتوه ، أيها العبيط الجاهل ! هيا واخرج ، اخرج هذه اللحظة بالذات ! أفليس هناك من يرمي به في الأقذار ؟ إذن فأنت تركب ، ما ؟ على الدرب إلى المقبرة ! اطرحوه أرضاً ، هذا الجرو اللعين !... أواه ، لو أمسك بك فقط ! ما الذي كنت لأفعله إذن ؟ الا فليقلع الشيطان عينيك من محجريهما ، أيها الجاهل ، أيها الجاهل ، أيها الأبله الجاهل !

وانتقل بيبسام من هذه الأقوال إلى استعمال ألفاظ لا يمكن الاتيان على ذكرها ههنا ، إذ راح يتفوه ، والزبد يعلو فاه ، بأكثر الشتائم بذاءة ، بينما راح صوته يتكسر في حلقه ، وهو يتلوى على نفسه بصورة تزداد غرابة وبعداً عن الخيال . واقترب منه بعض الأولاد الصغار ، قادمين من الطريق الرئيسية ، وهم يحملون كلباً صغيراً وسلة كبيرة ، وتسلقوا الأخدود المحفور على جانب الدرب ، وأحاطوا بالرجل المتفجر صياحاً وزعيقاً من كل جانب ، وراحوا يسترقون النظر إلى وجهه الملتوي . ورأى بعض الفلاحين العاملين في المنازل الجديدة ، وهم على أهبة الاستعداد للاستمتاع بفرصة الظهيرة ، أن شيئاً ما غير طبيعي يجري هناك ، فانضموا إلى الجماعة المتحلقة ... كانوا خليطاً من الرجال والنساء معاً ، ولكن بيبسام استمر في صياحه ، لا بل ان حميته قد نمت وتضاعفت وازدادت سوءاً على سوء . كان يهز قبضته ، وقد أعماه الغضب ، في اتجاه زوايا السماء الأربع ، ويدوم حول نفسه دون انقطاع ، وهو يثب عن الأرض آناً او يطوي ركبتيه آناً آخر ، ليعود فيقفز من جديد بأقصى ما يستطيع من القوة مرسلاً زعيقه أشد ارتفاعاً مما سبق ، بقدر

ما تسمح له الجهود التي يبذلها في سبيل ذلك . ولم يسترح قطلا لتقاط أنفاسه ، بحيث كان المصدر الذي تنطلق منه سائر كلماته المتلاحقة هذه مثاراً للعجب والدهشة . كان وجهه حالياً منتفخاً بصورة مخيفة ، وقبعته المرتفعة ترتاح على مؤخرة عنقه ، وقميصه يتدلى من فوق حزام سراويله . ولقد انتقل الآن من الخاص الى العام ، فشرع يبدي ملاحظات ليست على شيء من العلاقة بالوضع الراهن ، فهو يتحدث عن اسلوبه الرديء في الحياة ، وينطق بتوريات دينية كانت اصداؤها تتردد غريبة في مثل ذلك الصوت ، وهي تمتزج بما لا يحصى من الشتائم البذيئة .

كان يجأر قائلاً :

— تعالوا ، تعالوا أنتم جميعاً ، ليس أنت وأنت وأنت فحسب ، بل جميعكم دون تفريق بأعينكم الزرق المضيئة ، وقبعاتكم الصغيرة ذات الأزرار . ولسوف أزعق بالحقيقة في آذانكم ، وهذه الحقيقة ستملؤكم رعباً أبدياً لا يزول . . . وهكذا فأنتم تكشرون وتتهجّمون ؟ وهكذا فأنتم تهزون أكتافكم ؟ أنا أسكر .. حسناً ، بلى ، بالطبع أنا أسكر ! لا بل إني لعربيد إن شئتم أن تعرفوا ذلك . ولكن ماذا يعني هذا ؟ هذا ليس باليوم الأخير بعد ، ولكن اليوم سيأتي ، يا أيتها الهوام العديمة النفع ، الذي يزننا الله فيه بميزانه جميعاً ... اواه ، إن ابن الانسان سيأتي على السحب ، أيها الدنسون ، وعدالته ليست من هذا العالم ! ولسوف يقذف بكم في الظلمات الخارجية ، أنتم جميعاً أيتها الذرية البلهاء ، وهناك سوف يكون البكاء و . . .

كان حشد كبير يحيط به الآن ، والناس يسخرون منه ، وقليلون منهم يعبسون ويقطبون وجوههم . وجاء عدد آخر من حملة الحجارة والفلاحين ، رجالاً ونساء ، قادمين من الأبنية التي لم يكتمل بناؤها بعد . وهبط سائق

من عربته ، وقفز فوق الأخدود وهو يلوّح بسوطه في يده ، وأمسك أحد الرجال بيبسام من ذراعيه يهزه ، ولكن شيئاً لم ينتج عن ذلك كله . واقترب من الحشد جماعة من الجنود وتجاوزوه ، وهم يستديرون لينظروا الى القوم المزدحمين ويضحكون منهم . ولم يستطع الكلب تمالك نفسه اكثر مما فعل ، فرفع طرفيه الأماميين وراح يعوي في وجه بيبسام وذنبه يهتز بين قائمتيه الخلفيتين .

وعندئذ صرخ شكر الله بيبسام مرة اخرى بكل قواه :

– اخرج ، اخرج ، حالاً ايها الأحمق الجاهل !

ورسم بذراعه الواحدة نصف دائرة كبيرة .. ومن ثم تهاوى على الأرض. ورقد فوق التراب ، وقد استكان صوته بغتة ، اشبه بكومة سوداء محاطة بحشد فضولي طلعة . وأفلتت من رأسه قبعته العريضة الحفاف ، ودارت فوق الأرض دورة قصيرة ، ثم استقرت غير بعيد عن صاحبها .

وانحنى عاملان فوق بيبسام الذي فارقته كل حركة ، وتبادلا الرأي في أمره بتلك اللهجة البسيطة العاقلة التي يتصف بها الشعب العامل . ومن ثم نهض احدهما على قدميه ، وابتعد راكضاً ، اما الآخر فراح يجري لطريح الأرض الفاقد الوعي بعض الاسعافات ، إذ رماه بقليل من الماء من إناء يحمله ، وصبّ قليلاً من البراندي في راحة يده وراح يفرك صدغيه به ، ولكن النجاح لم يتوّج أياً من أفعاله .

وانقضت برهة وجيزة من الزمن ، ثم علا صوت عربة قادمة على طول الطريق . كانت عربة اسعاف يزين صليب أحمر كبير كلا جانبيها ، ويجرها جوادان صغيران فاتنان . وهبط من العربة رجلان في ثياب أنيقة ، ذهب أحدهما إلى مؤخرتها ، وفتح الباب ، وجر من خلاله نقالة متينة الصنع ؛ اما

الآخر فأسرع إلى الممر الضيق ، ودفع الفضوليين المحتشدين حول الرجل الطريح ، وحمل بمساعدة احدهم الهر بيبسام من الدرب حتى الطريق الرئيسية ، حيث مدداه على النقالة ، ودفعا به إلى العربة مثلما يدفع رغيف من الخبز إلى جوف الفرن . وارتج الباب ، ومن ثم تسلق الرجلان العربة من جديد .

جرى كل ذلك بكفاءة عظيمة ، وبقليل فقط من الحركات المجربة ، فكأنه مشهد من مسرحية في قيد التمثيل . ومن ثم سيق شكر الله بيبسام بعيداً ...

[illegible]

وعندئذ صرخ شكر الله بيسام مرة اخرى بكل قواه :

– اخرج ، اخرج ، حالاً ايها الأحمق الجاهل !

ورسم بذراعه الواحدة نصف دائرة كبيرة .. ومن ثم تهاوى على الأرض ، ورقد فوق التراب ، وقد استكان صوته بغتة ، اشبه بكومة سوداء محاطة بحشد فضولي حولها ، وانفلتت من رأسه قبعته العريضة الحافات ، ودارت فوق الأرض دورة قصيرة ، ثم استقرت غير بعيد عن صاحبها .

وانحنى عاملان فوق بيسام الذي ارتفعت كل حركة ، وتبادلا الرأي في أمره بتلك اللهجة البسيطة العاقلة التي [illegible] الشعب العامل . ومن ثم نهض احدهما على قدميه ، وابتعد راكضاً ، اما الآخر فراح يجري الطريح للأرض الفاقد الوعي بعض الاسعافات ، إذ رماه بقليل من الماء من إناء يحمله ، وصب قليلاً من البراندي في راحة يده وراح يفرك صدغيه به ، ولكن النجاح لم يتوّج ايا من أفعاله .

وانقضت برهة وجيزة من الزمن ، ثم علا صوت عربة قادمة على طول الطريق . كانت عربة اسعاف يزينها صليب أحمر كبير كلا جانبيها ، ويجرها جوادان صغيران قاتمان . وهبط من العربة رجلان في ثياب أنيقة ، فذهب أحدهما إلى مؤخرتها ، ورفع الباب ، وجرّ من خلاله نقالة نظيفة الصنع ؛ اما

لاعب الشطرنج

ستيفان زفايج

أو

بعنوان: الشيق والطاغي.

ستيفان زفايج

١٨٨١ — ١٩٤٢

كان يرى ان « الأدب ليس هو الحياة » ، بل لا يعدو كونه «وسيلة للسمو بها ، وسيلة لإدراك مأساتها بصورة أكثر وضوحاً وتفهماً » ، ولذا فقد كان يطمح إلى السفر ، كي « يعطي وجوده السعة ، والكمال ، والقوة ، والمعرفة ، ويربطه في الوقت ذاته بجوهر الأشياء وأعماقها » . وهكذا فقد تنقل في شتى الأقطار ، الأوربية ، والأميركية ، والأسيوية ، وتعرف الى مختلف الرجال وسائر المدنيات ، مستمداً من معينها دوماً ما يضيف على كتاباته العمق والقوة اللذين جعلا منه ، على حد تعبير الكاتب الفرنسي جول رومانس الذي كان صديقاً حميماً له ، « أحد المفكرين السبعة الأكثر عمقاً في اوروبا بأسرها » . وكان إنتاجه غزيراً جداً ، فقد ترجم إلى اللغة الألمانية مؤلفات فرهارن الكاملة ، وما لايحصى من أشعار فرلين ، وبودلير ، ورامبو ، وسوياريس ، ساعياً من وراء ذلك إلى تمتين أواصر المعرفة الفكرية بين مختلف الأوطان الأوربية التي كان يرى فيها جميعاً موطنه الفكري الوحيد ، وكتب عدداً كبيراً من القصص ، والقصة الألمانية تساوي دوماً رواية كاملة ، وكثيراً من الدراسات عن أدباء أو شعراء ، (بلزاك ، تولستوي ، دستويفسكي ، نيتشه ، رومان رولان ، فرهارن ...) والتاريخية (فوشيه ، ماري انطوانيت ، ماري استيوارت ، ماجلان ...) ، تعتبر جميعاً من أفضل ما كتب عن هذه الشخصيات جميعاً التي وجدت فيه مترجماً جديراً بها كل الجدارة.

ولقد كان يأسه شديداً للغاية ، عندما رأى اوروبا تمزق أوصالها بيديها ، وشعوبها تتناحر « كالثيران الهائجة فوق الهوة التي ستتردى جميعاً فيها » كي نستعير تعبير رومان رولان ، بحيث فضل أن يضع حداً لحياته ، ولقد فعل ذلك في ٢٢ شباط عام ١٩٤٢ ، في البرازيل حيث التجأ ، وكان له من العمر إحدى وستون سنة .

كان هرج ساعة الرحيل يسيطر على المركب الكبير الذي يغادر، في منتصف الليل، مدينة نيويورك ميمماً شطر بونس أيرس، فالسفر يصعدون الى سطحه يرافقهم جمهور كبير من الأصدقاء القادمين لوداعهم، وسعاة البرق يهتفون في أبواب الصالونات بأسماء متفرقة وقد مالت قبعاتهم على جانب واحد من رؤوسهم، والحمالون والخدم يحثون الخطى بحقائب السفر وباقات الورود والأزاهير، وعدد غفير من الأطفال الفضوليين يتراكضون على سطح المركب، ذهاباً وإياباً ولا يتعبون، بينما الاوركسترا تعزف الألحان دون انقطاع، وترسل أصداءها كي تضيع في الجلبة العامة.

وكنت أجاذب صديقاً لي أطراف الحديث، في عزلة تامة عن هذه الحركة المعاَّنة التي لا تكل ولا تفتر، عندما تألقت بغتة ومضتان أو ثلاث ومضات من النور قريباً جداً منا ... إنها شخصية هامة من دون أدنى ريب، يصورها الصحفيون على عجل قبل أن تدق ساعة الرحيل. وتطلع صاحبي شطر الأضواء التي التمعت، فاذا الابتسام يعلو شفتيه، وإذا هو يقول:

– إن عصفوراً نادراً يرافقكم في هذه الرحلة .. جنتوفيك.

ولما طالعته دلائل عدم الفهم في سيمائي، أسرع يضيف موضحاً:

– إنه ميركو جنتوفيك، بطل العالم في لعبة الشطرنج. لقد اجتاز الولايات المتحدة من شرقها حتى غربها، وخرج ظافراً من سائر الأشواط التي اشترك

فيها . وهذا هو الآن في طريقه إلى الأرجنتين يقتطف أكاليل جديدة .

وعندئذ فقط تذكرت ذلك البطل الشاب ، وتذكرت كذلك بعض تفاصيل حياته الغريبة . ولكن صديقي كمَّل – وهو الذي يقرأ الصحف أكثر مني – ذكرياني هذه بعدد كبير من النوادر التي رواها لي .

لقد اصبح جنتوفنك ، قبل عام واحد فقط ، وبصورة مفاجئة لم تكن في الحسبان ، نداً لأشهر أسياد رقعة الشطرنج ، ولم يعد لألجيشين ، وكابابلانكا ، وتارتاكومير ، ولاسكر ، وبوغولجوبوف ما يعلمونه إياه . إن العالم لم يعرف ، منذ تفوق الطفل الصغير المعجزة ، رجيسيوسكي ، البالغ من العمر سبع سنوات ، في جولة نيويورك عام ١٩٢٢ ، شخصاً غامضاً يلفت انتباه البشر أجمعين ، بمثل هذا البريق ، إلى أخوية لاعبي الشطرنج الشهيرة . ذلك إن إمكانيات جنتوفيك الفكرية لم تكن تسمح في حال من الأحوال بالتنبؤ له بمستقبل متألق على الاطلاق . وقد كانت الاشاعات تروج في كل مكان ، مدعية أنّ هذا البطل أعجز من أن يكتب جملة واحدة ، حتى في لغته الأم ، دون أن يرتكب أخطاء فادحة في الاملاء ، وان « عدم ثقافته عمومية شاملة » بكل تأكيد ، حسب تعبير أحد زملائه الساخطين .

كان جنتوفيك ابن فلاح سلافي بائس يعمل على نهر الدانوب ، غرق قاربه ذات ليلة داجية عندما اصطدم به مركب بخاري محمل بالقمح . وكان في الثانية عشرة من العمر عندما وافت المنية أباه ، فأخذه كاهن القرية إلى بيته ، وراح يجهد ، بدافع من طيبة قلبه الفائقة ، وبكل إخلاص وتفانٍ ، أن يحمل ذلك الصبي البليد ، الصموت أبداً ، على تكرار الأمثولات التي لم يستطع أبداً أن يتعلمها في المدرسة .

ولكن محاولاته ذهبت جميعاً أدراج الرياح ... إن ميركو يحني جبينه فوق أحرف الكتابة التي أوضحت له رموزها حتى الآن مائة مرة أو يزيد ، ويروح يصرو إليها بعين فارغة جامدة ، يعجز دماغه عن الاحتفاظ حتى بأبسط المفاهيم وأكثرها سهولة ويسراً . وحين بلغ الرابعة عشرة لم يكن يستطيع بعد أن يعدّ إلا إذا استعان بأصابعه ، فإذا طُلب منه أن يقرأ صحيفة أو كتاباً لم يقدر على ذلك إلا بعد أن يتكبد أعظم الجهود وأكثرها إرهاقاً . ولم يكن أحد يستطيع ، على أية حال ، ان يتهمه بتعمد ذلك عن سابق عزم وإصرار ، فهو ينفذ في خضوع واستسلام تامين كل ما يؤمر به ، فيستقي الماء ، ويكسر الحطب ، ويحرث الحقل ، وينظف المطبخ دون أن يتذمر قط أو يشكو ؛ وباختصار ، فقد كان ينجز كل الخدمات التي تطلب منه بأمانة وإخلاص ، ولكن ببطء ، يحمل في الحقيقة على شيء كثير من اليأس والألم .

ولكن شيئاً كان يحزُّ في نفس الاكليريكي الصالح أكثر من كل شيء آخر ، ألا وهو اللامبالاة المطلقة التي يبديها ذلك اليتيم الغريب نحو مختلف الأمور على حد سواء ، فهو لا يبادر إلى أي عمل من تلقاء نفسه ، ولا يطرح الأسئلة مطلقاً . ولا يلاعب أقرانه ويتسلى وإياهم ، بل لا يكاد ينتهي من العمل الذي أسند اليه حتى تجده معتصماً في إحدى زوايا الغرفة شارداً عن كل ما يحيط به ، سيماؤه أشبه ما تكون بسيماء تلك الخراف التي ترعى العشب في المساقات الشاسعة ، لا يلقي أدنى اهتمام إلى كل ما يجري حوله من أمور وأحـــداث . وكان الكاهن يشعل غليونه اذا ما هبط المساء ، ومن ثم يلعب مع الرقيب في سلاح الخيالة أشواط الشطرنج الثلاثة اليومية المعتادة ، فيقترب المراهق عندئذ ، بشعره الأشقر الكثيف المشعث ، من المائدة ، ويروح يرمق في صمت رقعة الشطرنج بعينين يخالهما المرء نائمتين تحت أجفانهما الثقيلة .

وفي ذات مساء ، في ملء الشتاء ، بينما اللاعبان غارقان في لعبهما ، إذا رنين أجراس عربة منطلقة في الشارع بأقصى سرعتها يطرق سمعهما ، ومن ثم يندفع فلاح إلى داخل المنزل تبدو عليه امارات العجلة والاضطراب ، ويروح يسأل الكاهن ، وقبعته مكسوة بالثلج المتساقط بغزارة خارج الأبواب ، أن يرافقه كي يناول الأسرار المقدسة لوالدته التي تلفظ أنفاسها الأخيرة . ولم يتوانَ الكاهن لحظة عن اللحاق به ، بينما أشعل الرقيب – الذي لم يكن قد افرغ بعد قدح الجعة الذي يعب منه – غليونه ، وأخذ باحتذاء جزمته الثقيلة استعداداً للرحيل ، حين لاحظ على حين غرة أن انظار ميركو لا تبرح معلقة في عناد بشوط الشطرنج الذي لم ينته .

قال مازحاً . لأنه كان واثقاً كل الثقة من أن ذلك الناعس الصغير لأعجز من أن يحرك بندقاً واحداً على رقعة الشطرنج بصورة صحيحة :

– ايه ! حسناً ! أتريد أن نكمل الشوط معاً ؟

فرفع الصبي رأسه في استحياء عظيم وأشار به أن نعم ، ومن ثم اتخذ مكان الكاهن . وهذا الرقيب مغلوب على أمره بعد أربع عشرة حركة فقط ، ومجبر على الاعتراف أيضاً بأنه لا يدين بهزيمته إلى إهمال من جانبه . ولم يكن حظه في الشوط الثاني بأسعد منه في ذلك الشوط الأول الناقص .

صاح الاكليريكي مذهولاً ، عندما عاد من الواجب الديني الذي استدعاه:

– ولكن ، هذا وربي حمار للغاية !

وراح يوضح للرقيب ، وهو أقل رسوخاً منه في أمور الكتب المقدسة ، كيف حدثت مثل هذه المعجزة قبل ألفين من السنوات قد خلت وانقضت ، حين لفظ مخلوق آخر أبكم ، بصورة مفاجئة ، كلمات ملأى بالحكمة والفهم.

ولم يستطع الأب الطيب ، بالرغم من تقدم الليل ، أن يقاوم الرغبة في منازلة الصغير الذي يعيش في حماه ، ولكن ميركو ألحق الهزيمة به في سهولة ويسر عظيمين . كان يلعب في بطء وعناد ، ثابت الجنان ، لا يرفع جبينه العريض مطلقاً عن رقعة الشطرنج التي ينحني عليها . لكن سلامة تكتيكه وثباته كانا أمرين لا يتطرق الشك إليهما البتة ، بحيث لم يستطع الرقيب ولا الكاهن ، طوال الأيام اللاحقة ، أن يربحا منه شوطاً واحداً أبداً. وتملك الراهب ، وهو الذي يعرف أكثر من أي إنسان آخر تأخر تلميذه في عدد كبير من الميادين الأخرى . فضول عظيم في أن يعرف إلى أية درجة تذهب هذه الموهبة الفريدة به ، فقاد ميركو الى حلاق القرية ، وقص تلك الكتلة من الشعر التبني اللون التي تكلل رأسه كي يجعله أكثر لياقة في أعين الناس . وانطلق به في الزحافة الى المدينة المجاورة الصغيرة حيث كان يعرف عدداً كبيراً من لاعبي الشطرنج المتحمسين ، الذين يتفوقون عليه في فنون

هذه اللعبة، والذين يحتلون دوماً إحدى الموائد في زاوية من مقهى الساحة العامة.

وعندما دخل، دافعاً الى الأمام منه هذا الصبي البالغ الخامسة عشرة، الشاحب الشعر، المضرّج الخدين، المكسوّ الكتفين بجلد خروف مقلوب، راح سائر المقيمين في المقهى يحملقون فيه بأعين كبيرة متسائلة. وظل الفتى مسمراً في مكانه، مطرق البصر في خجل شديد، حتى دُعي أخيراً الى إحدى الموائد. ولكنه خسر الشوط الأول، لأنه لم يرَ من قبل قط مربيه الطيب، ولا الرقيب في الخيالة خصمه، يمارسان ما يدعى بالافتتاح الصقلي. وفي الشوط الثاني خرج متعادلاً من مباراته مع أفضل لاعب في ذلك المقهى، بينما تغلب في الجولة الثانية على سائر اللاعبين، الواحد تلو الآخر، دون أن يستطيع أي منهم الصمود في وجهه.

وهكذا كانت مدينة يوغوسلافية صغيرة مسرح حدث خفقت له القلوب، وكان أهلوها شهوداً على انتصارات هذا البطل القروي الأولى. وقرّ عزم الجميع، بالاجماع، أن يبقوا هذا الفتى المعجزة حتى الغد، كي يستطيعوا إعلام بقية أعضاء النادي بوجوده، وبصورة خاصة الكونت العجوز سيمجيك، لاعب الشطرنج المهووس. ولم يكن الراهب، الذي راح يرى إلى تلميذه باعتزاز جديد، يستطيع أن يهمل واجباته الرعوية، ولكنه أعلن عن استعداده لابقاء ميركو في رعاية هؤلاء السادة، كي يمتحنوه بصورة أفضل، بحيث استقر جنتوفيك الصغير في فندق المدينة، على حساب اللاعبين، فشاهد في ذلك المساء، للمرة الأولى في حياته، غرفة قد ألحق بها حمام خاص...

وظل الصبي جالساً بعد ظهر يوم الأحد، في قاعة غاصة بالحضور، أمام رقعة الشطرنج طوال أربع ساعات قاهراً سائر خصومه على الاطلاق دون أن يتحرك من مكانه قط، أو يتفوّه طوال ذلك الوقت بكلمة

واحدة ، أو يرفع عينيه عن الرقعة مرة واحدة. واقترح أحد الحضور شوطاً مشتركاً ، فوافق اللاعبون ، ولكنهم لم يستطيعوا إلا بجهد عظيم أن يُفهموا ذلك الفلاح الفظ أنهم يريدون منه أن ينازل ، وحيداً ، عدة خصوم دفعة واحدة . ولكنه لم يكن يفهم مايعنون ، حتى انصاع لهم دون ابطاء ، وراح يتنقل ببطء من طاولة الى أخرى ، وحذاؤه يقرع الأرض قرعاً غليظاً ، وربح في الختام سبعة أشواط من أصل الأشواط الثمانية التي لعبها .

وعندئذ ابتدأت مشاورات طويلة ، إذ بالرغم من أن البطل الجديد لم يكن من مواطني المدينة بكل معنى الكلمة ، فان روح العصبية المحلية قد استيقظت في قلوب الحاضرين. من يدري اذا كانت هذه المحلة الصغيرة التي يكاد وجودها ألا يجد له مكاناً على الخارطة ، لن تحظى بالشهرة والمجد اذ تمنح العالم رجلاً شهيراً ؟ وتقدم مدير مسرح يدعى كيلر ، كان يتعهد بتزويد مقهى حامية المدينة بالأغاني والمغنيات ، وأخذ على عاتقه أن يقود هذا الفتى العجيب الى فيينا ، عند استاذ ملحوظ سوف يكمل تلقينه مبادىء هذا الفن ، حسب تعبيره . ولكن لم يكن بدّ في سبيل ذلك من أن يتبرّع بعض الناس بتكاليف إقامته سنة كاملة في العاصمة ، فأسرع الكونت سيمجيك ، الذي لم يلاق طوال ستين سنة من الممارسة اليومية مثل هذا الصبي العجيب خصماً باعثاً على الدهشة ، يوقع شيكاً في التوّ واللحظة . هكذا كانت ادائل الشهرة الغريبة التي حظي بها ابن الملاح هذا .

وتعلم ميركو خلال ستة شهور سائر أسرار تكنيك لعبة الشطرنج . كانت معارفه ، في الحقيقة ، محدودة جداً ، يلاحظ الناس ذلك ، فيضحكون منه في أغلب الأحيان في الحلقات التي اتصل بها فيما بعد . ذلك أن جنتوفيك لم يقدر قط أن يلعب شوطاً واحداً بصورة مجردة ، أو عمياء كما يقولون ، بل هو عاجز كل

العجز عن تصور رقعة الشطرنج في الفراغ ، يحتاج بالأحرى أبداً الى أن يشاهد البيوت الأربع والستين السود والبيض ، وقطع اللعب الاثنتين والثلاثين ، حية وملموسة أمام عينيه . وحتى عندما طبقت شهرته آفاق العالم بأسره ، فقد كان يحمل معه دوماً رقعة شطرنج في جيبه ، كي يستطيع أن يدرك بصورة أفضل مراكز البنادق اذا ما اراد ان يحل احدى المشاكل ، او يراجع الأشواط التي لعبها سيد سابق من سادة الشطرنج .

وكان هذا العيب ، الذي يمكن التغاضي عنه في حدّ ذاته ، يكشف فيه بصورة واضحة نقص الخيال الذي يعيبه ، فيكثرُ الناس الذين يحيطون به التعليق على هذه الناحية ، كما يفعلون بين الموسيقيين بعازف شهير او رئيس اوركسترا لا يستطيع ان يعزف أو يدير العزف ما لم تكن دفاتر الموسيقى مفتوحة أمام عينيه .

ولكن هذه الخاصة لم تعق أبداً تقدم ميركو المدهش ، فهو قد فاز بعشر من الجوائز ولما يتجاوز السابعة عشرة ، كما أصبح بطل هنغاريا في الثامنة عشرة ، وبطل العالم أجمع في العشرين . ولم يستطع أكثر اللاعبين اقداماً ، هؤلاء الذين كانوا يتفوقون على جنتوفيك ان بالذكاء ، أو بالخيال ، أو بالجرأة ، بمالا يقاس ، أن يقاوموا منطقه البارد الذي لايعرف معنى الشفقة أبداً . لقد وجدوا أنفسهم أمامه أشبه بنابليون تجاه كوتوزوف الثقيل ، أو هانيبال في وجه فابيوس كونكتاتور الذي يروي تيت ليف عنه ان امارات البلاهة كانت بادية عليه بكل وضوح في مطلع عمره .

كان معرض أساتذة الشطرنج يضم ، حتى ذلك الحين ، أكثر نماذج الذكاء تنوعاً ، من الفلاسفة حتى سادة الرياضيات ، وهم جميعاً يتحلّون بأدمغة تمتاز بقوة الخيال ، وبقوة الابداع في كثير من الأحايين . ولكن شخصاً غريباً

عن عالم الفكر قد اتخذ مكانه في ذلك المعرض منذ ذلك الحين ، في سيماء هذا الفلاح الفظ الصامت الذي لم يستطع احذق الصحفيين أن يسترقوا منه قط أية كلمة تنفعهم في كتابة مقالاتهم .

وصحيح انهم كانوا يعوضون عن ذلك جيداً برواية ما لا يحصى من النوادر عنه ، لأن جنتوفيك كان يصبح ، منذ اللحظة التي يغادر فيها رقعة الشطرنج حيث تنجلي سيطرته بصورة لا تقبل الجدال او الريبة ، امرءاً مضحكاً ، يكاد ان يكون هزأة بالرغم من ردائه الأسود الاحتفالي ، ومن ربطات عنقه التي تزينها ماسة ضخمة بصورة تدل على الثراء والأبهة . كان ما برح يحتفظ في الحقيقة ، بالرغم من يديه النظيفتين بأظافرهما المصقولة بعناية تامة ، بعادات الفلاح المحدود التفكير وسلوكه ، هذا الذي كان يكنس فيما مضى غرفة الراهب الذي اخذه في رعايته .

وكان لا يفكر ، في وقاحة خرقاء لا تعرف معنى الحياء او الخجل ، وقاحة كان زملاؤه يجدون فيها باعثاً على الضحك تارة ، وحاملاً على الفضيحة تارة اخرى ، الا في كسب اقصى ما يمكن من موهبته وشهرته جميعاً . ولم يك جشعه يتراجع امام اية حقارة مطلقاً ، فهو يتنقل كثيراً ، ولكن لا يهبط دوماً الا في فنادق الدرجة الثالثة ، ويقبل باللعب حتى في النوادي المغمورة التي لا يدري الناس بوجودها ، بشرط ان يتقاضى اجوره على ذلك . ولقد شوهد على اعلان ملصق بالجدران يقوم بالدعاية لنوع من الصابون ، كما باع توقيعه ، دون ان يأبه للساخرين الذين يعرفون حق المعرفة عجزه عن كتابة جملة صحيحة واحدة ، لناشر يطبع «فلسفة لعبة الشطرنج» ، هذا المؤلف الذي كتبه في الحقيقة لهذا الناشر ، وهو رجل الأعمال الحاذق من دون ريب ، طالب

جاليسي معدم يسعى وراء الرزق وكسب حياته .

ولم يكن جنتوفيك ، شأنه في ذلك شأن سائر الذي ركبهم العناد ، يفقه معنى للسخرية والأمور التي تبعث عليها . كان يحسب نفسه ، منذ أصبح بطل العالم، أكثر شخصيات الانسانية أهمية ، فاذا وعيه للانتصارات التي يسجلها على أناس أذكياء ، ومحدثين لامعين ، وأساطين القلم والكتابة ، وبصورة خاصة كونه يكسب من المال أكثر مما يكسبون ، يحيلان خجله الفطري زهواً بارداً ينشره في فظاظة تامة على سائر الناس .

واختتم صديقي حديثه قائلاً ، بعد أن روى لي بعض الخصائص المميزة لاعتداد جنتوفيك بنفسه ، هذا الاعتداد المحفوف بكثير من الأخطار :

« ولكن كيف يمكن لمثل هذا النجاح السريع ألا يسكر مخيخاً بمثل هذا الفراغ ؟ كيف تريد من فلاح صغير من بانات ، يبلغ الحادية والعشرين من العمر ، ألا يسكر غروراً عندما يرى انه يكفيه أن يدفع بعض القطع الخشبية على لوحة ذات مربعات كي يربح في اسبوع واحد أكثر مما يربح سائر سكان قريته في سنة كاملة من الاحتطاب وبقية الأعمال المرهقة المماثلة ؟ ثم أليس من السهل بصورة شيطانية حقاً أن يظن المرء نفسه إنساناً عظيماً عندما يكون جاهلاً كل الجهل بأن رابرانت ، أو بتهوفن ، أو دانتي ، أو نابليون ، قد وجدوا في فترة من الزمان على وجه هذه البسيطة ؟ إن هذا الفتى لا يعرف إلا شيئاً واحداً وراء جبينه المقفل ، ألا وهو أنه لم يخسر شوطاً واحداً من الشطرنج منذ أشهر عديدة . ولما كان واثقاً كل الثقة من أنه لا يوجد في الكون قيم أخرى سوى الشطرنج والمال ، فان له الحق في أن يكون مسروراً من نفسه هكذا ، راضياً عنها حتى الدرجة القصوى .

وأثارت هذه الأحاديث التي قصها صاحبي عليّ فضولي وأرّقته ، فالناس الذين تملك عليهم فكرة واحدة سائر مشاعرهم قد شغلوا بالي دوماً ، إذ كلما ضاقت الحدود بفكر ما ، كلما اقترب من اللانهاية من جهة أخرى . ان هؤلاء القوم الذين يعيشون في وحدة حسب الظواهر يبنون ، بموادهم الخاصة ، وعلى غرار دود الأشجار ، عوالم مصغرة ذات طابع متميز تماماً . وهكذا فقد أبديت عزمي على مراقبة هذا النموذج الغريب من النمو الفكري الوحيد الجانب ، وملاحقته عن قرب ، والاستفادة جيداً في سبيل ذلك من الأيام الاثني عشر التي تفصل بيننا وبين مدينة الريو .

حذرني صاحبي قائلاً :

— ان حظك في الوصول الى غاياتك سوف يكون ضئيلاً جداً ، فليس انسان قد نجح ، فيما أعلم ، في استدرار اي استقراء نفساني من جنتوفيك . ان هذا الفلاح ليتمتع بما يكفي من الخبث ، فيما وراء بلاهته التي لا يُسبر غورها ، كي لا يخون نفسه قط . وان طريقته في ذلك بسيطة للغاية ، فهو يتجنب كل حوار ، اللهم الا محادثة مواطنيه الذين يماثلونه في كل شيء ، والذين يلقاهم في بعض الفنادق التي يرتادها . ولكنه لا يكاد يستشم رائحة رجل مثقف ، حتى يعود الى قوقعته ، بحيث لا يستطيع أي انسان ان يفاخر بأنه قد سمعه ينطق بحماقة ما ، أو بأنه توصل الى قياس اتساع جهله العميق .

ولقد أثبتت التجربة صدق هذه الكلمات ، فلقد اضطررت إلى الاعتراف ، في الأيام الأول من الرحلة ، باستحالة الاقتراب من جنتوفيك مطلقاً ، اللهم إلا إذا أبدى المرء تطفلاً فظاً لم يكن يروق لي ، كما أنه لم يكن من عاداتي .

كان كثيراً ما يتنزه على سطح المركب ، ولكنه كان يفعل ذلك دوماً في استغراق ، وفي كثير من التوحش أيضاً ؛ وقد صالب يديه وراء ظهره على طريقة نابليون كما تمثله لوحة شهيرة . أضف إلى ذلك انه كان يغادر المكان دوماً في كثير من المباغتة والعجلة ، بحيث كنت تضطر الى اللحاق به خبباً كي تستطيع أن توجه الحديث اليه . ولم نكن نراه لا في المقصف ، ولا في غرفة التدخين ، ولا في الصالونات ، بل هو يقضي جل وقته — كما اعترف لي الخادم المكلف بالاشراف على غرف الركاب — في غرفته يتمرن امام رقعة شطرنج واسعة الأبعاد .

وكانت ثلاثة أيام كافية لاقناعي بأن تكتيكه الدفاعي أقوى كثيراً من ارادتي في الاقتراب منه ، الأمر الذي ضايقني جداً في الحقيقة . ان أية معرفة شخصية لم تسبق لي ببطل في لعبة الشطرنج ، وكنت كلما حاولت ان أتمثل هذا البطل ، كلما ابتعدت عن غايتي . كيف السبيل الى تصور دماغ مشغول طوال الحياة بمساحة مشكلة من أربعة وستين بيتاً مختلفة اللون بين السواد والبياض فقط ؟ مما لا ريب فيه أني كنت أعرف بالتجربة ما في هذه « اللعبة الملكية » من جاذبية ، وهي من بين سائر الألعاب الوحيدة التي تفلت من طغيان الصدفة ، الوحيدة التي يدين المرء فيها بنصره لذكائه وحده ، أو بالأحرى لنوع خاص من الذكاء .

ولكن ، أفليس في تسميتها لعبة شيء من التحديد الذي يتضمن معنى الاهانة بالنسبة إليها ؟ أفليست هي في الوقت ذاته علماً ، وفناً ، او شيئاً ما

معلقاً بين هذا وذاك ، مثل تلك الصخرة المحمدية المعلقة بين الأرض والسماء ؟ إن أصول لعبة الشطرنج تضيع في ليل الأزمان ، ولكنها جديدة دوماً بالرغم من ذلك ؛ ومسيرها ميكانيكي ، ولكنها لا تنتهي الى أية نتيجة الا بفضل خيال اللاعب وقوة تصوره ؛ وهي محدودة بصورة ضيقة في مساحتها الهندسية الثابتة ، ولكن تراكيبها لا تنتهي بالرغم من ذلك ؛ وهي تتابع تطوراً مستمراً ، لكن تبقى مجدبة دوماً . انها فكرة لا تؤدي الى أي شيء كان ، فن لا يترك أي أثر على الاطلاق ، هندسة عديمة المادة والعناصر معاً . لكنها قد برهنت بالرغم من ذلك أنها اثبت على طريقتها الخاصة من الكتب او من أي نصب آخر ، هذه اللعبة الوحيدة التي تخص سائر الأمم وسائر الأزمان ، والتي لا يعرف احد اي إله قد نفح الأرض بها كي يقتل الملل ويقضي عليه ، ويؤرث الفكر ويؤججه ، ويحرض النفس ويثير كوامنها . أين تبدأ وأين تنتهي ؟ ان طفلاً يستطيع أن يتعلم قواعدهـا ، كما يستطيع جاهل أن يجرب حظه في مضمارها ، ويحصّل فيها قدرة من نوع خاص فيما لو منح هـذه الموهبة الخاصة . ان الصبر والتكتيك يجتمعان فيها الى نظرة ثاقبة الى الأمور ، كي تتوصل جميعاً الى مكتشفات أشبه ما تكون بتلك المكتشفات التي تحققها في الرياضيات ، أو الشعر ، أو الموسيقى .

لعل هوى العلم ، في الماضي ، كان يدفع بغال مثلاً الى تشريح دماغ بطل من هذا النوع في لعبة الشطرنج كي يرى ان كانت مادته السنجابية لا تحوي تلفيفاً خاصاً ، شيئاً شبيهاً بالعضلة أو بالحدبة يكون مميزاً له عن الآخرين . الى أية درجة كانت تثير اهتمامه هذه الحالة الخاصة المتعلقة بامرىء تتحد عنده موهبة نوعية في لعبة الشطرنج الى كسل فكري مطلق ، مثلما يركض خيط من الذهب في صلب كتلة من الصخر الخام !

صحيح اني كنت أفهم ، مبدئياً ، ان مثل هذه اللعبة الغريبة ، العبقرية ، يمكن ان تبعث بأبطال إلى الوجود ، ولكن كيف السبيل الى ادراك حياة ذكاء بأسره ، وقد أحيل إلى هذه الفسحة الضيقة ، ولم يعد يعرف من مشاغل الحياة الا ان يقدم ويؤخر اثنتي وثلاثين قطعة خشبية على مربعات سود وبيض ، ملقياً في هذا الغدو والرواح مجد حياته بكامله ! كيف السبيل إلى تصور انسان يرى في إقدامه على افتتاح اللعب بالفارس بالأحرى من أي بيدق آخر فتحاً مجيداً ، ويسجل حصته الصغيرة المسكينة من الخلود في زاوية كتاب صغير مخصص للشطرنج ! كيف السبيل اخيراً الى تصور إنسان ، إنسان يتمتع بالذكاء ، يستطيع طوال عشر ، وعشرين ، وثلاثين ، واربعين سنة ، ودون ان يصبح مجنوناً ، أن يسعى بكل قوى فكره نحو هذا الهدف السخيف : ان يلصق ملكاً من الخشب في زاوية لوحة من الخشب !

وهذا أنا حالياً ، وقد وُجد مثل هذا الحدث الفريد ، مثل هذه العبقرية الغريبة ـ او إذا كنتم تفضلون ذلك فلأقل مثل هذا المجنون الغامض ـ قريباً مني للمرة الأولى على ظهر المركب نفسه ، وعلى بعد ست غرف مني فقط ، أرى من المستحيل عليّ الاقتراب منه ، انا الذي تملكني دوماً فضول لاهب تجاه الأمور المتعلقة بالفكر . ورحت أخترع الخطط الأكثر عبثاً وسخافة : لو أطلب منه مقابلة لصحيفة كبرى وهمية ؟ أو إذا اقترحت عليه جولة كثيرة المنافع في اسكوتلندا ؟ وتذكرت أخيراً أن الصياد يجتذب الطريدة اليه بتقليد صيحتها ، في فصل الحب والزواج ، وان أفضل وسيلة لاجتذاب انتباه لاعب شطرنج هو اللعب بالشطرنج بكل تأكيد .

وفي الحقيقة إني لم أك قط فناناً جدياً في هذا المضمار ، لأني لا ألعب الشطرنج إلا في سبيل التسلية ، ولا أجلس أمام رقعته إلا سعياً وراء بعض

الراحة لفكري المتعب . فأنا لا ألعب ، بل أتسلى بالأحرى، اذا أردنا الدقة في التعبير . ثم ان المرء يحتاج في الشطرنج ، مثله في الحب ، الى شريك ، وانا لا أدري إن كان على سطح هذا المركب هواة فيما عداي وزوجتي . واتخذنا مكانينا في قاعة التدخين ، امام رقعة للشطرنج ، كي نجتذب هؤلاء الهواة فيما لو وجدوا ، وشرعنا في اللعب . ولم نكد نقوم بست حركات على الرقعة حتى توقف إلى جانبنا أحد المتنزهين ، ثم لحق به متنزه آخر ، وسألانا السماح لهما بالتفرج على لعبنا .

وأخيراً طلب مني أحد الحضور أن ألعب شوطاً وإياه . كان مهندساً اسكوتلندياً يدعى ماك كونور ، قد جمع ثروة طائلة ، فيما قيل لي ، من حفر آبار البترول في كاليفورنيا . وكان مربوع القامة ، مربع الفك ، متين الأسنان ، يدين بتضرج بشرته للويسكي حتى درجة بعيدة . وكان عرض منكبيه الفائق ، الباعث على الدهشة ، يبدو حتى في لعبه ، لأن ماك كونور كان من ذلك النوع من الرجال الذين توصلوا إلى النجاح في الحياة ، والذين يطفحون بالاعتداد بأنفسهم حتى يجدوا الخسارة إهانة واذلالاً شخصياً لهم ، وإن لم تك تلك الخسارة اكثر من شوط بريء من الشطرنج . كان هذا الرجل الذي « صنع نفسه » ، وقد اعتاد على فرض ذاته بصورة عنيفة بعد ان أفسدته نجاحاته الواقعية ، مشبعاً للغاية بتفوقه ، حتى يرى في كل معارضة له شيئاً من الفوضى يكاد أن يبلغ مبلغ الشتيمة ، ولقد خسر الشوط الأول وهو سيء المزاج ، وشرع يوضح ، في لهجة المتسلط الذي لا يعرف المداراة ، ان سبب هزيمته لحظة من السهو ليس غير . وعندما خسر للمرة الثالثة ، ألقى مسؤولية الخسارة هذه المرة على الضوضاء المثارة في الغرفة ، ولم يكن يخسر أبداً دون ان يطلب الثأر ، بحيث أن هذا التكالب قد بعث السرور في نفسي اولاً ، ومن ثم لم

أعد أرى فيه إلا حدثاً ثانوياً لا يعوق مشروعي في كثير أو قليل .

ونجحت خطتي في اليوم الثالث ، ولكن نصف نجاح ليس غير . هل لحظا جنتوفيك من خلال النافذة بينا هو يتنزه على سطح الباخرة ، أم عساه قد شرّف قاعة التدخين صدفة بحضوره ذلك اليوم ؟ لقد رأيناه على أية حال يتقدّم بضعة خطوات غير إرادية في اتجاهنا ، ويلقي من بعيد نظرة عارفٍ على رقعة الشطرنج حيث كنا نتطفل بممارسة فنه . وفي تلك اللحظة بالضبط كان ماك كونور ينقل أحد البيادق . وا أسفاه ! لقد كانت هذه الحركة الوحيدة كافية كي تبرهن للمعلم مبلغ عدم جدارتنا باهتمامه الملكي ، فاذا هو يبتعد عن مائدتنا ويغادر قاعة التدخين بتلك الاشارة من اليد التي يدفع بها المرء عادة رواية بوليسية وقع عليها على أحد رفوف المكتبة ، حتى دون أن يتصفحها . قلت في نفسي ، وقد تألمت كثيراً من تلك النظرة المشيعة بالازدراء :

ـ لقد زاننا ، ووجدنا أخف مما كان ينتظر .

ومن ثم توجهت إلى ماك كونور قائلاً ، معبراً له عما يجول في خاطري :

ـ يبدو أن ضربتك لم ترق للمعلم .

فسأل :

ـ أي معلم ؟

فأوضحت له أن هذا السيد الذي مرّ لتوّه قريباً منا ، وألقى على لعبنا نظرة معنّفة ، هو جنتوفيك ، بطل العالم في لعبة الشطرنج .

وأضفت :

ـ حسناً ! لم يعد لنا إلا أن نتحمل هذه الاهانة ، ونتكيف مع ازدرائه دون أن نأبه له كثيراً ، فلا بد للبائسين من أن يطهوا طعامهم بالماء .

ولكن هذه الكلمات التي تفوهت بها في لا مبالاة تركت في ماك كونور

أثراً مدهشاً ، فقد بدا عليه الهياج الشديد حتى نسي الشوط الذي بدأناه ، ومن ثم اعلن – والغرور ينفخ صدغيه نفخاً – إنه لم يخطر له على بال قط ان جنتوفيك يرافقنا على ظهر المركب نفسه ، وأنه يريد بأي ثمن كان أن يلاعبه ، وانه لم يتنازل من قبل قط مثل هذا البطل ، اللهم إلا مرة واحدة ، بالاشتراك مع أربعين شخصاً آخرين ، أثناء شوط مشترك كان رائعاً للغاية كاد أن يخرج منه منتصراً ظافراً . ما أني ان كنت أعرف الشخصية الشهيرة ، ولما أجبت بالنفي اقترح أن باستطاعتي التقدم إليه وسؤاله الانضمام إلينا . ولكنني رفضت ، متذرعاً بأن جنتوفيك لا يرغب كثيراً . فيما أعلم ، في عقد صلات جديدة ، أضف الى ذلك أني لا أجد أين يكمن السرور في شوط يباري فيه لاعب عالمي مع لاعبين من الدرجة الثالثة .

وأعترف اني قد أخطأت باستعمالي هذا التعبير عن لاعبي الدرجة الثالثة أمام رجل في مثل غرور ماك كونور ، فقد ارتمى الى الوراء ، واعلن في صوت جاف أنه لا يعتقد ، شخصياً ، ان جنتوفيك قد يرفض دعوة لطيفة يوجه اليه بها سيد نبيل ، وإنه سوف يأخذ هذا الأمر على عاتقه . ولم أكد أصف له شخص البطل ، بناء على طلبه ، حتى انطلق في اندفاع يفتش عنه على سطح المركب ، فأدركت مرة أخرى إنه يستحيل أن يعترض المرء صاحب هذين الكتفين العريضين إذا ما وضع مشروعاً في رأسه مرة ، ورحت انتظر النتائج اللاحقة في شيء من القلق . ولم تمض عشر دقائق حتى رجع ماك كونور ، لا يبدو عليه مطلقاً انه اكثر هدوءاً منه حين غادرنا .

سألته :

– حسناً ؟

فأجابني ، مضطرب البال :

ـ إنك على حق ، فهـــذا السيد ليس على شيء من اللطف . لقد قدمت نفسي إليه ، مع ألقابي ، ولكنه لم يتنازل فيمدّ إليّ يده ، وجربت عندئذ أن أوضح له كم نكون جميعاً نحن الركاب ، سعداء إذا قبل أن يلعب ضدنا شوطاً مشتركاً ، ولكنه ظل جامداً كالعصا ، وأجابني انه يأسف لذلك ، لأنه تعهد باتفاقية خطية ألا يلعب قط ، خلال جولته بأسرها ، دون أن يتناول أجراً ، وانه مضطر لذلك إذن أن يطلب مائتين وخمسين دولاراً كحدٍ أدنى لقاء كل شوط من الأشواط .

فانفجرت ضاحكاً ، وقلت :

ـ إني لم أفكر قط ان تحريك البيادق من مربع أسود الى مربع أبيض هو عمل يدرّ كل هذه الأرباح . آمل أن تكون قد استرددت منه ، بأدب ، كل الاحترام الذي قدمته له .

ولكن ماك كونور ظل محتفظاً بكل مظاهر الجدّ .

ـ إن الشوط سيجري بعد ظهر غد ، في تمام الساعة الثالثة ، في قاعة التدخين هذه . أرجو ألا نسمح بأن تلحق الهزيمة بنا بسهولة .

فهتفت ، مذهولاً متعجباً :

ـ ماذا ؟ لقد قبلت بشروطه ؟

ـ لمَ لا ؟ تلك هي مهنته . لو آلمتني أضراسي ، وكان هناك طبيب أسنان على سطح المركب ، فإني لن أطلب منه أن يقلع لي ضرسي مجاناً . ان جنتوفيك على حق تام ، والناس القادرون حقاً قد عرفوا دوماً كيف يسيّرون أعمالهم . أما من جهتي فاني أرى ان الصفقة كلما ازدادت وضوحاً كلما ازدادت قيمة ، ولذا فاني أفضل ان أدفع من أن اعتمد على أفضال السيد جنتوفيك ، وأكون مجبراً على شكره في النهاية . وعلى أية حال فقد حدث لي ، في ناديّ ، أن

خسرت أكثر من مائتين وخمسين دولاراً في أمسية واحدة ، وذلك دون أن أتمتع بلذة اللعب ضد بطل عالمي . ليس من العار ، بالنسبة الى لاعب من الدرجة الثالثة ، أن يُغلب من قبل جنتوفيك .

كان غرور ماك كونور قد جُرح عميقاً ، بكل تأكيد ، بهذا التعبير البريء عن « اللاعب من الدرجة الثالثة » . ولكن ما دام عازماً على تحمل تكاليف هذه اللذة الغالية ، فلم يعد لديّ أي اعتراض على مشروعه الذي سيسمح لي أخيراً أن أرى عن قرب تلك الشخصية الفريدة التي تثير فضولي . وأسرعنا نخبر بالحادث اللاعبين الأربعة او الخمسة الذين نعرفهم بين الركاب ، كما احتجزنا سائر الموائد المجاورة لمائدتنا ، كي نكون هادئين ما أمكن في الغداة أثناء المباراة .

اكتمل عقد جماعتنا الصغيرة في الموعد المحدد من اليوم التالي. وطبيعي أننا أعطينا مالك كونور المكان لذي يواجه مكان المعلم مباشرة. كان الاسكوتلاندي بادي الهياج والعصبية، يشعل سيجاراً بعد سيجار وهو يتطلع الى ساعة الجدار دون انقطاع. ولكن بطلنا الشهير تأخر عن القدوم طوال عشر دقائق، الأمر الذي لم يدهشني مطلقاً بعد أحاديث صديقي، ومن ثم دخل القاعة في شيء كثير من الأبهة الوقحة، وتوجه نحو المائدة بخطى هادئة موزونة، ودون أن يقدم نفسه، وكأنه يريد بذلك أن يقول: «أنتم تعرفون من أكون، وليس يهمني أن أعرف من تكونون»، أخذ ينظم البيادق على رقعة الشطرنج بجفاء مهني مطلق. ولما كان يستحيل أن نلعب شوطاً مشتركاً عادياً، بسبب نقص العدد الكافي من رقع الشطرنج، فقد اقترح ان نلعب جميعاً ضده، فيذهب بعد كل حركة الى جانب القاعة الآخر، كي لا يعكر علينا صفو مشاوراتنا، فاذا ما لعبنا قرعنا قدحاً من الماء بملعقة صغيرة كي نخطره بذلك، مستعيضين بهذه الطريقة عن الجرس الذي يعوزنا على سطح المركب. ولقد اقترح، إذا لم يكن لدينا مانع، أن نحدد الزمن الفاصل بين كل حركتين بعشر دقائق، الأمر الذي قبلنا به طبعاً ونحن أشبه ما نكون بتلامذة خجولين الى جانب أستاذهم المتعجرف. وأعطى الحظ البيادق السود لجنتوفيك، فردّ على افتتاحنا دون أن يجلس: وغدا سريعاً الى أقصى الغرفة، الى المكان الذي اختاره كي ينتظر فيه، وراح يتصفح في إهمال كثير صحيفة مصورة.

وليس في حديث هذا الشوط المفصل ما يستأهل كثيراً من الاهتمام: يكفي أن أقول إننا غلبنا على أمرنا تماماً بعد أربع وعشرين حركة ليس غير. أية غرابة في أن يتغلب بطل عالمي، بكل هذه السهولة، على عشرة من اللاعبين المتوسطين! ولكن ما أثار نقمتنا بالأحرى هو ذلك الاعتداد والرضى اللذان كان جنتوفيك يريد بهما أن يشعرنا بتفوقه، فهو لا يلقي على رقعة الشطرنج إلا نظرة شاردة، ومن ثم يتطلع إلينا في إهمال، يمر بنا مرّ الكرام وكأننا، نحن الآخرين، لا نزيد في نظره عن أن نكون قطعاً ميتة من الخشب، أو كلاباً جرباء يرميها المرء بعظم تلهو به وهو يحيد عنها جانباً. ورحت أقول في نفسي انه كان يلفت انتباهنا – لو أن فيه شيئاً من اللباقة – الى الأخطاء التي نرتكبها، أو كان يشجعنا على الأقل بكلمة لطيفة لا تكلفه شيئاً. ولكن لا، بل ان هذه الآلة المصنوعة من أجل اللعب قد صاحت، لدى انتهاء الشوط، هاتفة: «الشاه مات!»، ومن ثم بقي واقفاً هناك، جامداً أخرس، ينتظر أن يعرف ان كان في رغبتنا أن نبدأ شوطاً جديداً. والحقيقة ان المرء يفقد دوماً كل وسيلة أمام مثل هذه الجلود الغليظة، ولذا فقد نهضت، عانياً بذلك إني اعتبر هـــذه التسلية قد انتهت، عندما سمعت – الأمر الذي أثار حفيظتي في الحقيقة – ماك كونور يقول الى جانبي، بصوت مبحوح أجش: «الثأر!».

وذعرت للهجته المتحدية، فقد كان ماك كونور، في تلك اللحظة، يثير في الخاطر فكرة ملاكم سيوجه لسيد رفيع التربية لكمة قاضية. هل السبب في ذلك طريقة جنتوفيك المثيرة في معاملتنا، أم طموح ماك كونور المرضي بكل بساطة؟ ان هذا الأخير قد بدا، على أية حال، وقد تبدلت طبيعته تماماً، ينبثق العرق منه بصورة واضحة، وقد احمارّ حتى جذور شعره، وتمدد

خيشوماه واتسعا ، وراح يعض على شفتيه في حنق شديد ، بينما احتفر غضن عميق بين فمه وذقنه الارادية . وعرفت في عينيه، وأنا قلق جداً ، ذلك اللهيب الذي يشعله الهوى المجنون الذي يتملك عادة لاعبي الروليت بعد أن يراهنوا بضعف المقدار ، للمرة السادسة أو السابعة ، على لون لا تقف الكرة عليه أبداً . وأدركت سلفاً أن هذه المحبة الكلية للذات سوف تكلفه كل ثروته ، وانه سوف يلعب ويلعب ضد جنتوفيك حتى يربح أخيراً ، ولو مرة واحدة على الأقل . وإذا وجد البطل الصبر على الاستمرار في ذلك ، فهو واجد في ماك كونور منجماً من الذهب يستخرج منه بضعة آلاف من الدولارات قبل أن نبلغ بيونوس آيرس .

ظل جنتوفيك جامداً لا يطرف له جفن ، وأجاب بأدب جم :

– كما تشاء . فليأخذ هؤلاء السادة البيادق السود .

وابتدأ الشوط الثاني ، شبيهاً في كل شيء بالشوط الأول ، اللهم إلا ان حلقتنا قد انضم اليها بعض الفضوليين . كان ماك كونور يتطلع الى الرقعة في ثبات ، فكأنه يريد ان يسحر القطع كي يقودها الى النصر ، فأحس بوضوح انه يعطي بكل طيبة خاطر ألفاً من الدولارات كي يصيح : « الشاه مات ! » في وجه خصمه القليل اللباقة . وكان شيء من اندفاعه وحماسته يسري الينا بالرغم منـــا ، فنناقش كل حركة في هوى أعظم منه قبلاً ، ولا نتفق الا في اللحظة الأخيرة كي نعطي جنتوفيك الاشارة التي تدعوه الى مائدتنا . وهكذا بلغنا الحركة السابعة عشرة كي نجد ، لدهشتنا العظيمة ، ان الموقف قد أصبح في صالحنا ، إذ نجحنا في الوصول ببيدق الخط ج ٧ حتى البيت ج ٢ ، ولم يبق إلا أن نتقدم به خطوة أخرى حتى ج ١ حتى نضع ملكته الثانية خارج الميدان . والحقيقة انا لم نكن مطمئنين كل الاطمئنان تجاه مثل هذا الحظ الظاهري ،

بل كنا نتهم، بالاجماع، جنتوفيك الذي يرى ابعد منا بكل تأكيد، نرتاب في أنه يمدّ لنا هذا الطعم وفي نيته ان يوقع بنا بطريقة ما. ولكننا فتشنا وناقشنا طويلاً، دون ان نستطيع سبيلاً الى اكتشاف الفخ المنصوب لنا.

وأخيراً قررنا، وقد قارب الفاصل المحدد أن ينتهي، أن نجازف بتلك الحركة، وشرع ماك كونور يدفع البيدق عندما أمسك به أحدهم، بصورة مباغتة، من ذراعه، وهمس في أذنه في لهجة سريعة:

– بحق السماء لا تفعل هذا!

والتفتنا جميعاً، بالرغم منا، كي نرى رجلاً في حوالي الخامسة والأربعين، ذا محيا ضيق بارز العظام، سبق أن التقيت به على سطح المركب، فلفت انتباهي بصورة خاصة لشدة شحوبه. لاريب انه قد اقترب منا، بينما كنا مستغرقين جميعاً في لجة المشكلة التي تتطلب منا حلاً لها. وعندما أحس بنظراتنا وقد استقرت جميعاً عليه، استرسل يقول في اندفاع وعجلة عظيمين:

– إذا ضربتم الملكة الآن، فان الخصم سوف يهاجمكم مباشرة بالمجنون في ج ١، فتضطرون إلى الردّ عليه بالفارس. ولكنه سيذهب في هذه الأثناء فيهدد برجكم في د ٧ بيدقه الحر، وحتى إذا ألحقتم الهزيمة به بفارسكم، فانكم ستخسرون وتغلبون في تسع أو عشر حركات ليس غير. تلك هي ذات المراكز تقريباً التي كان يحتلها الجيشين وبوغولجوبوف أثناء جولة بيستبان الكبرى في ١٩٢٢.

وأفلت ماك كونور، مذهوشاً، البيدق الذي ظل ممسكاً به في يده حتى ذلك الحين، وتطلع، مذهولاً مثلنا جميعاً، إلى هذا الرجل الذي يلوح وكأنه قد سقط من السماء على غرار ملاك منقذ. لاريب أنه ممتهن كبير للشطرنج، وربما مناقس لجنتوفيك، ذاهب إلى الجولة نفسها، كي يستطيع أن يتنبأ سلفاً

بتسع حركات ستنتهي إلى الهزيمة . كان قدومه وتدخله المفاجيء ، في مثل تلك اللحظة الحرجة ، أقرب ما يكونان إلى المعجزات في الحقيقة .

كان ماك كونور أول من تمالك نفسه ، فهمس بادي الهياج :

– بماذا تنصحني ؟

– لا تتقدم الآن ، بل تجنب العدو ! قبل كل شيء أبعد الشاه عن الخط الخطر ز ٨ – ح ٧ . ولا ريب أن خصمك سوف يهاجم في الجناح الآخر ، ولكنك سترد هجومه بالبرج ، ج٨ – ج ٤ ؛ وسوف يكلفه هذا حركتين ، وبيدقاً ، وتفوقه بالإضافة . وعندئذ تتناضلون ، بيدقاً حراً ضد بيدق حر ، فاذا عرفت كيف تدافع جيداً عن نفسك ، فسوف ينتهي الشوط صفراً . انك لا تستطيع أن تنال أكثر من ذلك من مثل هذه الحال .

كانت دهشتنا تتفاقم باستمرار ، فان دقة حساباته وسرعتها لا يمكن إلا أن تبلبل الخاطر ، وتلقي الاضطراب في الأذهان ، حتى ليخيل إلينا أن هذا الرجل يقرأ حركاته في كتاب مفتوح . وكان الحظ الذي لم تكن تأمل فيه قط ، الحظ في أن نخرج متعادلين ، بفضله ، من شوط نباري فيه بطلاً عالمياً ، أقرب ما يكون إلى السحر منه إلى أي شيء آخر . وابتعدنا ، في وقت واحد ، كي نسمح له بالاطلاع على الرقعة بصورة أفضل ، بينما راح ماك كونور يردد :

– هل أحرك الشاه من ز ٨ الى ح ٧ ؟

– بكل تأكيد ! يجب ان تتجنب العدو !

أطاع ماك كونور ، ومن ثم قرعنا القدح . فاقترب جنتوفيك بخطواته الهادئة ، وتفحص الرد عليه بنظرة سريعة ، ومن ثم دفع بيدقاً من ح ٢ الى ح ٤ ، على الجانب الآخر من الشاه ، تماماً كما تنبأ بذلك مخلصنا المجهول الذي أسرع فهمس في آذاننا :

– البرج ، قدموا البرج من ج ٨ إلى ج ٤ ، كي يضطر الى حماية بيدقه. ان هذا لن يفيده شيئاً على أية حال ! وعندئذ سوف تهاجمون بالفارس ، ج ٣ – د ٥ ، دون أن تأبهوا لبيدقة الحر ، واذا كل شيء على مايرام مرة أخرى ، ومن ثم ، فالى الأمام ، إذ لن يعود بكم حاجة الى الدفاع .

لم نك نفهم ما يريد أن يقول ، فكأنه كان يتكلم باللغة الصينية. ولكن مالك كونور ، وقد وقع تحت سيطرته ، فعل مايطلب منه دون أن يطيل التفكير ، ومن ثم رنّ القدح من جديد . وللمرة الأولى لم يلعب جنتوفيك مباشرة ، بل تطلع قبلاً الى الرقعة بانتباه مركز ، ومن ثم لعب الحركة التي أخبرنا الغريب بها على وجه الدقة ، وتأهب للابتعاد .

وعندئذ وقع حادث جديد ، لم يك منتظراً على الاطلاق ، فقد رفع جنتوفيك عينيه ، وراح يتفحص صفوفنا ، يفتش بكل تأكيد عن ذلك الذي أخذ يرد عليه ، على حين غرة ، بكل هذه المقاومة العنيفة . ولم يعد هياجنا ، منذ هذه اللحظة ، يعرف أية حدود مطلقاً ، فاذا كنا قد بقينا حتى ذلك الحين دون رجاء ، فان فكرة تحطيم كبرياء جنتوفيك الباردة قد شرعت تلهب دماءنا حالياً . وفي هذه الأثناء كان صديقنا الجديد قد قرر الحركة التالية ، فراحت أصابعي ترتجف عندما أمسكت بالمعقة أريد ان أقرع القدح كي ادعو جنتوفيك إلينا . وعرفنا عندئذ نصرنا الأول ، فان البطل الذي لعب حتى ذلك الحين واقفاً قد تردد ، وتردد ، وانتهى الأمر به الى الجلوس . ألقى بنفسه ، في أسف وتثاقل ، على مقعده ... ما أهمية ذلك ! لقد كفّ على الأقل عن إثبات تفوقه حكمياً ، فأجبرناه على أن يضع نفسه في ذات المستوى الذي نحن فيه ، في الفراغ على الأقل . وفكر طويلاً ، وهو منحنٍ على الرقعة حتى أننا لا نرى عينيه الا بصعوبة تحت جفنيه القاتمين ، وهو يبذل جهداً عظيماً

اضطر معه الى أن يفغر فاه ، الأمر الذي أعطى محياه المستدير تعبيراً يدل على شيء من البلاهة . وبعد بضعة دقائق لعب ، ومن ثم نهض ، فأسرع صديقنا يهمس :

– لقد لعب جيداً ، فهو لا يوقع نفسه . ولكن إياكم والانخداع به ! أجبروه على الاختيار ، فذلك أمر لابدّ منه كي نتوصلوا الى التعادل . وعندئذ ، فان شيئاً لن ينقذه قط .

وأطاع ماك كونور . واشتبك بعد ذلك الخصمان على رقعة الشطرنج في أخذ وردّ لم نفهم منه نحن الآخرين ، الصور العديمة الفائدة في هذا القتال ، شيئاً على الاطلاق . وبعد ست او سبع حركات من هذا النوع ، ظل جنتوفيك طويلاً مستغرقاً في التفكير ، ومن ثم أعلن :

– « الشوط متعادل ! » ...

تلا ذلك فترة من الصمت المطبق . وسمعنا ، على حين غرة ، في قاعة التدخين ، ضوضاء الأمواج ، وأنغام الجاز التي يرسلها لنا الراديو من الصالة المجاورة ، وكل خطوة على السطح تتردد بوضوح تام ، بله حتى الصفير الخفيف الذي ترسله الريح عندما تمر من خلال شقوق النوافذ . ولقد اجتاحنا الفزع حقاً ، بعد أن قطعت سرعة هذا الحادث أنفاسنا علينا ، من لا معقولية مثل هذه المغامرة . كيف استطاع هذا المجهول أن ينزل تصف الهزيمة ببطل عالمي ؟ وارتمى ماك كونور بصورة مباغتة الى الوراء ، وأرسل آهاً سعيدة ، بينما رحت أراقب جنتوفيك الذي بدا لي انه قد شحب قليلاً أثناء الحركات الأخيرة . ولكنه كان يعرف كيف يتمالك نفسه ، فظل جامداً لا مبالياً ، وسأل بصوت لا عاطفة فيه ، وهو يدفع بيده قطع الرقعة .

– هل يرغب السادة في شوط ثالث ؟

كان يطرح السؤال بصورة موضوعية مطلقة ، كما يطرحه أي رجل أعمال في مكانه ، ولكنه لم يكن يتوجه الى مالك كونور وهو يتفوه بهذه الكلمات ، لأنه قد ألقى نظرة مستقيمة ثاقبة في اتجاه مخلصنا . لا ريب أن جنتوفيك قد عرف خصمه الحقيقي اثناء الحركات الأخيرة من الشوط ، مثله في ذلك مثل الجواد الذي يعرف الفارس الحقيقي منذ اللحظة التي يمتطي فيها سرجه . وتبعنا ، دون إرادة منا ، نظراته ، واستدرنا جميعاً في اتجاه الرجل الغريب ، بينما هتف مالك كونور به ، دون أن يترك له فرصة التفكير أو مجرّد الجواب :

– بكل تأكيد ! ولكنك سوف تلعب وحدك ضده ! أنت وحدك ضد جنتوفيك !

وعندئذ وقع حادث مدهش ، فان الرجل الغريب الذي ظل حتى ذلك الحين مستغرقاً في التطلع الى الرقعة الفارغة انتفض على حين غرة حين أحس سائر تلك الأنظار مثبتة فيه ، وبدا عليه الاضطراب عندما سمع النداء يوجه اليه بكل تلك الحماسة .

تمتم قائلاً :

– أبداً ما حييت ، أيها السادة . ذلك مستحيل تماماً ... لا يمكن أن أدخل في مثل هذا الاعتبار ... إني لم أرَ رقعة الشطرنج منذ عشرين او خمس وعشرين سنة . ولقد تدخلت في لعبكم دون اذن منكم ، وأنا ادرك الآن فقط كم كان ذلك مني في غير موضعه – هلا تفضلتم فعذرتم متطفلاً ... لن يعود الى ذلك قط ، اؤكد لكم ذلك .

وقبل أن ننفض عنا آثار دهشتنا ، كان قد غادر الغرفة ...

صاح مالك كونور الملتهب ، وهو يضرب المائدة بقبضة يده :

– ان الامر لن ينقضي هكذا ! خمس وعشرون سنة وهـذا الرجل لم يلعب الشطرنج ! هذا مستحيل تماماً ! لقد كان يحسب حساب كل حركة ، ويعرف سلفاً تكتيك الخصم ، وليس انسان يستطيع ان يلعب هكذا بصورة عفوية . هذا مستحيل تماماً – أليس كذلك ؟

كان قـد استدار عامداً نحو جنتوفيك وهو يلفظ الكلمات الاخيرة ، ولكن البطل ظل جامداً لا حراك فيه . قال :

– لست أستطيع ان احكم على ذلك . من المؤكد ان السيد قد لعب بصورة تستدعي الاهتمام ، ولذا فقد تركت له ، عامداً ، حظاً كي يربح .

نهض وهو يقول هذه الكلمات الاخيرة ، ثم اضاف في إهمال :

– اذا كان احد من السادة يرغب في شوط غداً فاني تحت تصرفكم منـذ الساعة الثالثة بعد الظهر .

ولم نستطع ان نكبت ابتسامة طفيفة ، فقد كنا جميعاً نعرف ان جنتوفيك لم يسعَ كي يكون كريماً تجاه مخلصنا المجهول ، وان ملاحظته لم تكن الا ذريعة يريد منها ان يخفي سوء طالعه . وهكذا فقد تفاقمت رغبتنا في الحطّ من كل هذه الكبرياء ، فتملكتنا على حين غرة ، وقد كنا حتى ذلك الحـين ركاباً مسالمين متكاسلين ، موجة متوحشة متعطشة الى القتال عندما فكرنا ان جنتوفيك قد يجد اكاليله تنتزع منه ، على سطح هذا المركب ، في عرض المحيط ، وان ذلك سوف يكون نصراً يعلن بالراديو ، مباشـرة ، الى العالم اجمع .

والى ذلك يجب ان نضيف جاذبية السـر الذي تجلى بطلنا في ظلاله ، وتناقض تواضعه الذي يكاد ان يكون زائداً عن الحدود الطبيعية مع عجرفة الممتهن القاسية . من يكون هذا المجهول ؟ هل كشفت لنا الصدف عن

عبقرية جديدة في لعبة الشطرنج؟ أو عساه معلماً قد سبقت شهرته ، وهو يخفي اسمه عنا لسبب ما برحنا نجهله ؟ناقشناهذه المسائل جميعاً في حميةعظمى،ولكن فرضياتنا الأكثر جرأة لم تكن كافية كي توفق بين حياء الغريب واعترافه المدهش ، وبين معرفته الأكيدة بفنون لعبة الشطرنج .

ولكننا كنا متفقين رأياً على نقطة واحدة على أية حال ، وهو أن نقنع المجهول بأي ثمن أن يلعب شوطاً ضد جنتوفيك في الغداة ، فتطوع ماك كونور أن يتكبد أخطار المغامرة المالية . وبينا نحن في هذا الحديث عرفنا ، عندما سألنا الخادم المكلف بالاشراف على غرف الركاب ، أن الغريب نمساوي الجنسية، فأوكل إليّ باعتباري مواطناً من التبعة نفسها أمر التقدم إليه بطلبنا .

سرعان ما عثرت عليه ، حيث التجأ على سطح المركب ، يقرأ مضطجعاً على مقعد طويل ، فرحت أتأمله طويلاً قبل أن أدنو منه . كان رأسه البارز الزوايا يستند في شيء من الاعياء على الوسائد ، يلفت انتباهي منه مرة أخرى ذلك الشحوب المدهش الذي يرين على وجهه . وكان شعره أشيب تماماً ، يوحي إليّ — دون سبب واضح — أن هذا الرجل قد شاخ في وقت مبكر جداً . ونهض في أدب جم عندما اقتربت منه ، وقدم إلي نفسه ، فاذا هو سليل عائلة نمساوية عريقة المحتد ، عظيمة الاعتبار والوجاهة ، تذكرت أن صديقاً لشوبرت كان يحمل اسمها ، وكذلك أحد أطباء الامبراطور .

عندما نقلت إليه رغبتنا ، بدا عليه شيء كثير من الخيبة . واكتشفت إنه لم يخطر له قط على بال انه يلعب ضد بطل عالمي ، بل ضد أشهر أبطال العصر على الاطلاق . وخيل إليّ ان هذه الحقيقة قد تركت فيه أثراً عظيماً ، لأنه سألني عدة مرات ان كنت واثقاً مما أخبره به ، وإذا كان خصمه أحد أسياد الشطرنج المشاهير حقاً . ولقد مهّد ذلك الطريق لمهمتي ، سوى أني وجدت عنده شيئاً كثيراً من الرقة والحساسية بحيث فضلت ألا أفاتحه بأمر الأخطار المالية التي أخذها ماك كونور على عاتقه . وأخيراً أعلن السيد ب ... ، بعد فترة طويلة من التردد ، انه مستعد لقبول التحدي ، لكنه أسرع فأضاف وعلى شفتيه ابتسامة متفكرة :

— ولكن ، أرجوك أن تخبر هولاء السادة ألا يضعوا فيّ آمالاً كبيرة ،

فأنا أجهل في الحقيقة إذْ كان في قدرتي أن ألعب شوطاً كاملاً من الشطرنج حسب القواعد أم لا . صدقني إني لم أهدف إلى شيء من التواضع الكاذب عندما أكدت لكم إني لم ألمس رقعة الشطرنج مطلقاً منذ الزمن الذي كنت فيه طالباً بعد ، يعني منذ أكثر من عشرين عاماً . وفي ذلك الحين لم أكن ، على أية حال ، إلا لاعباً عادياً لا يؤبه له .

كان يقول ذلك في كثير من البساطة ، حتى لم يعد في إمكاني أن أرتاب في صدقـــه مطلقاً . ولكني لم أستطع مع ذلك سبيلاً إلى الامتناع عن إبداء دهشتي من تذكره ، بكل تلك الدقة ، تكتيك مختلف المعلمين الذين أتى على ذكرهم ، فلابدّ إذن انه عُني كثيراً بالشطرنج ، بصورة نظرية على الأقل ، ولكن شفتي السيد ب ... افترتا مرة أخرى ، لدى سماعه هذه الكلمات ، عن ابتسامة جديدة حالمة ، ومن ثم توجه إليّ قائلاً :

— إذا كنتُ قد عُنيت بالشطرنج ! الله وحده يعلم مبلغ ما في قولك من الحقيقة . ولكن ذلك قد حدث في ظروف فريدة تماماً ، بل وحيدة من نوعها أيضاً . تلك قصة كثيرة التعقيد في الواقع ، يمكن أن تصلح ، على الأكثر ، كبرهان على روعة العصر الذي نحيا فيه . إذا كنت تملك الصبر على الاصغاء إليّ طوال نصف ساعة من الزمن ...

ودعاني ، باشارة من يده ، إلى اقتعاد الكرسي الطويل الموجود الى جانب مقعده ، فقبلت دعوته بكل طيبة خاطر . كنا وحيدين ، فنزع السيد ب ... نظارتيه ، وشرع يتحدث :

— لقد كنت لطيفاً فأخبرتني انك من أهالي فيينا ، وأنك تعرف الأسم الذي أحمله . ولكني أحسب على أية حال انك لم تسمع شيئاً عن مكتب المحاماة الذي كنت أشرف على إدارته ، بالاشتراك مع أبي أولاً ، ثم لوحدي فيما بعد .

ذلك أننا لم نكن نحامي عن قضايا متألقة ، من تلك القضايا التي تتحدث الصحف عنها وتضج بأخبارها ، كما أننا لم نكن نسعى إلى الزيادة من عدد زبائننا . وفي الحقيقة اننا لم نكن نمارس مهنة الوقوف الى جانب القضبان بكل معنى الكلمة ، بل كنا نكتفي بأن نكون مستشارين حقوقيين ، وبأن ندير شؤون املاك الأدبرة الكبيرة التي كان والدي — وهو نائب قديم عن الحزب الاكليريكي — يرتبط بها بصلات وثيقة متينة الأواصر .

« أضف الى ذلك — واني أستطيع أن أقول لك ذلك دون أن أبوح بأي سر ، ما دامت الملكية قد تلاشت حالياً — أن بعض أعضاء العائلة الامبراطورية قد عهدوا إلينا بأمر الاشراف على ثروتهم . وكانت هذه الروابط مع البلاط والاكليروس ترجع الى تاريخ جيلين كاملين — فقد كان أحد أعمامي طبيب الامبراطور ، وعم آخر رئيساً لدير سيتنستيتن — فلا يتوجب علينا اذن الا الاستمرار فيها بكل بساطة . ذلك كان نشاطاً هادئاً ، أخرس نوعاً ما ، تلقيناه ميراثاً لنا ، لا يتطلب الاحتفاظ به منا الا كتماناً مطلقاً ، وأمانة اكيدة مجربة ، وهما صفتان كان المرحوم والدي يتمتع بهما حتى درجة بعيدة . ولقد نجح في الحقيقة في الاحتفاظ لزبائنه بقسم مرموق من ثرواتهم ، بالرغم من التضخم المالي والثورة جميعاً .

« وعندما توصل هتلر الى الحكم في المانيا ، وشرع ينهب الكنيسة والأدبرة ، جرت عدة عقود ومداولات عن طريقنا ، في الجانب الآخر من الحدود ، في سبيل تجنب مصادرة املاك زبائننا المنقولة على الأقل . وفي ذلك الحين كنا نعرف ، والدي وانا ، عن سياسة روما والبلاط الامبراطوري السرية اكثر بما لا يقاس مما قد يتمكن الرأي العام من معرفته في يوم من الأيام . ولكن خاصة الكتمان التي كان مكتبنا يتميز بها — حتى لم تكن

هناك لوحة على الباب – والحذر الذي كان رائدنا في تجنب كل الأوساط الملكية، بصورة علنية على الأقل، قد وضعانا، فيما يبدو، في حمى عن التحقيقات المتطفلة. والحقيقة ان اية سلطة في النمسا لم تشك لحظة، في ذلك الحين، في ان البريد السري للبيت الامبراطوري يمر بكامله تقريباً بالمكتب التافه الذي كنا نديره في الطابق الرابع من إحدى البيوتات.

« ولكن الاشتراكيين القوميين، قبل ان يرسلوا جيوشهم تجتاح العالم بزمن طويل، قد شكلوا في البلدان المجاورة جيشاً آخر، لا يقل تنظيماً وتدريباً عن كتائبهم الأخرى، مؤلفاً من الحاقدين والمستائين الذين نجدهم في ظل مختلف الأنظمة السياسية دون تفريق، والذين كانوا يتسللون الى كل مكتب، وفي كل مشروع، ويتخذون مراكز تجسسهم حتى في غرفة دولفوس وشوشنيغ الخاصة. ولقد عرفت – ولكن بعد فوات الأوان لسوء الحظ – انهم قد وضعوا لهم صنيعة حتى في مكتبنا الصغير، لم يكن في الواقع الا اجيراً حقيراً اوصانا به احد الكهنة، فوظفناه عندنا وهدفنا من وراء ذلك ان نسبغ على مكتبنا مظهر اي مكتب اعمال عادي. ولم نكن نعهد اليه الا بعض الطلبات العديمة الخطر، ومهمة الرد على الهاتف، وترتيب بعض المصنفات المجردة عن كل اهمية. ولم يكن مسموحاً له ان يفتح البريد، كما كنت أكتب شخصياً على الآلة الكاتبة مختلف الرسائل الهامة، ولا أترك نسخاً عنها في المكتب أبداً، بل أحمل إلى داري سائر المستندات القيمة، وأقوم بمشاوراتي السرية في مصلى الدير، أو في دار عمي.

« وهكذا لم يعد في المكتب، بفضل هذه الاحتياطات، ما يستأهل أن يتجسس المرء عليه، بل لم يكن بدٌّ من صدفة سيئة كي يلحظ ذلك الرجل الطموح اننا نرتاب فيه، وأن كل شيء يحدث من وراء ظهره. لعلّ رسولاً عديم الحذر قد تحدث في حضوره، أثناء غيابي، عن « جلالته » بدلاً من ان

يدعوه « البارون بيرن » ، كما هو متفق عليه ، أو لعل ذلك الوغد قد فتح بعض الرسائل ، مناقضاً بذلك الأوامر الصادرة إليه ، وعلى أية حال فان مونيخ أو برلين قد عهدت اليه بأمر مراقبتنا ، وذلك قبل أن يراودني أقل شك في ذلك ، بل إني لم أتذكر إلا فيما بعد فقط ، عندما اعتقلت ، تلك الحماسة المفاجئة التي أبداها في المدة الأخيرة من خدمته عندنا ، وكيف كان يعرض عليّ ، بالحاح وإصرار ، ان يحمل رسائلي إلى مركز البريد . ولقد كنت ، من جانبي ، قليل الحذر نوعاً ما - إني أعترف بذلك - ولكن كم من السياسيين والضباط قد خدعوا بلؤم هذه الطعمة من الخونة ؟

« وما أسرع ما تأكدت ، بصورة محسوسة ، من الاهتمام الذي يوليني إياه الجستابو الذي اعتقلني رجاله في ذات الأمسية التي استقال شوشنيغ فيها ، عشية دخول هتلر الى فيينا . ومن حسن الحظ اني أحرقت الأوراق الأكثر أهمية ، مباشرة بعد سماعي خطاب الوداع الذي ألقاه شوشنيغ ، كما أرسلت الى عمي ، قبل أن يطرق رجال الشرطة بابي بدقيقة واحدة ، بواسطة مربيتي العجوز الأمينة ، كل الأوراق الضرورية لاثبات سائر الحقوق التي يملكها ديره وارشيدوقان هربا من البلاد .

توقف السيد ب . . . برهة عن رواية قصته كي يشعل سيجاراً ، فأضاء بريق اللهب الشديد فمه الذي كانت عرة عصبية ، سبق لي ملاحظتها ، تلوي زاويته . لم تكن تلك الا حركة خاطفة ، يكاد المرء ألا يلحظها ، ولكنها تسبغ على محياه بأسره تعبيراً قلقاً بصورة غريبة حقاً .

« لعلك تتصور اني سأحدثك الآن عن أحد معسكرات الاعتقال التي اقتيد اليها مالا يحصى عددهم من النمساويين الذين أرادوا ان يظلوا مخلصين لبلادهم ، وإني سأصف لك كل الاهانات والعذابات التي يقع المرء فريسة لها هناك .

ولكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث لي ، بل انني صُنفت في مقولة أخرى من المعتقلين ، فلم يضعوني مع اولئك البؤساء الذين كانوا موضع الثأر لحقد مديد دفعوا ثمنه إذلالاً حكمياً ونفسانياً مضنياً ، بل ضموني بالاحرى الى تلك الفئة الأقل عدداً التي كان القوميون الاشتراكيون يأملون أن ينتزعوا منها المال أو معلومات هامة تنفعهم في مشاريعهم ، فمن الواضح ان شخصي المتواضع ، بحد ذاته ، لم يك يثير اهتمام الجستابو في كثير أو قليل .

« ومما لاريب فيه انه قد بلغهم ، بطريقة ما ، اننا كنا المشرفين على أمور أكثر أعـــداء الحزب خطراً ورجال ثقتهم ، بحيث كانوا يأملون أن ينالوا معلومات مني ، معلومات يحيلونها اثباتات مرهقة ضد الأديرة ويبررون بها مصادرة أملاكها ، ويستفيدون منها في الوقت ذاته في حربهم على البيت الامبراطوري وسائر الملكيين المخلصين على حد سواء . كانوا يعللون انفسهم ، وهم على حق في ذلك ، بأن الثروات التي مرت من بين أيدينا قد تركت ، دون ريب ، بقايا محترمة في مكان ما يصعب الوصول اليه . وهكذا فقد اعتقلوني منذ اليوم الأول ، كي يجربوا أن يحملوني على الاعتراف بأساليب ليس من يجهل نتائجها الرائعة الممتازة .

« لم يكن القوم المنتسبون الى هذه المقولة يرسلون الى معسكر اعتقال اذن ، بل كان لهم مصير خاص يختلف كل الاختلاف . ولعلك تتذكر أنهم لم يلقوا بمستشارنا او البارون روتشيلد مثلاً وراء اسلاك الحديد الشائكة ، بل التمسوهما في الظاهر وانزلوهما في فندق احتل كل منهما فيه غرفة خاصة . ذلك هو فندق متروبول ، حيث اتخذ الجستابو مركزه الرئيسي ، وحيث قُدّر للشخص المغمور الذي هو أنا أن يسعد بالاقامة فيه .

« غرفة خاصة في فندق — هل يستطيع المرء أن يحلم بمعاملة أكثر انسانية؟

ولكن صدقني ، مع ذلك ، إنهم أرادوا من وراء إضافتنا في غرف فندق مدفأة ، بدلاً من الأكواخ المتجلدة والملأى بشراً ، ان يطبقوا علينا اسلوباً أشد دهاء ، ولكن ليس أكثر إنسانية على الاطلاق. ذلك أن الضغط الذي كانوا يريدون أن يرهقونا به ، كي ينتزعوا المعلومات منا ، هو بالأحرى من نوع أكثر مكراً من ضربات العصي والعذابات الجسدية الأخرى . كانوا يخضعوننا للعزلة التي لا يستطيع الدهاء ان يتخيل بعدها عزلة ، ولا يفعلون بنا شيئاً — بل يتركوننا فقط في وجه العدم ، لأنه من الواضح أن ليس في العالم شيء آخر يئيد على النفس الانسانية بصورة أشد ارهاقاً منه. كانوا يلجأون إلى اسلوب للضغط، إذ يلقون بنا في غرفة مغلقة من كل جانب على العالم الخارجي، سيحل شفاهنا ويحملها على النطق بصورة أكثر يقيناً من الضرب والبرد والزمهرير جميعاً .

« ولم يكن في الغرفة التي خصصوها لي في البدء ما يمكن أن يضايق المرء أو يزعجه ، فقد كان لها باب ، وسرير ، ومقعد ، ومغسلة ونافذة مشبكة بالقضبان الحديدية . ولكن الباب لا يبرح مقفلاً ليلاً ونهاراً ، كما مُنع عني كل كتاب ، او صحيفة ، أو ورقة ، أو قلم . ولم تكن النافذة تطل على اكثر من جدار مرتفع ، بحيث كنت لا ارى الا العدم حيثما تلفت حوالي . كنت غارقاً بكليتي في هذا العدم ، فقد انتزعوا مني ساعتي كي لا اتمكن من قياس الزمن ، وكذلك قلمي كي لا استطيع ان اكتب شيئاً ، وسكيني كيلا افتح اوردتي بها ، ولم يمنحوني حتى ولا تلك الذشوة الضئيلة التي ترسلها لفافة التبغ فينا . ولم اكن ارى قط اي محيا انساني ، اللهم الا وجه حارسي الذي تلقى الأمر بألا يوجه الكلام اليّ ، والا يجيب على اي سؤال اتوجه به اليه . اما الأصوات البشرية فلم تكن تطرق سمعي ابداً .

« كان هذا النظام الذي يحرم الحواس من كل غذاء في الليل والنهار على حد سواء يتركني وحيداً ، وحيداً بصورة تبعث على اليأس تجاه ذاتي وتجاه

أربعة أو خمسة أشياء خرساء لاحياة فيها : المنضدة ، والسرير ، والنافذة ، والمغسلة . كنت أعيش في هذا المحيط الأسود من السكون كالغطّاس تحت جرسه الزجاجي ، ولكن غطاس قد أخذ يحسُّ ان الحبل الذي يصله بالعالم قد انقطع ، وانهم لن يخرجوه من هذه الأعماق الخرساء قط . لم يكن لديَّ ههنا ما أفعله ، أو أسمعه ، أو أراه ، والعدم الذي يحمل على الدوار يسطو فيما حوالي ، فراغ لا أبعاد له في المكان والزمان جميعاً . كنت أذهب وأجيء في غرفتي ، وأفكاري تذهب وتجيء في رأسي دون راحة أو هدنة ، خاضعة للحركة نفسها .

« ولكن الأفكار ، مهما لاحت مجردة عن المادة ، تحتاج هي الأخرى إلى نقطة استناد ، وإلا فانها تأخذ بالدوران حول نفسها في حلقة مجنونة ، هي الأخرى لا تتحمل العدم مطلقاً . إن المرء ينتظر شيئاً منذ الصباح حتى المساء ، ولكن شيئاً لايحدث مطلقاً . وانه ينتظر ، ويبدأ الانتظار من جديد ، ولكن شيئاً لايحدث قط . إنه ينتظر ، ينتظر ، ينتظر ، والأفكار تدوّم ، تدوّم في رأسك دون هوادة ، حتى يؤلمك صدغاك ، ولكن شيئاً لايحدث دوماً . إن المرء يظل وحيداً ، وحيداً ، وحيداً ...

« ظلت الحال على هذا المنوال خمسة عشر يوماً خيبت خلالها خارج الزمان ، خارج العالم بأسره . كان يمكن أن يشتعل اوار الحرب دون أن أعرف عن ذلك شيئاً ، لأن العالم لم يعد يتألف بالنسبة إليَّ إلا من مائدة ، وباب ، وسرير ، ومقعد ، ومغسلة ، ونافذة ، وأربعة جدران أنظر عليها بثبات ذات الورق دوماً ، حتى احتفر كل خط من رسومها المتحركة كالمنقاش في دماغي ، لكثرة ما رأيته وتطلعت اليه .

« وبدأت الاستجوبات أخيراً . كنت أدعى بصورة مباغتة ، دون أن

أدري ان كنت في الليل أم في النهار . وكانوا يقودونك عبر أروقة وممرات عديدة ، دون أن تدري إلى أين ، وكنت تنتظر بعدذلك في مكان ما ، ومن ثم تجد نفسك على حين غرة أمام مائدة قد اجتمع حولها بضعة اشخاص في بزّات عسكرية . وكانت المائدة تحمل رزمة من الأوراق ، ومصنفاً لست تدري محتوياته ، وسرعان ما تبدأ الأسئلة: الأسئلة السافلة ، الأسئلة التي تخفي أسئلة أخرى، التي تسعى الى إيقاعك في الفخ والاطباق عليك. وبينا أنت تجيب على تلك الأسئلة ، تأخذ أيدٍ غريبة معادية تتصفح تلك الأوراق التي لاتدري محتوياتها، وريشة حاقدة تكتب محضراً للجلسة دون أن تدري ما تكتبه .

« ولكن أكثر ما كنت أخشاه في هذه الاستجوابات هو عجزي عن تخمين ما استطاع الجستابو أن يعرفه ، بفضل شبكته الجاسوسية ، عن سير أعمالي ، وما الذي يريد أن يعرفه مني في الوقت الراهن . كنت قد أرسلت الى عمي ، كما ذكرت لك ، الوثائق الأشد إدانة بواسطة مربيتي في اللحظة الأخيرة . ولكن هل تلقت المرأة الطيبة هذه الوثائق ؟ وإلى أية درجة قد خانني مستخدمي ؟ ما عساهم قد صادروا من رسائلي ، أو ما عساهم استدروه من كاهن مسكين قد استجوب بحذق في أحد الأديرة التي نمثلها ؟ كانوا يسألونني ، ويسألونني دون انقطاع :ما هي المصنفات التي اشتريتها لهذا الدير أو ذاك ؟ أية هي المصارف التي كنت اراسلها ؟ هل أعرف السيد الفلاني والسيد الفلاني ؟ هل كنت أتلقى رسائل من سويسرا أو من ستينو كيرزيل ؟ ولما لم أكن أستطيع أن أكوّن فكرة صحيحة عما يعرفونه حتى الآن ، فان كلاً من أجوبتي كان يحمل في طياته مسؤولية ساحقة ، فأنا قد أرسل إنساناً إلى الموت إذا قلت شيئاً لايعرفونه ، وأحمل الضرر إلى نفسي إذا لجأت إلى الصمت كثيراً .

« ولكن الاستجواب لم يكن أسوأ الأمور على أية حال ، بل أسوأ الأمور كان العودة الى العدم ، الى تلك الغرفة ذاتها ، أمام تلك المائدة عينها ، والسرير نفسه ، والمغسلة ذاتها ، وذلك الورق على الجدار الذي مابرح هو نفسه أيضاً ، إذ لا أكاد أصبح وحيداً من جـــديد ، مع افكاري ، حتى أروح أستعيد الاستجواب مرحلة مرحلة وافكر كيف كان يمكنني أن أعطي أجوبة أكثر حـــذقاً ، وما أستطيع أن أقول في المرة التالية كي ابعد الشكوك التي ربما ايقظتها هذه المرة بملاحظة لم تكن واجبة مطلقاً . كنت أتفحص ذلك ، واحتفره ، وادّقق في كل من شهاداتي ، واستعيد كل سؤال ، وكل جواب ، وأجرب أن أقدّر ما قد يكون المحضر قـد سجله وأنا أعرف كل المعرفة اني لن أتوصل الى ذلك قط .

« ولكن هذه الافكار تأخذ ، اذ ما انطلقت مرة ، بالدوران والدوران في رأسي ، وهي تركب فيما بينها أخلاطاً جديدة دون انقطاع ، وتلاحقني حتى أثناء نومي . وهكذا كان فكري الخاص ، بعد انتهاء كل استجواب ، يمدّد عذابه دون رحمة ، بل في قسوة تفوق قسوة القضاة الذين كانوا يرفعون الجلسة بعد ساعة من الزمان ، بينما الوحدة في غرفتي الخاصة تجعل عذابي لا ينتهي أبداً . فيما حولي ، لا يوجد قط شيء آخر سوى المائدة ، والخزانة ، والسرير ، والورق المصبوغ ، والنافذة ، وليس من تسلية ، ولا كتاب ، ولا صحيفة ، وليس من وجه سوى وجهي الخاص ، ولا قلم يسمح لي بتسجيل بعض الملاحظات ، ولا عود ثقاب العب به ، لا شيء البتة ، لاشيء ، لاشيء ! بلى ، لم يكن بدّ من عبقرية شيطان ، لم يكن بدّ من فنان في قتل الأرواح كي يخترع هذا النظام القائم على غرفة الفندق . ربما كنت أجبر في احد معسكرات الاعتقال على نقل الحجارة حتى تدمى يداي وتتجلد قدماي في حذائي ، وكنت أزرّب مع خمسة

وعشرين آخرين في البرودة والعفونة، ولكن كنت ارى وجوهاً على الأقل، كنت انظر الى حقل ما ، الى غراب طائر ، أو شجرة ، أو نجمة ، أي شيء يتغير بدلاً عن هذه الغرفة التي لاتتبدل قط ، الشبيهة بذاتها بصورة فظيعة في ثباتها الجامد . هناك ، ليس شيء يمكن أن يلهيني عن أفكاري ، عن تخيلاتي المجنونة ، من مراجعاتي المرضية . وذلك هو بالضبط ما كان يريده جلادوني - ان يضطروني على اجترار افكاري واستقصائها حتى تخنقني ، فلا استطيع ان افعل شيئاً آخر سوى بصقها ، إن صح التعبير ، والاعتراف ، الاعتراف بكل شيء ، مسلماً هكذا اصدقائي والمعلومات المطلوبة مني معاً . وكنت احس ان اعصابي قـــد اخذت تتراخى شيئاً فشيئاً تحت هذا الضغط المعذب ، فأروح اتصلب حتى اقصى قواي كي اجد لنفسي تسلية ما اتلهى بها .

« وشغلت نفسي باستعادة كل ما حفظته عن ظهر قلب فيما مضى من سنوات حياتي، وإعادة تركيبه من جديد كيفما اتفق : اغانٍ شعبية والحان صبيانية ، مقاطع من هوميروس تعلمتها في المدرسة ، وفصول من القانون المدني . ومن ثم كنت اجرب ان اقوم ببعض الحسابات ، فأجمع اعداداً مختلفة او اقسمها . ولكن ذاكرتي لم تكن تحفظ شيئاً في هذا الفراغ ، لأني كنت اعجز عن تركيز ذهني في اي شيء كان على الاطلاق . كانت الفكرة نفسها تتسلل في كل مكان : ما عساهم يعرفون ؟ ماذا قالت البارحـة ؟ ماذا يجب ان اقول في المرة القادمـة ؟

« حييت اربعة شهور في هـــذه الشروط التي لاتوصف . اربعة شهور : هاتان كلمتان يمكن كتابتهما بسرعـة ، وكذلك قولها ، كما تكفي ربع ثانية كي يتهجأها المرء ، وبعض الأحرف القليلة كي يسجلها على الورق . ولكن كيف يستطيع الانسان ان يصف او يعبر ، حتى بينه وبين ذاته ، عن هـذه الحياة

التي تنقضي خارج المكان والزمان ؟ حتى ان احداً لن يقول قط كيف يقرضك هذا الفراغ المجرد عن الشفقة ويدمرك ، وبأي اسلوب تفعل فيك رؤية تلك المائدة الأبدية وذلك السرير ، هـــذه المغسلة الخالدة ذلك الورق الملصوق بالجدار ، هذا السكون الذي يضطرونك اليه ، وموقف ذلك الحارس الذي لايتبدل ابداً ، والذي يضع الطعام امام سجينه دون أن ينظر اليه . ان افكاراً ، هي نفسها دوماً لاتتغير ، تدوم دون هوادة في الفراغ حول هذا المتوحد حتى تنتهي به إلى الجنون .

« وعرفت من بعض العلامات الباعثة على القلق ان دماغي قد اخذ ينهار . كانت افكاري تظل واضحة في البدء في حضور قضاتي ، فأقدم شهادات هادئة عاقلة ، منتقياً في ذهني بجلاء تام مايجب ان اقول وما يجب الا اقول . اما الآن فلم اعد استطيع ان اتفوه بجملة واحدة دون تأتأة وارتباك ، لاني كنت اشخص وانا اتفوّه بها الى ريشة الكاتب التي تركض على الورق ، وكأني مسحور بها ، او كأني اريد ان اركض وراء كلماتي الخاصة . كنت احس ان قواي تتناقص ، وان اللحظة التي سأقول فيها كل ما اعرفه ، واكثر من ذلك أيضاً ، أملاً في انقاذ نفسي من هذا العذاب ، تقترب بسرعة جنونية ، فأخون اثني عشر رجلاً واسرارهم التي اؤتمنت عليها ، كي افلت من قبضة هذا العدم القاتلة ، ولو لم اربح من ذلك الا لحظة واحدة من الراحة ليس غير .

« كنت في هذه الحال ، ذات مساء ، عندما حمل الحارس إليّ طعام العشاء ، فرحت اهتف به : قدني الى القضاة ! سوف اقول كل شيء : سوف اقول اين توجد الأوراق ، واين يوجد المال ! سوف اقول كل شيء ! كل شيء ! » . ومن حسن الحظ انه لم يسمعني ، او لعله لم يشأ ان يسمعني . كنت في هذه الحال اذن عندما جرى حادث لم يكن في الحسبان ، حادث كان خلاصي ، لفترة من

الزمن على الأقل . حدث ذلك ذات يوم أغبر حزين من نهاية تموز – وإني لأتذكر هذه التفاصيل جيداً لأن المطر كان يقرع زجاج النوافذ على طول الممر الذي كانوا يقودونني عبره إلى غرفة الاستجواب . وتركوني أنتظر في غرفة جانبية . لم يكن بد دوماً من الانتظار طويلاً ، قبل الظهور أمام القضاة ، فذلك جزء من المنهج الذي يطبقونه علينا . كانوا يبدأون بزعزعة أعصاب السجين إذ يطلبونه بغتة في منتصف الليل ، حتى اذا تمالك نفسه ، ووتر كل قواه في انتظار الجلسة العتيدة ، جعلوه ينتظر ، ينتظر بصورة سخيفة ، ساعة ، ساعتين ، ثلاث ساعات ، قبل أن يستجوبوه ، وذلك كي يقتلوه جسداً وروحاً معاً . وبقيت واقفاً في غرفة الانتظار طوال ساعتين ، في ذلك الخميس السابع والعشرين من تموز – إني أتذكر هذا التاريخ لأن تقويماً كان معلقاً في جدار الغرفة التي انتظر فيها – وبينا كانت ساقاي تدخلان في جسدي لكثرة الوقوف – من الواضح ان الجلوس كان ممنوعاً – راحت عيناي تلتهمان ، في ظمأي الشديد إلى القراءة ، ذلك الرقم وتلك الكلمة ، ٢٧ تموز ، اللذين نفصلان بكل وضوح على جدار القاعة .

« ومن ثم عدت انتظر ، وأرى الى الباب ، وأتساءل متى سيفتح ، وافكر فيما سيسألني القضاة عنه هذه المرة ، وانا أعلم حق العلم انهم لن يطرحوا علي الأسئلة التي أتوقعها وأتهيأ لها . وكنت أشعر ببعض الارتياح ، بالرغم من القلق الذي يبعثه في ذلك الانتظار ، وبالرغم من الاعياء الذي يسببه لي ، إذ اجد نفسي في غرفة أخرى غير غرفتي ، غرفة اكبر منها قليلاً ، تنيرها نافذتان ، ولا يوجد فيها سرير ومغسلة ، ولا تبدي أخشابها بعض الفرجات التي لاحظتها ملايين المرات في خشب غرفتي . كانت الألوان مختلفة ، والمقعد كذلك . وكانت خزانة ملأى بالمصنفات تقوم عن يسار الباب ، والى جانبها مشجب يتدلى منه

اربعة او خمسة معاطف عسكرية مبتلة ، معاطف الجلادين الذين يرهقونني .

« وهكذا وجدت أشياء جــديدة أتطلع اليها - أشياء جديدة اخيراً ، تعلقت عيناي بها في نهم عظيم . كنت أملي النظر في كل طية من طيات المعاطف ، فألاحظ مثلاً قطرة من المطر على حافة ياقة مبتلة ، فأروح انظر في انفعال قد يبدو لك مضحكاً إذا كانت هــذه القطرة ستسيل على طول الطية أو تقاوم ثقل الجاذبية طويلاً بعد . بلى ، لقد كنت أشخص ، لاهثاً ، الى هـذه القطرة بضعة دقائق ، وكأن حياتي متعلقة بها . وعندما سقطت أخيراً ، شرعت أحصي الأزرار في كل معطف على حدة : ثمانية في المعطف الأول ، وثمانية في الثاني ، وعشرة في الثالث ، ومن ثم شرعت أقارن بين الحواشي . كانت عيناي تنهلان هذه التفاصيل التافهة ، تتغذيان بها وتتلذذان في هوى لا استطيع التعبير عنــه بالكلمات المجردة .

« وفجأة ، وقعت على شيء آخر ، شيء ينفخ جيب أحد المعاطف . اقتربت قليلاً ، فخيل الي اني رأيت ، من خلال القماش المتوتر ، الشكل المستطيل الذي يمتاز الكتاب به . كتاب ! أخذت ركبتاي ترتعشان . كتاب ! هـذه اربعة شهور قد انقضت دون ان امسك كتاباً في يدي ، فكان مجرد تمثله يبهر عينيّ ويعميها . كتاب سوف أرى فيه كلمات مصطفة الواحدة الى جانب الأخرى ، واسطراً ، وصفحات ، وورقات استطيع أن اقلبها . كتاب استطيع فيه ان اتبع افكاراً أخرى ، افكاراً جديدة تبعدني عن افكاري ، افكاراً أستطيع ان احتفظ بها في رأسي . يالاكتشاف المسكر والمهدىء معاً ! وعلقت عينـاي ، مسحورتين ، بذلك الجيب المنتفخ حيث يرتسم شكل الكتاب ، محرقتين فكأنهما تريدان ان تثقبا ذلك المعطف . ولم استطع ان اقاوم نفسي ، فاقتربت اكثر من ذي قبل . كانت أصابعي تحترق حتى نهاية الأظافر ، لمجرد فكرة جس

ذلك الكتاب ، حتى من خلال قماش المعطف السميك ، فأدنو منه دوماً اكثر فأكثر ، دون وعي مني تقريباً .

« ومن حسن الحظ ان الحارس لم يكن يعير أي انتباه لسلوكي الغريب . لعله كان يرى من الطبيعي أن يسعى المرء الى الاستناد قليلاً الى الحائط بعد ساعتين من الوقوف المستمر . وبلغت المعطف أخيراً ، فوضعت يدي خلف ظهري كي استطيع أن المسه خفية. تلمست القماش ،فشعرت حقاً بشيء مستطيل الشكل ، مرن القوام ، يطقطق قليلاً تحت اصابعي - إنه كتاب ! إنه كتاب حقاً وفعلاً ! وانبثقت هذه الفكرة ، مثل البرق ، في ذهني : جرب أن تسرقه ! لعلك تنجح في ذلك ، فتخفيه عندئذ في غرفتك ، وتقرأ ، وتقرأ ، وتقرأ أخيراً ، تقرأ من جديد ! ولم تكد هذه الفكرة تراودني ، حتى راحت تفعل فيّ فعل سم عنيف ، فاذا أذناي تطنان ، وقلبي يخفق ، ويداي المتجلدتان لا تطيعانني .

« ولكن لم ألبث ان التصقت في مكر بالمعطف، بعد ان زاولني ذهولي الأول ، واخرجت الكتاب شيئاً فشيئاً من الجيب وأنا أشخص بثبات الى الحارس . هذا هو! أمسكت به بحذر شديد ، فاذا في يدي مؤلف صغير رقيق جداً . عندئذ فقط ذعرت لما فعلته ، ولكن لم اكن استطيع أن أتراجع بعد الآن . اين أضعه حالياً ؟ ودفعت الكتاب في سروالي ، وهو خلف ظهري دوماً ، تحت الزنار ، ومن هناك أتيت به ، بكل لطف ، حتى وركي ، بحيث أستطيع ان أمسك به وانا اسير ، اذا وضعت يدي على خياطة السروال كما تتطلب المشية العسكرية . وكان لابد لي ، حالياً ، من تجربة خدعتي ،فابتعدت عن المشجب ، خطوة خطوة ، فخطوتين ، فثلاث خطوات . ان كل شيء على ما يرام ،فقد تمكنت من الاحتفاظ بالكتاب في مكانه ، طالما ظل ذراعي ملتصقاً بجسدي ، في موضع الزنار .

« ومن ثم كان الاستجواب ، فتطلب مني جهداً أعظم منه في أي وقت آخر ، لأن كل انتباهي كان مركزاً في الكتاب والطريقة التي أمسكه بها ، بالأحرى من الأجوبة التي أقدمها. ومن حسن الحظ أن الجلسة كانت قصيرة ذلك اليوم ، فرجعت بالكتاب سالماً إلى غرفتي . واني اوفر التفاصيل عنك، فقد انزلق مرة ، بصورة خطرة جداً ، ضمن سراويلي بينما كنت أجتاز الرواق ، فاضطررت إلى ادعاء نوبة عنيفة من السعال كي انطوي على نفسي، وادفعه خفية تحت الزنار من جديد . ولكن أية لحظة لا تنسى تلك التي وجدتني فيها من جـديد في جحيمي ، وحيداً أخيراً ، لكن برفقة هـذا الشريك الثمين مع ذلك .

« لعلك تتخيل ، من دون أدنى ريب ، أني قد تناولت الكتاب مباشرة من مخبئه كي أتأمله وأقرأه . إني لم أفعل شيئاً من ذلك . أردت قبلاً أن أتذوق كل الفرح الذي يمنحني إياه مجرد وجود هذا الكتاب، فرحت أؤخر لحظة رؤيته ، كي أحلم ، متلذذاً ، بما يمكن أن يحويه . كنت أتمنى قبل كل شيء أن يكون صغير الأحرف متقاربها ، كي يضم أطول نص ممكن ، وأن تكون أوراقه رقيقة للغاية ، كي يكون لدي شيء كثير أقرأه . وكنت آمل ايضاً ان يكون مؤلفاً صعباً ، يتطلب جهداً فكرياً عظيماً ، شيئاً يمكن حفظه عن ظهر قلب ، شعراً مثلاً ، والأفضل - يا للحلم الجريء - جوته أو هوميروس . واخيراً لم أعد استطيع أن أتمالك رغبتي وفضولي ، فاضطجعت على فراشي بحيث لا يستطيع الحارس ان يفاجئني إذا دخل علي بصورة مباغتة، وتناولت الكتاب ، مرتعش الأوصال ، من زناري .

لشم ما كان غيظي عظيماً وخيبتي مريرة لدى النظرة الأولى : ان هذا الكتاب الذي سلبته معرّضاً نفسي لأعظم الأخطار ، هذا الكتاب الذي أيقظ فيّ آمالاً ملتهبة رائعة ، لم يكن إلا بحثاً في لعبة الشطرنج ، مجموعة من مائة وخمسين شوطاً لعبها أرباب الرقعة وأساتذتها . ولو لم أك سجيناً قد أرتجت سائر المنافذ عليّ ، إذن لأطحت بالكتاب من النافذة في حمأة غضبي المتأجج ، إذ ماذا استطيع — بحق السماء — أن أستفيد من هذا البحث الذي وقعت عليه ؟ صحيح أني جربت ، أيام كنت في المدرسة بعد ، أن أدفع البيادق على الرقعة مثلي في ذلك مثل أغلب أصدقائي في الأحيان التي كان الضجر ينتابنا فيها . ولكن كيف سبيلي الآن إلى الاستفادة من هذا المؤلف النظري ؟ اننا لا نستطيع أن نلعب الشطرنج من دون شريك ، واقل من ذلك ايضاً دون رقعة وبيادق .

« تصفحت المؤلف في كثير من النقمة ، أملاً أن أجد فيه على اية حال ما أقرأه ، مقدمة موضوعة له مثلاً ، أو بعض التعليمات والملاحظات على الأقل : لكنه لم يكن يحوي الا مخططات تمثل الأشواط الشهيرة ، وإلى الأسفل منها إشارات بدت لي غامضة الوهلة الأولى : آ ٢ — آ ٣ ، و ١ — ز ٣ ، وهكذا دواليك . إنّ ذلك الا نوع من الجبر ، فيما صوّر لي ، لا أملك مفتاحه مطلقاً.

« وأدركت شيئاً فشيئاً أن الأحرف آ ، ب ، ج ، تشير إلى الخطوط الطولانية ، وأن الأرقام ١ — ٨ تشير على العكس الى الخطوط العرضانية ،

وان هاتين الحاصلتين تمكنانني من تحديد موضع كل قطعة خـلال الشوط بكامله ، بحيث ان هذا التمثيل الصوري الخالص هو نوع من اللغة الخاصة في هذا المضمار . وحدثتُ نفسي إني قد أستطيع أن اصنع شيئاً كرقعة الشطرنج ، وأن أجرب بعد ذلك أن ألعب هذه الأشواط الوارد ذكرها في الكتاب ، فاذا بي أجد – ألا شكراً للسماء ! – أن غطاء فراشي مقسم الى مربعات ، فطويته بعناية حتى جعلت منه في النهاية رقعة ذات أربعة وستين بيتاً ، ومن ثم أخفيت الكتاب تحت الفراش ، بعد أن نزعت منه الورقة الأولى . واقتصدت بعض فتات اللب من حصتي من الخبز ، وصنعت منها القطع اللازمة لي ، الشاه ، والملكة ، والمجنون ، وكل القطع الأخرى . كانت مشوهة بكل تأكيد ، ولكني توصلت على أية حال ، ليس دون عناء كبير ، إلى تمثيل مراكز مختلف البيادق التي يذكرها الكتاب ، وذلك على غطاء فراشي ذي المربعات بالذات .

« وبالرغم من كل ذلك فقد كنت أفشل في البدء كلما جربت أن ألعب شوطاً كاملاً ، وذلك بسبب من بيادقي المضحكة المصنوعة من لب الخبز ، والتي كنت أخلط فيما بينها باستمرار ، لأني لم أستطع الى تمييز القطع السود سبيلاً الا برشها بالغبار الذي يقوم مقام الصبغة بالنسبة الي . واضطررت الى إعادة هذا الشوط خمس مرات ، عشر مرات ، بل عشرين مرة ، ولكن أي انسان في العالم يملك وقتاً فارغاً أكثر مني ، في هذه العبودية التي أخضعني العدم لها ؟ أي انسان يمكن أن يكون أكثر نهماً مني واكثر صبراً في الوقت ذاته ؟

« وأصبحت ألعب هذا الشوط بصورة صحيحة بعد ستة أيام فقط ، ولم تمض ثمانية ايام أخرى حتى لم تعد بي حاجة إلى قطع لب الخبز كي أتمثل مراكز الخصمين المختلفة على الرقعة ، حتى اذا انقضت ثمانية أيام أيضاً نزعت الغطاء ذا

المربعات نهائياً واستغنيت عنه ، فالاشارات آ ١ ، آ ٢ ، جـ ٧ ، جـ ٨ ، التي لاحت لي كثيرة التجريد في البدء ، قد اصبحت حالياً تتخذ شكلاً حسياً بما اكتسبته من الصور البصرية ، كما صار الانتقال بين المجرد والحسي تاماً ، فرقعة الشطرنج وقطعها تسقط في ذهني ، وصيغ الكتاب تمثل فيه مباشرة ، مراكز متبادلة . لقد أضحيت هكذا أشبه بموسيقي متمرن يكفيه أن يلقي نظرة سريعة على أوراق الأنغام كي يسمع رأساً ألحانها وتناسقها . ولم يكن لي بد من خمسة عشر يوماً آخر كي العب عن ظهر قلب كل الأشواط المشروحة في الكتاب ، وعندئذ فقط ادركت أي خير لا يقدّر حملته تلك السرقة الجريئة الي ، اذ أصبح لي حالياً نشاط يشغلني ، وقد يكون مجدباً ، ولكنه نشاط على أية حال يهدم سطوة العدم على نفسي ويحطمها . كنت أملك ، بهذه الأشواط المائة والخمسين من الشطرنج ، سلاحاً مدهشاً ضد سيلان الزمان والمكان الرتيب الخانق .

« وقسمت نهاري بصورة منهجية كي أحتفظ لهذه الفعالية الجديدة بسحرها وفتنتها : شوطان في الصباح ، وشوطان بعد الظهر ، ومراجعة مختصرة للأشواط الأربعة في المساء . وهكذا اصبح وقتي مليئاً ، بدلاً من ان يتجرجر مثله قبلاً ، متقلقلاً كالهلام السيال ، واصبحت مشغولاً دون إفراط ، لأن لعب الشطرنج يتمتع بهذه الميزة الرائعة ، وهو انه لا يتعب الفكر ، بل يضاعف بالأحرى من مرونته وحيويته ، الأمر الذي يتأتى من أننا نركز ، حين نلعب ، كل امكانياتنا الفكرية في ميدان ضيق جداً ، حتى حين تكون قضاياه عويصة شائكة معقدة . ولقد تبعت في البدء ، بصورة آلية ، تعليمات الكتاب ، ولكن ذلك أصبح شيئاً فشيئاً رياضة فكرية بالنسبة الي ، أُسَرُّ بها كثيراً ، فأتعلم دقائق الهجوم والدفاع وحيلها الماكرة ، وأدرك تكتيك

توجيه الضربات والرد عليها . وسرعان ما اصبحت قادراً على معرفة الطريقة الخاصة بكل من اللاعبين المشاهير بصورة لاتقل يقيناً عن معرفتنا بالشاعرلدى قراءة بعض الأبيات من احدى مؤلفاته . واذا ما كان في البدء وسيلة لقتل الوقت يصبح نوعاً من التسلية الحقيقية ، واذا لاعبو الشطرنج الكبار ، ألجيشين ، لاسكر، بوغولجوبوف ، تاراكوير ، يأتون فيسكنون وحدتي بكل لطف ودعة ورقة .

«وبعث هذا التنوع الحياة في غرفتي منذ ذلك الحين ، كما رد انتظام هذه التمارين الثبات الى امكانياتي الفكرية . بل ان هذه الرياضة الفكرية الصارمة قد منحتها حدة جديدة بدت فائدتها أول ما بدت في الاستجوابات التي كنت أمر بها ، إذ تمكنت من تحسين دفاعي وتقويته ، بواسطة رقعة الشطرنج ، ضد الخداع الدنيء واللف والدوران السافلين وذلك دون دراية مني أو معرفة في الحقيقة . ومنذ ذلك الحين لم اضعف البتة أمام قضاتي ، بل خيل الي انهم ينظرون الي في شيء من الاحترام . لعلهم كانوا يتساءلون ، بينهم وبين أنفسهم ، من أين أستقي تلك القوة على المقاومة بكل هذا الثبات ، بينا سائر الآخرين ينهارون ويتحطمون . ولقد دام ذلك الزمن السعيد الذي راجعت فيه بصورة منهجية الأشواط المائة والخمسين التي يحويها الكتاب ثلاثة اشهر تقريباً ، وعندئذ وجدت نفسي بغتة ، بعد ان بلغت نهاية المطاف ، امام العدم مرة أخرى . ان شوطاً ألعبه عشرين او ثلاثين مرة ليفقد جاذبية الجدة بالضرورة ، وتنفد فضائله بالتالي وتتلاشى . اي معنى في الاستمرار ، مادمت اعرف كل حركة عن ظهر قلب ؟ ان الحركة الأولى تستدعي الحركات التالية بصورة آلية محضة ، بحيث لم تعد هناك أية مفاجأة ، كما لم تعد هناك اية مشكلة على الاطلاق .

« وكي أسترد هذه التسلية التي لم أعد أستطيع إستغناءً عنها ، لم يكن لي بد من جزء ثانٍ من ذلك المؤلف . وإذ كان مجرد التفكير في ذلك ضرباً من المستحيل ، لم أجد أمامي إلا مخرجاً وحيداً ، ألا وهو اختراع أشواط أخرى أجرب أن العبها مع نفسي ، أو بالأحرى ضد نفسي . لست أدري إن كنت تأملت في الحال الفكرية التي يرميك ملك الألعاب في لجتها : ههنا لاتلعب الصدفة أي دور مطلقاً ، بل إن جاذبية لعبة الشطرنج تقوم في المحل الأول في هذه الحقيقة ، ألا وهي أن دماغين يتصادمان فيها ، كل منها بتكتيكه الخاص. وفي الحقيقة إن أهمية هذه المعارك الفكرية تكمن في أن السود لايعرفون البتة كيف سيلعب البيض ، فهم إذن يسعون باستمرار إلى تخمين نواياهم كي يسدوا عليهم الطريق ؛ بينما البيض يجربون ، من جانبهم ، أن يكشفوا عن نوايا السود الخفية ، ويعترضوا سبيلها قبل أن تبلغ نصيباً من النجاح .

« ولكن الحال تصبح متناقضة طبعاً إذا كان شخص واحد يمثل كلا المعسكرين . كيف يمكن للفكر أن يعرف الهدف الذي وضعه نصب عينيه وهو يلعب بالقطع البيض ، ثم ينساه مرغماً عندما يضع مشاريعه مع القطع السود ؟ إن مثل هذا التضاعف الفكري يفرض تضاعفاً تاماً في الوجدان ، ويشير إلى امكانية غريبة على عزل بعض وظائف الدماغ ، حسب مشيئة الارادة وحدها ، فكأننا نشتغل بجهاز آلي خالص . ان يرمي الانسان الى لعب الشطرنج ضد نفسه ، ذلك يساوي سعيه إلى المسير فوق خياله بالذات .

« حسناً ! إن اليأس قد دفعني طوال أسابيع عديدة نحو هذا العبث عينه ، فالشروط التي أعيش فيها تجبرني على تجربة هذا التضاعف الذي اخضع له فكري بين انا بيضاء وأخرى سوداء ، ما دمت لا أريد ان يستحقني ذلك العدم الرهيب الذي يطوقني من كل خدب وصوب ، ويضيق الخناق علي دون رحمة أو شفقة .

واضطجع السيد ب . . . على مقعده الطويل ولجأ الى الصمت برهة ، فكأنه يحاول أن يطرد ، في عناء وجهد ، ذكرى متطفلة . وبدت تلك العرة التي لفتت انتباهي عند زاوية فمه مرة أخرى ، ومن ثم نهض عن كرسيه واسترسل قائلاً :

« أظن ان قصتي كانت واضحة حتى هنا . ولست أدري من سوء الحظ هل ستكون بقيتها كذلك أيضاً ، لأن المهمة الجديدة التي انصرفت اليها كانت تتطلب مني توتراً فكرياً عظيماً أحال كل سيطرة على ذاتي ضرباً من المستحيل بالنسبة الي . ربما كنت أحظى بنصيب ضئيل من حظ الخروج من ذلك المأزق لو وجدتني امام رقعة حقيقية تسمح لي ، نوعاً ما ، باسقاط الاشياء في المكان ، فالمرء يستطيع أن يهب قياساً لأفكاره امام رقعة الشطرنج ، وامام قطع حقيقية يحركها ، كما يقدر ان ينتقل حكمياً في مثل هذه الحال من جانب المائدة الواحد الى جانبها الآخر ، ويرى الى الأمور تارة من وجهة نظر السود وتارة اخرى من وجهة نظر البيض . ولكن لم يكن لي بدّ ، وانا مضطر الى شن المعارك ضد نفسي ، او اذا كنت تفضل ذلك ضد أنا اسقطها في فراغ خيالي - من ان انصور بكل جلاء مراكز القطع المتتابعة ، وامكانيات كل من الخصمين ، ومن أن ارى في ذهني بكل وضوح - مهما بدا ذلك مستحيلاً وغير معقول - ستة ، او ثمانية ، او اثني عشر وضعاً مختلفاً ، وذلك كي احسب سلفاً اربع او خمس حركات لكل من الخصمين اللذين كنت امثلهما وحدي .

« كان دماغي ينقسم الى دماغ ابيض ودماغ اسود اذا صح التعبير ، وذلك كي اتمكن من متابعة هذا اللعب في فراغ مجرد ، ومن ترتيب الحركات التي يمليها عليّ تكتيك المعركة في كلا المعسكرين . ولكن اخطر ما في الأمر لم يكن ذلك الانقسام في الفكر الذي اخضع له داخلياً ، بل بالأحرى وقوع

كل شيء في مجال الخيال وحده : كنت أتعرض هكذا لخطر السقوط مباغتة، والانزلاق في الهاوية العميقة المخيفة التي تفغرفاها تحت قدميّ . حين كنت قبلاً اكرر اشواط الكتاب لم أكن افعل سوى نقل نسخة طبق الأصل عنها ، فلا يتطلب التمرين مني جهداً اكثر مما يتطلبه تذكر مقطوعة شعرية أو فصل من القانون المدني . تلك كانت فعالية محدودة ، منظمة ؛ رياضة فكرية مرموقة بكل بساطة .

« شوطان صباحاً ، وشوطان بعد الظهر .. هكذا كنت احقق برنامجي دون كثير من الانفعال . كان اللعب يقوم لديّ مقام الأشغال العادية ، فاذا أخطأت أو ترددت اثناء أحد الاشواط أسرع الكتاب فمدّ إليّ يد المعونة . واذا حمل ذلك النشاط الخلاص إلي ، فلأنني لم اكن العب شخصياً ، بحيث لم اكن ابالي ان فاز السود أو البيض بالنصر ، بل ذلك أمر يهم الجيشين او بوغولجوبوف اللذين يجدّان في طلب شرف البطولة ، بحيث كانت لذتي هي لذة المتفرج ليس غير ، لذة العارف الذي يقدر تقلبات المعركة ويستمتع بروعتها . ولكن منذ اخذت العب ضد نفسي ، فقد اصبحت ، دون وعي مني ، أتحدى نفسي باستمرار ، فالأسود الذي هو انا يباري الأبيض الذي هو انا أيضاً ، وكل منهما يريد ان يربح ويتغلب على الآخر ويقهره . وكانت فكرة ما سأفعله عندما العب بالبيض تبعث الحمى في اوصالي بينما العب بالسود ، واحد الخصمين اللذين يكمنان معاً فيّ يفوز ويغضب في الوقت نفسه عندما يرتكب الآخر خطيئة أثناء الكر والفر المتعاقبين .

« لعل كل هذا يلوح مجرداً عن كل معنى تماماً ، وانه ليكون كذلك في الحقيقة لو أننا تجـاه انسان طبيعي يعيش في شروط طبيعية . اية قصة لا يتصورها الخيال ، هذا التضاعف غير المعقول للشخصية الانسانية ! ولكن

لاتنسَ اني قد انتُزِعْتُ في قسوة من بيئتي المعتادة . وأني كنت أسيراً بريئاً ، تعذبني الوحدة منذ أشهر عديدة ؛ لاتنسَ اني كنت إنساناً تراكم الغضب في فؤاده دون ان يستطيع أن يفجره على أي شيء أو أي شخص مطلقاً . ولما لم أكُ أملك تسلية ما ، اللهم الا هذا اللعب اللامعقول ضد نفسي ، فان نقمتي ورغبتي في الثأر قد انصبتا عليه في هياج شديد . كان فيّ انسان يريد أن يدافع عن حقوقه ، ولكنه لايستطيع ان يفعل ذلك الا ضد تلك الأنا الأخرى التي ألعب ضدها ، بحيث ان هذه الأشواط من الشطرنج قد اوقعتني في هياج شيطاني تقريباً . كنت استطيع بعد ، في البدء ، ان العب بهدوء ، وأتوقف بعض الزمن بين كل شوط وآخر كي انال قسطاً من الراحة . ولكن سرعان ما منعت عني أعصابي المهتاجة كل راحة ممكنة ، فلا أكاد العب بالبيض حتى ينتصب السود أمامي ، مرتعشين مرتجفين ؛ ولا أكاد أنتهي من شوط حتى يهب نصف ذاتي يتحدى النصف الآخر ، لأني كنت أحمل دوماً في باطني مغلوباً يطالب بالثأر .

« ولست استطيع ان اذكر ، حتى ولا على وجه التقريب ، عدد الأشواط التي لعبتها هكذا في شرودي الذي لايرتوي — ربما الف شوط ، وربما اكثر من ذلك ايضاً . إن شيطاناً يسكنني دون أن استطيع مقاومته البتة . لم اكن أرى ، طوال النهار ، سوى البيادق ، والأبراج ، والمجانين ، والملوك ، ولم اكن افكر الا في الانتصار والهزيمة ، وكل كينونتي ، كل حساسيتي قد تمركزتا على بيوت رقعة الشطرنج الوهمية . لقد انقلب سروري باللعب رغبة عنيفة ، والرغبة إلزاماً ، او جنوناً مهووساً بالأخرى يجتاح أيامي ولياليّ على حد سواء . لم أعد افكر الا في الشطرنج ، وتحريك القطع ، بل غالباً ما كنت استيقظ متصبّب الجبين عرقاً ، كي ادرك اني تابعت اللعب اثناء نومي . وإذا رأيت

وجوهاً بشرية في أحلامي ، فقد كانت تظهر لي دوماً في اشكال البرج ، والفارس ، والمجنون . . .

« واصبحت افكاري مضطربة مبلبلة في جلسات الاستجواب . يخيل إلي أني قلت أشياء غامضة في المرات الأخيرة ، لأن القضاة كانوا يتراشقون بنظرات مدهوشة. وفي الحقيقه إني لم اكن أنتظر ، في هواي الصادي - بينا هم يسألون ويتشاورون - إلا اللحظة التي يعيدونني فيها الى غرفتي حيث أستطيع أن أتابع لعبي الجنوني. شوط واحد، شوط واحد أيضاً! كان كل تدخل يضايقني، حتى ربع الساعة الذي كان الحارس ينظف غرفتي اثناءه ، بل حتى تينك الدقيقتين اللتين يستغرقهما عندما يأتيني بطعامي . وغالباً ما كان الغداء يظل حتى المساء في وعائه، دون أن ألمسه ، لأني أكون قد نسيت أن أتناوله . لكن العطش كان يلهبني بالمقابل ، وسببه من دون ريب ذلك اللعب المحموم وتلك الأفكار الدائبة ، فأنا أفرغ زجاجتي دفعة واحدة ، وأتوسل إلى الحارس كي يأتيني بالماء ، واذا فمي يضحي جافاً من جديد ، في اقل من لحظة واحدة .

« وأخيراً بلغ هياجي درجة لم أعد استطيع معها البقاء دقيقة واحدة جالساً في مكاني . لم اكن أفعل شيئاً آخر ، طوال النهار ، سوى اللعب ، وانا أذرع غرفتي في جيئة وذهوب لاينقطعان ، مضاعفاً في سرعتي دوماً ، حائاً خطاي باستمرار كلما اقترب الشوط من نهايته . كانت الرغبة في الربح ، في الفوز ، في التغلب على نفسي ، تصبح نوعاً من الهياج شيئاً فشيئاً ، فأروح أرتجف في فراغ صبري ، لأن أحد الخصمين اللذين يسكنانني كان دوماً بطيئاً جداً على حساب الآخر . كانا يتناحران ، فأروح أحثُّ نفسي - مهما بدا ذلك سخيفاً في نظرك - « أسرع ، أسرع ! هيا ، هيا ! » ، وذلك كلما تأخر الردُّ قليلاً ، وهو يتأخر دوماً في إحساسي . . . !

« أنا اعرف اليوم ، طبعاً ، ان هذه الحال الفكرية كانت مرَضية غير طبيعية ، فلا اجد لها إلا هذا الاسم : « التسمم بلعبة الشطرنج » الذي لم يرد بعد في القاموس الطبي . إن هذا الجنون الذاتي قد انتهى إلى تسميمي جسداً وروحاً ، فأصابني الهزال ، واصبح رقادي مضطرباً متقطعاً ، فاذا استيقظت أحسست اجفاني ثقيلة كالرصاص ، لااستطيع ان أباعد ما بينها الا بجهد عظيم . وقد اصبحت ضعيفاً جداً ، كما شرعت يداي ترتجفان بصورة تمنعني عن رفع كأس الماء إلى شفتي الا بأعظم العناء . ولكن لايكاد الشوط يبدأ حتى تسحرني قوة متوحشة ، فأروح في غرفتي وأجيء ، مطبق القبضتين ، واسمع احياناً صوتي الخاص ، يأتيني من خلال سحابة أشبه بالضباب المحمر ، يهتف في صدى أبح مفعم شراً وخبثاً : « مات الشاه ! » او « احترس ! » .

« ولست استطيع أن أروي لك كيف حدثت النوبة التي تعرضت لها . كل ما اعرفه هو اني استيقظت ذات صباح جميل بطريقة تختلف عن يقظتي المعهودة . كان جسدي كأنه قد تحرر من ذاتي ، يتمدد في إعياء وطراوة ، وفي شيء من الرفاهية اللذيذة أيضاً . إن تعباً كبيراً طيباً ، لم أتذوقه منذ أشهر عديدة ، يشيد على جفني ، ويبعث فيّ إحساساً عظيماً من العيش الرغيد بحيث لم أستطع ان أحمل نفسي على فتح أجفاني مباشرة ، فبقيت على هذا المنوال بضع دقائق ، أتمتع بهذا الخمول ، وأتذوق دفء سريري في إعياء لذيذ رائع . وخيل إلي ، على حين غرة ، إني أسمع أصواتاً الى الوراء مني ، اصواتاً بشرية ، حارة حية ، تتفوه بكلمات هادئة ، بحيث انك لاتستطيع ان تتصور اغتباطي العظيم ، انا الذي لم أسمع منذ أشهر إلا الكلمات القاسية الشريرة التي يوجهها قضاتي إلي . قلت في نفسي : « إنك تحلم ! إنك تحلم ! لاتفتح عينيك على الأخص ! مدّ في حلمك ، بالأحرى من ان ترى هذه الغرفة اللعينة ، والمقعد ، والمغسلة ،

والمائدة ، والرسم الأبدي الذي يزين الورق الملصق على الجدار . إنك تحلم . . استمر في أحلامك ! » .

« ولكن الفضول تغلب أخيراً ، ففتحت عينيّ ، في بطء ، وفي حذر شديد . أواه ! ياعجباً ! وجدتني في غرفة أخرى ، غرفة أوسع من غرفة الفندق التي كنت اقيم فيها . وكان النور يدخل بكل حرية من نافذة لاقضبان لها ، أرى من ورائها أشجاراً خضراً تركض الريح من خلال أغصانها ، بدلاً من ذلك الجدار الكئيب المحزن . وكان دهان الغرفة أبيض براقاً ، وكذلك كان غطائي أبيض ناصعاً ... بلى ، لقد كنت في سرير آخر في الحقيقة ، في سرير لاأعرفه . لم يك ذلك حلماً ، فهناك أصوات بشرية تتكلم بلحن خفيض الى الوراء مني . ومما لاريب فيه أن اكتشافي قد بعث فيّ اضطراباً عنيفاً ، اذ سرعان ما اقتربت خطوات مني . كانت امرأة تتقدم نحوي ، رشيقة المشية ، امرأة تغطي رأسها بمنديل أبيض ... إنها ممرضة بكل تأكيد . وارتعشت أوصالي ، مغتبطاً سعيداً ... هذه سنة قد انقضت دون أن ارى امرأة خلالها . ومما لاريب فيه إني تطلعت الى هذا الظهور بعينين مشرقتين لاهبتين لأن الممرضة خاطبتني قائلة : « ابقَ هادئاً ! هادئاً جداً ! » . لم أكن اسمع الا صدى صوتها — الم يكن صوت كائن بشري ؟ اذن فهناك دوماً على الأرض قوم ليسوا بقضاة ، ليسو بجلادين ، هناك — ياللعجزة ! — هذه المرأة ذات الصوت الرقيق الدافىء ، الذي يكاد ان يكون عذباً . رحت أصرو بثبات الى الفم الذي حدثني بكل هذه الطيبة ، لأن تلك السنة الجهنمية قد أنستني ان طيبة القلب موجودة بين البشر . ابتسمت لي — بلى ، لقد كانت تبتسم ، فهناك اذن دوماً قوم يبتسمون في هذا العالم ، ومن ثم وضعت اصبعاً على فمها ، وابتعدت دون أن تثير اية ضوضاء مطلقاً .

« كيف كان يمكن أن اضيعها ؟ لقد بذلت على العكس جهوداً عنيفة كي اجلس في سريري وألاحقها بأنظاري ، كي انأمل ايضاً هـذا المخلوق الصغير الطيب . واردت ان استعين بيديّ ، ولكني لم استطع ذلك ، لأن اليد اليمنى قد اختفت بكاملها فيما يشبه رزمة بيضاء كبيرة ، في ضماد فيما يبدو . رحت اراقب هذا الضماد في فضول في البدء ، ومن ثم فهمت ببطء ، أين انا موجود ، وطفقت افكر فيما عساه قد حدث لي . لقد جرحوني دون ريب ، اوجرحت نفسي في يدي ، وانا حالياً في المستشفى .

« وزارني الطبيب بعد الظهر . كان سيداً عجوزاً لطيفاً جـداً لايجهل اسمي ، بـل راح يتحدث في شيء كثير من الاحترام عن عمي ، طبيب الامبراطور ، بحيث ادركت مباشرة انه يريد الخير لي ، وطرح عليّ اسئلة عديدة اثناء الحديث ادهشني سؤال منها بصورة خاصة ، فقد سألني اذا كنت رياضياً أو كيماوياً ، فأجبته بالنفي .

« غمغم :

— عجيب : لقد كنت تتفوه بدساتير غريبة جداً في هذيانك : ج ٣ — ج ٤ ، لم يفهم أحدنا شيئاً منها .

« واستفهمت منه عما حدث لي ، فابتسم بصورة غريبة وقال :

— لاشيء ذا خطورة . نوبة عصبية عنيفة فقط .

« واضاف بصوت مخفوض جداً ، بعد ان ألقى حواليه نظرة حذرة :

— وذلك معقول جداً ، على اية حال . لقد كنت هناك منذ الثالث عشر من آذار ، أليس كذلك ؟

« فأشرت برأسي أنْ بلى .

« فعاد يغمغم :

— ليس ذلك غريباً ، مع مثل هذه الطريقة . أنت لست الأول في هذا المضمار . ولكن ، لانقلق .

« وأدركت ، من اسلوبه في إلقاء هذه الكلمات والتطلع إلي ، أني قد وقعت في يدٍ أمينة .

« وروى لي هذا الطبيب الطيب ، بعد يومين ، كل ماحدث لي بصراحة تامة . لقد سمعني الحارس أصيح بصوت مرتفع جداً في غرفتي ، فصوّر له للوهلة الأولى أن احداً قد دخل الى الغرفة واني اتخاصم وإياه . ولكنه لم يكد يظهر على عتبة الباب حتى انقضت عليه وانا ارسل صيحات متوحشة : « هيا ، تقدم ، ايها الوغد ! أيها الجبان ! » . وقد حاولت ان اطبق على عنقه في عزم شديد اضطر معه الى طلب النجدة . وبينا هم يسوقونني الى الطبيب تمكنت من تخليص نفسي ، وارتميت على نافذة الممر وأنا فريسة هياج شموم ، فكسرت زجاجها وجرحت يدي جرحاً عميقاً — انك تستطيع ان ترى ندبته ههنا حتى الآن . وحين نقلوني الى المستشفى كنت مصاباً بنوع من الحمى الدماغية ، ولكن سرعان ما تمكنت من استعادة حواسي بصورة تامة .

« واضاف طبيبي بصوت لطيف بعد ان انتهى من رواية قصتي لي :

— وطبيعي انى لن اقول لهؤلاء السادة ان حالك تحسنت ، فانهم قمينون بأن يبدأوا من جديد . انكل عليّ ، فسوف ابذل كل ما في وسعي كي انقذك من هذا المأزق .

« وإني لأجهل أي تقرير قدمه هذا الصديق الثمين لقضاتي الجلادين . المهم هو انه توصل الى ما كان يبغيه : اطلاق سراحي . لعله ادعى جنوني ، أو لعل شخصي لم يعد يثير اهتمام الجستابو كثيراً ، لأن هتلر كان قد احتل تشيكوسلوفاكيا ، بحيث ان مسألة النمسا قد انتهت بالنسبة اليه . وتعهدت

كتابياً بأن أغادر وطني خلال خمسة عشر يوماً كانت مليئة جداً بكل التدابير الضرورية اليوم لرحلة الى الخارج — اوراق عسكرية ، اذن من الشرطة ، جواز السفر ، السمة ، الشهادة الطبية — بحيث لم اجد الوقت كي افكر في الماضي مطلقاً . وانه ليبدو ، على اية حال ، أن في دماغنا قوى غريبة منظمة تُبعد بصورة عفوية كل ما يمكن ان يحمل الضرر الى النفس ، لأن الذاكرة كانت تخونني كلما حاولت ان افكر في ايام أسري ، فلم استطع الا بعد اسابيع عديدة ، حين وجدتني على ظهر المركب ، أن استعيد تلك الحوادث في ذهني .

« انك تدرك الآن لماذا تصرفت بهذه الطريقة غير اللائقة تجاه اصدقائك. كنت انتقل دون هدف في قاعة التدخين عندما رأيت هؤلاء السادة جالسين امام رقعة الشطرنج ، فاذا الدهشة والذعر يسمرانني في مكاني ، لأني قد نسيت تماماً أن المرء يستطيع ان يلعب الشطرنج على رقعة محسوسة ، وبقطع ملموسة ، نسيت ان تلك لعبة يجلس فيها شخصان متميزان تماماً ، بلحمها وعظامها ، تجاه بعضها بعض ، يتباريان ويتبارزان ، كل بامكانياته الخاصة .

« وفي الحقيقة اني استغرقت بضعة دقائق حتى تذكرت ان هؤلاء اللاعبين الذين أراهم هناك إنما يلعبون ذات اللعبة التي كنت ألعبها في حجرتي ، عندما كنت احاول في يأس ان العب ضد نفسي . هذه الأرقام التي اعتدت عليها اثناء المرحلة من التمارين البربرية لم تكن اذن الا رموز تلك القطع المصنوعة من العظم . ان الدهشة التي احسستها لدى رؤيتي ان حركة هذه القطع على رقعة الشطرنج توافق حركة بيادقي الوهمية ، لتماثل من دون ريب دهشة الفلكي الذي عين وجود كوكب سيار بحسابات رياضية دقيقة ، ومن ثم شاهد بغتة هذا الكوكب في السماء بصورة نجمة مادية براقة . وهكذا رحت ارمق الرقعة مسحوراً ، اتأمل مخططاتي وقد اصبحت حسية بواسطة فارس ، اوشاه ،

أو ملكة ، أو بيادق حقيقية . ولقد اضطررت، كي أدرك المراكز التي يحتلها كل من الخصمين ، إلى إسقاط عالمي المجرد المؤلف من الأرقام في عالم تلك القطع التي تتحرك أمام عيني . وتملكني الفضول شيئاً فشيئاً ، حتى نسيت كل ما يفرضه واجب الأدب عليّ وتدخلت في لعبكم ، إذ أن الخطيئة التي كاد صديقك ان يرتكبها قد أصابت القلب مني ، فمنعته عنها بحركة غريزية ، دون تفكير ، مثلما يمسك المرء بطفل يميل فوق درابزون سلم مرتفع حتى يكاد أن يقع عنه ، ولم أدرك إلا فيما بعد ما كان في سلوكي هذا من فظاظة مستقبحة » .

واسرعت أؤكد للسيد ب ... إننا نهنىء انفسنا على هذه الصدفة التي سمحت لنا بالتعرف اليه ، واضفت ان فراغ صبري قد تضاعف حالياً ، انتظاراً لمشاهدة جولة الغد التي لم تك في الحسبان ، وخاصة بعد ان اصغيت الى حديثه.

ولاح القلق على محياه ، وهو يقول :

— كلا ، لاتنخدعوا . إني لن افعل سوى امتحان نفسي .. بلى ، إني لأود .. إني لأود ان اعرف ان كان بامكاني ان العب شوطاً عادياً من الشطرنج ، على رقعة حقيقية ، بقطع حقيقية ، ضد خصم حقيقي . . . ذلك اني ما برحت ارتاب في هذا الشأن دوماً . هذه الأشواط المائة ، هذه الأشواط الألف التي لعبتها ، هل كانت مضبوطة ؟ او ان ذلك لايعدو كونه حلماً ، كالذي يراه المرء عندما يكون مصاباً بالحمى ، حلماً غريباً يقفز المرء فيه غالباً فوق حواجز الواقع ويتخطاها ؟

« انك لاتزعم بصورة جدية ، فيما ارجو ، أني أباري بطلاً عالمياً ، واني سأضعه خارج الميدان . كل ما يهمني في هذه القضية هو ان اعرف ، بصورة نهائية ، ان كنت حقاً قد لعبت الشطرنج في غرفتي تلك في الفندق ، او إني

كنت مصاباً بالجنون بكل بساطة في ذلك الحين . أريد ان أعرف ، باختصار، إن كنت إلى الأمام أم الى الوراء من المنطقة الخطرة ، وذلك هو الهـــدف الوحيد لي من وراء هذا الشوط » .

ودعانا الجرس ، في تلك اللحظة ، إلى تناول العشاء . كان حديثنا قد دام ساعتين تقريباً ، اذ اني اختصرت كثيراً ههنا القصة التي رواها لي السيد ب ... شكرته بحرارة ، واستأذنت منه ، ولكني لم أكد أغادر سطح المركب حتى رأيتـــه يحث الخطى خلفي ، ويضيف في شيء كثير من العصبية جعله يتلعثم بكلماته :

– كلمة واحدة ايضاً ! اني لا أريد أن أظهر قليل الأدب مرة أخرى : هلا تفضلت فأخبرت اولئك السادة اني لن ألعب سوى شوط واحد ! تلك ستكون خاتمة قصة قديمة . . . خاتمة نهائية ، لن يكون لهـا عود على بدء مطلقاً . . . اني لا أود أن يتملكني من جديـد ذلك الهوى المحموم ، ذلك الاستكلاب على اللعب الذي لا أستطيع أن أفكر فيه دون أن ترتعش اوصالي .. أضف الى ذلك أن الطبيب قد أنذرني ... انذرني بصورة بينة . ان امرءاً كان مصاباً بجنون ما قد يسقط مريضاً به مرة أخرى، حتى ان شفي منه تماماً ... يفضل ألا يقترب المرء من رقعة الشطرنج أبداً ، اذا كان قد سبق فتسمم بها مثلي ... انك تفهم – سوف ألعب شوطاً وحيداً كي أتثبت من هذا الأمر ، ولسوف يكون هذا كل شيء .

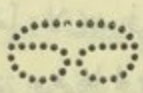

التقينا في الغداة، في تمام الساعة الثالثة، في قاعة التدخين. وقد انضم إلينا هاويان للشطرنج من ضباط المركب بعد أن نالا اذناً خاصاً بحضور الجولة. ولم يتأخر جنتوفيك عن الموعد، هذه المرة، فابتدأ شوط لا ينسى التقى فيه مواطني الغامض جداً مع البطل الشهير. واني لآسف أن هذا الشوط قد جرى أمام متفرجين مجردين عن كل أهلية او جدارة في الموضوع، بحيث انه ضاع بالنسبة الى تاريخ لعبة الشطرنج، مثلما ضاعت بالنسبة إلى تاريخ الموسيقى ارتجالات بيتهوفن على البيان. ولقد جربنا في الحقيقة ان نراجع الشوط في الغداة، بمقدار ما تسمح لنا ذاكرتنا بذلك، ولكن دون أن نتكلل جهودنا بالنجاح، اذ أن اللاعبين قد أثارا اهتمامنا أكثر من اللعب نفسه الذي لم نكن ندرك تقلباته جيداً.

وقد ازداد التناقض الفكري بين الخصمين وضوحاً اكثر فأكثر في موقفهما المختلف اثناء المباراة. كان جنتوفيك جامداً متصلباً مثل الأرومة، لا يحيد ببصرتيه عن الرقعة مطلقاً، فالتفكير بالنسبة اليه مجهود حكمي يتطلب تركيز سائر أعضائه على حد سواء. بينا السيد ب... قد ظل على العكس طليق الفكر، حرّ الحركات تماماً، لا يجد في اللعب — وهو الهاوي بأسمى معنى الكلمة — سوى التسلية التي يوفرها له، فيقدم لنا الايضاحات من تلقاء نفسه، وبكل طيبة خاطر، في فواصل الحركات، ويشعل لفافة التبغ بيد

رشيقة ، ولا يتطلع الى رقعة الشطرنج الا قبل أن يلعب بدقيقة واحدة ، وكأنه قد توقع سلفاً نوايا الخصم دوماً .

سارت الأمور مسرعة في البدء، ولم يبدُ ان المعركة قد اتضحت حسب خطة مرسومة إلا بعد الحركة السابعة أو الثامنة، فأصبح جنتوفيك يستغرق مدة أطول في التفكير ، الأمر الذي ادركنا منه ان النضال قد اصبح اكثر حدة وجداً من ذي قبل. ويجب ان اعترف على اية حال ان الجولة قد خيبت آمالنا بالأحرى، نحن المبتدئين ، إذ كلما تعقدت أوضاع القطع على الرقعة ، كلما خفي معناها علينا وازداد بعداً عن مدار كنا ، فلا نحن ندرك نوايا الخصمين ، ولا نحن نستنتج أياً من المعسكرين يملك التفوق على خصمه . كنا نرى، بكل بساطة، أنها يحركان قطعها ، مثلما يُسيّر القواد كتائبهم كي يفتحوا ثغرة في صفوف العدو . ولكننا لم نكن نستطيع ان ندرك الأهداف الستراتيجية لهذه الحركات ، لأن اللاعبين العريقين في فنهم يرسمون دوماً لعبهم حتى قبل عدد كبير من الحركات .

وقد أضيف إلى جهلنا ، قليلاً فقليلاً ، الاعياء الناشيء عن دقائق الانتظار الطويلة اللازمة لجنتوفيك وتقديراته . كان هذا التأهل يهيج مواطني بشكل واضح ، فلاحظت في قلق انه يتململ أكثر فأكثر في مقعده ، وأنه يشعل لفافة بعد لفافة في عصبية ، أو يكتب ملاحظة مابيد سريعة من حين لآخر . وابتدأ يطلب زجاجات من الماء المعدني راح يبتلع محتوياتها في عجلة ، وهو يحسب حركاته ، فيما بدا لي بكل جلاء ، أسرع من جنتوفيك بمائة من المرات . وعندما كان هذا الأخير يدفع القطعة أخيراً بيده الثقيلة بعد تفكير طويل لامتناه ، كان بطلنا يبتسم وعليه سيماء من توقع تلك الحركة منذ زمن طويل، ويردّ عليها في التوّ واللحظة . كان دماغه يشتغل بسرعة عظيمة ، حتى أنه

يعرف ، بكل تأكيد، كل إمكانيات خصمه ، فيتفاقم فراغ صبره بسبب ذلك بمقدار ما كان جنتوفيك يتأخر في اللعب ، ويرتسم على شفتيه تعبير من السخط المفعم استياءً وعداوة بينما هو ينتظر متململاً متضايقاً .

ولكن جنتوفيك لم يكن يتأثر بذلك مطلقاً ، بل إن تأملاته تطول ، كئيبة خرساء ، بمقدار ماينقص عدد القطع على الرقعة . وعند الحركة الثانية والأربعين ، كانت ساعتان وثلاثة ارباع الساعة قد انقضت على بدء الشوط ، فلم نعد نتابع المباراة إلا بنظرة بلهاء من التعب والاعياء الشديدين . وغادرنا أحد الضابطين في أثناء ذلك ، بيناراح الآخر يقرأ كتاباً ، ولا يلقي إلانظرة سريعة على رقعة الشطرنج عندما يلعب أحد الخصمين . وفجأة ـ كان دور جنتوفيك في اللعب ـ حدث شيء لم يكن في الحسبان . كان البطل قد وضع اصبعه على الفارس كي يقدمه ، فاذا السيد ب ... قد انكمش على نفسه عندما رآه يفعل ذلك مثل قط يتأهب للقفز . وراح يرتعش بكل جسده ، ومن ثم دفع الملكة بحركة ثابتة من يده وهتف في حماسة فائقة . «هذا هو ! لقد تمّ كل شيء ! » ، وارتمى إلى الوراء ، وصالب ذراعيه على صدره ، ورمى جنتوفيك بلمحة تحدّ مشتعلة ببريق محرق .

وانحنينا جميعاً على رقعة الشطرنج كي نتأثر تلك العملية المعلن عنها بكل هذا الظفر ، ولكننا لم نشاهد للوهلة الأولى شيئاً ينذر بالخطر قط : لاريب أن هتاف صديقنا يتعلق بتطور لاحق لانستطيع نحن الآخرين ، الهواة القصيري البصر ، أن نتنبأ به . كان جنتوفيك هو الوحيد الذي لم يتأثر بهتاف خصمه ، بل ظل جامداً لاحراك به وكأنه لم يسمع شيئاً على الاطلاق . ولم يحدث شيء البتة إثر ذلك ، بل استمرت الساعة الموضوعة على المائدة من أجل قياس الفاصل بين كل حركتين تدق ، في السكون الشامل ، بصورة

منتظمة . ومرت ثلاث دقائق ، ثم سبع ، ثم ثمان — وجنتوفيك لم يتحرك ، وإن بدا لي أن الجهد الذي يبذله يوسع خيشوميه الغليظين أكثر من ذي قبل أيضاً .

أصبح الانتظار لا يطاق ، إن بالنسبة إلى السيد ب ... أو بالنسبة إلينا. نهض بقفزة واحدة ، وطفق يذرع أرض قاعة التدخين طولاً وعرضاً ، ببطء في البدء ، ثم بصورة متزايدة السرعة باستمرار . وراح الجميع يتطلعون إليه في شيء من الدهشة ، اما انا فأجتاحني قلق شديد ، إذ لاحظت انه يذرع باستمرار نفس المساحة ، بالرغم من هياجه ، فكأن حاجزاً غير منظور يعترض سبيله في منتصف الغرفة ، ويجبره على ان يعود أدراجه . وادركت ، مرتعش الفؤاد ، أنه يخطو ذات العدد من الخطوات التي كان يقوم بها في غرفة إساره . بلى ، مما لاريب فيه أنه كان يتنزه هكذا بالضبط ، طوال أشهر عديدة ، مثل الوحش الكاسر في قفصه ، مطبق القبضتين ، منقبض الكتفين ، بينما يرتق الجنون الأحمر يشتعل في نظرته الثابتة المحمومة . ولكنه كان يحتفظ بحضور ذهنه في هذه اللحظة ، لأنه كان ينظر من حين لآخر في فراغ صبر ناحية المائدة كي يرى ما اذا كان جنتوفيك قد لعب أخيراً .

وانقضت تسع ، أو عشر دقائق على هذا المنوال . أما ما حدث بعدذلك ، فان أحداً منا لم يكن ينتظره البتة . رفع جنتوفيك يده الثقيلة ببطء ، فراح كل منا يتطلع في ثبات إلى ما ينوي أن يصنعه . ولكن جنتوفيك لم يلعب ، بل دفع بظهر يده القطع عن الرقعة فرماها . ولم نفهم معللقاً للوهلة الأولى أنه يترك الشوط هكذا ، انه يستسلم قبل ان يرى الجميع أنه قد غلب على أمره . لقد تحقق غير المعقول ، فاذا البطل العالمي ، المنتصر في عدة جولات ، يخفض رايته أمام مجهول ، أمام رجل لم يقترب من رقعة الشطرنج منذ عشرين أو خمس

وعشرين سنة . إن صديقنا ، هذا المجهول ، قـد غلب في جولة علنية اقوى لاعب في العالم بأسره وانتصر عليه . ونهضنا جميعاً في انفعالنا ، دون ان نلحظ ذلك ، وكل منا يشعر بأن من واجبه أن يقول أو يفعل شيئاً كي يطلق العنان لفزعه المغتبط ، سوى جنتوفيك الذي لم يتحرك ، وحده من دون الآخرين جميعاً ، بل رفع رأسه بعد برهـة طويلة ونظر إلى صديقنا بعين قاسية .

سأل :

– هل لك في شوط آخر ؟

فأجاب السيد ب ... في حماسة تركت فيّ إنطباعاً سيئاً :

– ولكن بكل تأكيد !

وجلس من جديد قبل أن أتمكن من تذكيره بنيته في أن يلعب شوطاً واحداً ليس غير ، ورتب القطع على الرقعة في عجلة محمومة ، ترتجف أصابعه كثيراً حتى افلت منها بيدق مرتين متتاليتين وتدحرج على ارض الغرفـة . واصبح الضيق الذي أحسست به لدى هياجه المبالغ فيه عذاباً مرهقاً تقريباً ، فان هذا الانسان الهادىء المسالم قـد انقلب ، من دون أدنى ريب ، إنساناً ثائراً ، وراحت العرة تلوي زاوية فمـه أكثر فأكثر ، بينا جسده بأسره يرتجف ، وكأن حمى مفاجئة قد اجتاحته وراحت تهزه .

همست في أذنه بصوت مخفوض :

– هذا يكفي ! لا نلعب بعد الآن ! يكفي اليوم ، فانك متعب جداً .

– متعب ! ها ، ها !

ضحك ضحكة قوية ، فيها شيء كثير من الخبث :

– اني أستطيع أن ألعب سبعة عشر شوطاً ، لولا أننا نتمهل هكذا !

إن ما يتعبني ، على هذا النسق ، هو بقائي يقظاً . هيا ، أنت الذي ستبدأ !

كانت الكلمات الأخيرة التي تفوه بها بلهجة عنيفة ، بل بشيء من الفظاظة تقريباً ، موجهة إلى جنتوفيك الذي ألقى على خصمه نظرة هادئة ، لكن قاسية كلطمة شديدة في الوقت ذاته . كان توتر خطر ، حقد مخموم ، قد وُلد بين اللاعبين ، حتى لم يعودا خصمين يريدان أن يمتحنا قواهما ويتسليا ، بل أصبحا عدوين أقسما أن يفنيا بعضهما بعضاً . وتأخر جنتوفيك طويلاً قبل أن يبدأ حركته الأولى ، وشعرت بكل وضوح أنه يتعمد ذلك . لاريب أنه ادرك أن تكاسله يتعب الآخر ويهيجه ، فهو يستخدمه إذن في سبيل مصلحته .

وافتتح اللعب بعد أربع دقائق طويلة بأبسط طريقة وأكثرها شيوعاً ، وذلك بأن قدم البيدق الذي يحمي الشاه بيتين ، فأسرع السيد ب . . . يرد عليه مباشرة بالبيدق ذاته ، ومن ثم عاد جنتوفيك إلى توقفه الباعث على اليأس. ورحنا ننتظر ، وقلوبنا تخفق ، مثلما ينتظر المرء الرعد بعد البرق الذي يبهر الأبصار ، والرعد يتأخر ، يتأخر دوماً . لم يك جنتوفيك يتحرك ، بل هو يفكر ، ببطء وهدوء ، وأنا أحس اكثر فأكثر أنه يتعمد البطء ويقصد إليه في خبث كثير . وكنت أستطيع بذلك أن أراقب السيد ب . . . بدقة تامة ، فلاحظت أنه شرب حتى تلك اللحظة ثلاثة أقداح من الماء ، الأمر الذي ذكرني بقصته ، وبالعطش اللاهب الذي كان ينتابه أثناء إساره . كان البائس يبدي سائر أعراض هياج غير طبيعي ، فجبينه قد تبلل ، والندبة في يده أصبحت أشد احمراراً وأقل بياناً ، وإذا ظل حتى ذلك الحين مالكاً لزمام نفسه ، فقد صاح قائلاً حين رأى جنتوفيك سيعود ، بعد الحركة الرابعة ، فيستغرق في تأملاته اللامتناهية .

– إلعب إذن ! هيا !

فرفع جنتوفيك بصره البارد ، وقال :

– إذا لم أكن مخطئاً ، فقد حددنا الفاصل بين كل حركتين بعشر دقائق. وأنا لا ألعب ، مبدئياً ، بصورة أسرع مطلقاً .

فعض السيد ب .. على شفتيه ، وطفقت قدمه تتأرجح بسرعة تحت المائدة ، بسرعة متزايدة باستمرار . إنه سيفقد وعيه بكل تأكيد ، ذلك كان شعوري الذي لا يقاوم . وفي الحقيقة إن حادثاً جديداً قد وقع لدى الحركة الثامنة ، فإن السيد ب . . . الذي كان يتحمل تلك الفواصل الطويلة من الانتظار في فراغ صبر متفاقم ، لم يعد يستطيع أن يتمالك نفسه ، فراح ينحني إلى الأمام وإلى الخلف ، وهو يقرع المائدة بأصابعه دون وعي منه .

رفع جنتوفيك رأسه الكبير ، وقال :

– هل أستطيع أن أرجوك ألا تقرع المائدة هكذا ؟ إن ذلك يزعجني ، فلا أستطيع أن ألعب عندما أسمع هذه الضوضاء .

فأطلق السيد ب ... ضحكة مقتضبة :

– ها ، ها ! لقد لاحظت ذلك !

فاحمرّ جنتوفيك . سأل ، وفي صوته رنين القسوة وإمارات الشر :

– ماذا تريد أن تقول ؟

فضحك السيد ب ... مرة أخرى ضحكة جافة خبيثة :

– اوه ! لاشيء . كل ما أعنيه هو أنك كثير الهياج بكل بساطة .

فأطرق جنتوفيك برأسه ولجأ إلى الصمت من جديد . انتظر سبع دقائق حتى لعب الحركة الثانية ، ومن ثم استمر الشوط يتقدم بهذا النظم القاتل . وبدا جنتوفيك يزداد تصلباً اكثر فأكثر ، فهو لا يقرر الآن حركته إلا في ختام

الدقائق العشر ، بينا سلوك خصمه يزداد غرابة باستمرار ، فيلوح وكأنه قد نسي الشوط الحاضر ، وشغل بشيء آخر ، فهو لا يتنزه في الغرفة مثله قبلاً ، بل لا يبرح جامداً في مقعده ، ينظر في الفراغ بعين شاردة ، ويتمتم دون انقطاع بكلمات غير مفهومة . هل ضاع في تراكيب لامتناهية ، أم أنه يلعب شوطاً آخر كما ظننت ؟ الواقع أننا كنا نضطر دوماً الى تنبيهه كلما جاء دوره كي يلعب ، فتكفيه في مثل هذه الحال دقيقة واحـــدة كي يتوجه ، وإن ازداد يقيني أكثر فأكثر بأنه قد نسينا جميعاً بالرغم من ذلك ، بما فينا جنتوفيك نفسه ، كي يصبح فريسة نوبة باردة من الجنون قـد تنفجر في كل لحظة ، على حين غرة ، في عنف عظيم .

وهذا ما حدث فعلاً لدى الحركة التاسعة عشرة ، إذ لم يكد جنتوفيك يلعب حتى دفع السيد ب .. مجنونه على طول ثلاثة بيوت ، حتى دون أن يتطلع إلى الرقعة ، وهو يصيح بصوت مرتفع جـــداً جعلنا ننتفض جميعاً :

ـ احترس ! احترس من أجل الشاه !

فانحنينا جميعاً فوق الرقعة ، نجرب ان نفهم ما يجري عليها . ولكن احداً منا لم يكن يتوقع ما حدث بعد دقيقة واحدة ، إذ رفع جنتوفيم رأسه ببطء ، ببطء شديد ، وتطلع إلينا الواحد تلو الآخر ـ الأمر الذي لم يفعله حتى الآن ـ فرأينا ابتسامة ساخرة مشبعة بالرضى ترتسم على شفتيه ، وكل سيمائه تدل على سرور بالغ لاحدود له . وعندما تمتع بصورة كافية بهذا الظفر غير المفهوم منـا بعد ، قال في أدب متصنع ، موجهاً الحديث إلى الحلقة بأسرها :

- إني آسف ، ولكني لست أرى كيف يمكن أن يكون شاهي معرضاً للخطر . هل يرى أحد من هؤلاء السادة ذلك ؟

تفحصنا الرقعة ، ومن ثم استدارت انظارنا القلقة نحو السيد ب ... إن بيدقاً يغطي شاه جنتوفيك - الأمر الذي يستطيع طفل صغير أن يتأكد منه - فالشاه غير معرض إذن للخطر مطلقاً . هل دفع صديقنا الثائر الحمية بيدقه هكذا دون وعي منه ؟ وردّه الصمت المطبق الى نفسه، فتفحص الرقعة بدوره ، وراح يقول ، متلعثماً مرتبكاً :

- ولكن الشاه يجب أن يكون في و ٧ ... إنه ليس في مكانه ، أبداً ! لقد أخطأت ! إن كل شيء مغلوط على هذه الرقعة ! ... هذا البيدق يجب أن يكون في ز ٥ ، وليس في ز ٤ ... هذا شوط آخر تماماً ... هذا ...

وتوقف بغتة عن الكلام . لقد أمسكت به من ذراعه ، لا بل قرصته بشدة حتى أحس بذلك ، بالرغم من شروده ، فاستدار نحوي ، وتطلع إليّ بعيني المستغرق في النوم .

- ماذا هناك ؟ ماذا تريد ؟

فهمست في أذنه بكل بساطة :

- تذكر ! (١)

ومررت باصبعي على الندبة التي يحملها في يده ، فلاحق حركتي بأبصاره، وإذا عيناه تكمدان وتثبتان في الأثر الأحمر ، ومن ثم طفق يرتعش على حين غرة ، فتجتاح قشعريرة كل جسده وتهزه هزاً .

همس ، شاحب الشفتين :

---

(١) بالانكليزية في النص الأصلي .

– بحق السماء ، هل قلت شيئاً أو فعلت شيئاً غير معقول ؟ . . . هـل عدت من جديد ؟ . . .

فقلت في صوت خفيض عذب :

– كلا ، ولكن كف مباشرة عن اللعب ، فقد حان الوقت لذلك . تذكر ما قاله الطبيب لك !

فأسرع السيد ب ... ينهض عن مقعده .

قال ، وهو ينحني أمام جنتوفيك بكل أدبه السابق :

– أرجو ان تتفضل فتغفر خطيئتي الحمقاء . إذما قلته تواً ليس إلاعبثاً باطلاً بكل تأكيد . إنك أنت الذي غلبت ...

ومن ثم استدار نحونا :

– إني أعتذر منكم أيضاً ، أيها السادة . ولكني قد سبق فأنذرتكم أن لاتعقدوا كبير آمال على عملي . اغفروا هذا الحدث المضحك – هذه هي المرة الأخيرة في في حياتي التي أجرب أن العب الشطرنج فيها .

وانحنى مرة أخرى ، ثم تركنا بذات الطريقة العجيبة والمحوطة بالأسرار التي ظهر لنا بها . كنت الوحيد الذي أعلم لماذا لن يلمس هـذا الرجل رقعة الشطرنج بعد اليوم ، بينا ظل الآخرون هناك ، يعون في غموض أنهم قدافلتوا من خطر ليسوا يدرون حقيقته على وجه الدقة .

وزمجر مالك كونور ، وقد خابت آماله :

– يالك من مجنون لعين ! (١)

كان جنتوفيك آخر من غادر مقعده ، فألقى نظرة سريعة على الشوط الذي بدآه ، وقال في أريحية قبل أن يذهب :

– ياللأسف ! إن الشوط لم يكن سيئاً . أما هذا السيد ، فانه موهوب كهاوٍ ، بصورة تلفت الأنظار حقاً .

---

(١) بالانكليزية في النص الأصلي .

رسالة من مجهولة

ستيفان زفايج

رجع ر . . . ، الروائي الذائع الصيت ، الى فيينا ذات صباح في ساعة مبكرة ، بعد فترة استجمام قضاها في الجبل دامت ثلاثة أيام ، وابتاع صحيفة في المحطة بعد هبوطه من القطار مباشرة ، وما اسرع ما تذكر عندما وقعت أبصاره على التاريخ أن اليوم يوم عيد ميلاده ، فهمس في وليجة نفسه : « واحد واربعون عاماً » ، ولكن هذه الفكرة لم تبعث في فؤاده اي شعور من الفرح أو الألم مطلقاً . وقلّب دون ان يتوقف عن المسير صفحات الجريدة التي راحت تزعق بين يديه ، ومن ثم استدعى سيارة وقفل إلى داره .

حمل إليه خادمه ، بعد أن أخبره أن زواراً طرقوا بابه مرتين ، كما أن جرس الهاتف قد رنّ في غرفته عدة مرات أثناء غيابه ، بريده على صحيفة فضية ، فتطلع الروائي إلى الرسائل ناعساً متعباً ، ومزق بعض الغلافات التي يعنيه أمر مرسليها ، بعد ان وضع جانباً ، منذ البدء ، رسالة بدت له ضخمة نوعاً ما ، كما وجد خطها غريباً عليه فكأنه يراه للمرة الأولى . وقدم الخادم الشاي اليه ، فاستراح في مقعده ، وتصفح الجريدة وبعض المطبوعات مرة أخرى ، وأخيراً أشعل لفافة ، ورجع الى الرسالة التي وضعها جانباً فتناولها .

كانت عبارة عن أربع وعشرين صفحة مكتوبة بخط نسائي سريع مضطرب ، تكاد ان تكون مخطوطاً بالأحرى منها مجرد رسالة عادية . وتحسس الروائي الغلاف مرة أخرى ، بصورة غير واعية ، كي يتحقق من أنه لم يترك

فيه ورقة أخرى توضح معنى تلك الرسالة الغريبة ، ولكنه وجد الغلاف فارغاً ، أما الوريقات نفسها فلم تكن تحمل عنواناً للمرسل ، ولا توقيعاً باسمه . فكر بينه وبين نفسه : « أمر غريب ! » ، ومن ثم تناول الوريقات من جديد ، فوجد أن أعلى الورقة الأولى يحمل عنواناً هو الكلمات التالية : « اليك ، انت التي لم تعرفني قط » ، فتوقف عن القراءة مدهوشاً ، وتساءل إن كان الأمر يتعلق به حقاً ، أم بكائن خيالي بالأحرى . ولقد استثار كل ذلك فضوله ، فطفق يقرأ .

* * * *

« لقد مات ولدي البارحة ! لقد ناضلت ضد الموت طوال ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ كي انقذ هذا الوجود الصغير الطري ، وبقيت طوال أربعين ساعة قابعة عند أسفل سريره بينا النزلة الوافدة تهز جسده المسكين الملتهب بالحمى . لقد رطبت جبينه المشتعل ناراً ، وأمسكت ليلاً ونهاراً بيديه الصغيرتين المحمومتين ، ولكن قواي تلاشت في الليلة الثالثة ، ولم تعد عيناي تستطيعان احتمالاً وجلداً ، فانطبقتا من تلقاء نفسيهما دون علم مني . ولقد بقيت هكذا ثلاث أو أربع ساعات نائمة في مقعدي ، فاذا الموت يختطف ولدي أثناء هذه الفترة . وإنه ليتمدد هنا حالياً ، هذا الصغير الحبيب المسكين ، في سريره الطفولي الضيق ، مثله في لحظة وفاته تماماً ، سوى أنهم قد أغلقوا عينيه ، عينيه الغامقتين المفعمتين ذكاء ، وشبكوا يديه على قميصه الأبيض ، بيناراحت أربع شمعات تلتهب بذبالة عالية عند زوايا السرير المسجى فيه .

« إني لاأجسر على التطلع ، كما لا أجسر على الحركة ، لأن أخيلة كثيرة تنزلق على المحيا والفم المغلق كلما تذبذب النور ، فيصوّر لي عندئذ أن الحياة تدب في سيمائه من جديد ، وأميل إلى الاعتقاد بأنه لم يمت ، وأنه سيستيقظ

عن قريب ، ويقول لي بصوته الصافي بضع كلمات من الحنان الصبياني الرائع. ولكني أعرف انه قد مات ، ولست أريد بعد الآن أن أنظر ، كي لا اطفق أرجى مرة أخرى ، وكي لا يخيب رجائي مرة أخرى أيضاً . إني أعرف ذلك، إني أعرف ذلك : لقد مات ولدي البارحة ، والآن لم يعد لي في الدنيا سواك، أنت الذي لا تعرف شيئاً عني ، والذي ربما كنت تلهو في هـــذه اللحظة لا تداخلك الريبة على الاطلاق ، أو تتسلى بالبشر والأشياء على حد سواء ، كعهدك أبداً . لا ليس لي سواك ، أنت الذي لم تعرفني قط ، والذي احببتك دوماً .

« لقد أخذت الشمعة الثانية ووضعتها ههنا على المائدة التي اكتب إليك عليها . ذلك أنني لا أستطيع أن أبقى وحيدة مع ولدي الميت دون أن ابكي بكل قوى نفسي وأنوح . وإلى أي إنسان أستطيع أن أتوجه ، في هذه الساعة الرهيبة ، إذا لم أتوجه اليك ، أنت الذي كنت كل شيء بالنسبة إلي ، والذي ما برحت كذلك الآن أيضاً .

« لست أدري ان كنت أعبر عن نفسي بما يكفي من وضوح ، أو لعلك لا تفهمني ؟ إن رأسي لثقيل جداً ، وصدغيّ يخفقان ويدويان ، وسائر اعضائي توجعني . ليخيل إلي إني مصابة بالحمى ، وربما بالنزلة الوافدة ايضاً التي تتجول حالياً من باب إلى باب وتتنقل من دار إلى أخرى . وإن ذلك لأفضل في الحقيقة ، لأني سأرحل هكذا مع ولدي ، ولا أكون مضطرة الى اللجوء الى العنف مع نفسي . وكثيراً ما يمر غشاء قاتم أمام عينيّ ، بل لعلني لن أكون قادرة على إنهاء هـذه الرسالة أيضاً . ولكني أريد أن أجمع سائر قواي كي أتحدث إليك مرة ، هذه المرة الوحيدة فقط ، أنت يا حبي ، أنت الذي لم تعرفني قط .

« إليك وحدك أريد ان أتوجـــه ، لك وحدك سأقول كل شيء للمرة الأولى ؛ وسوف تطلع على كل حياتي التي كانت لك دوماً ، والتي لم تعرف قط شيئاً عنها . ولكنك لن تعرف سري إلا بعد ما يكون الموت قـد أخـذني ، عندما لايعود في قدرتك أن ترد علي ، عندما يكون قد اختطفني بصورة نهائية هذا الذي يبعث في أوصالي الآن كثيراً من الصقيع وكثيراً من النـار في وقت واحد . واذا حييت ، فسوف امزق هـذه الرسالة وأستمر محتفظة بصمتي ، مثلما احتفظت به دوماً . أما اذا وصلت هذه الرسالة الى مابين يديك ، فاعلم إنها امرأة ميتة تروي لك قصة حياتها ، حياتها التي كانت لك منذ اول ساعة حتى آخر ساعة من وعيها . لاتخف من كلماتي ، إذ أن امرأة ميتة لاتستطيع أن تطالب بأي شيء ؛ إنها لاتطلب حباً ، ولا إشفاقاً ، ولا عزاء . ان الشيء الوحيد الذي أطلبه منك هو ان تصدق كل ما سيكشف لك النقاب عنه ألمي الذي يلتجيء اليك . ألا تصدق كل ما أقول لك ، فهذا هو الرجاء الوحيد الذي أتوجه به إليك : ان الانسان لايكذب ساعـــة وفاة ابنه الوحيد .

« أريد أن أرفع النقاب لك عن حياتي بأسرها ، هذه الحياة التي لم تبدأ بصورة حقيقية إلا يوم عرفتك . انها لم تك قبل ذلك الا شيئاً مضطرباً عكراً لاتستطيع ذاكرتي ان تعود الى الانغماس فيه مطلقاً ، لقد كانت أشبه بقبو يغطي غباره وشبكات عناكبه أشياء وكائنات غامضة الحدود لم يعد قلبي يعرف شيئاً عنها مطلقاً . عندما عرفتك كنت في الثالثة عشرة ، وكنت اقطن في الدار التي ما برحت تسكنها ، في نفس هذه الدار التي تمسك فيها الآن بين يديك بهذه الرسالة ، نفس حياتي الأخير . لقد كنت اقطن في الطابق نفسه ، مقابل باب جناحك بالضبط ، ولكنك لاتتذكرنا بكل تأكيد ، ارملة موظف

المالية البائسة (لقد كانت ترتدي دوماً ثياب الحداد) ، والطفلة الناحلة ، التي لم تكد تتكون بعد ، والتي كانت أنا في ذلك الحين . لقد كنا نعيش في عزلة مطلقة ، فكأننا ضائعتان في لجة حياة البورجوازيين الصغار العادية . ولعلك لم تعرف اسمنا قط ، لأن بابنا لم يكن يحمل لوحة تشير اليه ، كما أن أحداً لم يكن يأتي لزيارتنا او للسؤال عنا . أقول ذلك لأنه قد مضى عليه خمسة عشر أو ستة عشر عاماً ! وانك لا تتذكر ذلك الزمن بكل تأكيد ، ياحبي ، أما أنا - أواه ! - فاني اتذكر بحمية كل الهنيات مهما ضؤلت قيمتها . اني أعرف مثلا ، وكأن ذلك لم يحدث الا البارحة فقط ، اليوم بله الساعة التي سمعت بذكرك فيها للمرة الاولى ، والتي رأيتك فيها للمرة الأولى ، إذ كيف يمكن ان يكون الأمر غير ذلك ما دام الكون قد فتح لي في تلك اللحظة بالذات ؟ اسمح لي ، ياحبي ، ان أروي لك كل شيء ، كل شيء منذ البداية ؛ تفضل ، أرجوك ، وكلف نفسك عناء سماع الحديث عني طوال ربع ساعة من الزمان ، انا التي لم اتعب من حبك طوال حياة كاملة .

« قبل قدومك الى منزلنا ، كان قوم شريرون ، حقودون ومحبون للخصام يقطنون وراء بابك . كان اكثر ما يبغضون ، على فقرهم ، جيرانهم المعوزين - اي نحن لاننا نأبى ان يكون لنا شيء مشترك مع فظاظتهم ، هم الفقراء الذين تجردوا عن كل كرامة وعزة نفس . كان الزوج سكيراً ، يضرب زوجته ، حتى كثيراً ما كنا نفيق في الليل على ضوضاء المقاعد التي ترمى أرضاً بعنف شديد ، وعلى رنين الصحون المتكسرة في ضجيج عظيم . وفي ذات مرة ركضت الزوجة على السلم ، وقد دميت لشدة الضرب وانتفش شعرها ، فطفق الزوج يصيح خلفها حتى هدده الجيران ، من دورهم ، بأن يذهبوا في طلب رجال الشرطة كي يضعوا حداً لمناديه وإسرافه . ولقد تجنبت والدتي ،

منذ اللحظة الأولى ، كل إتصال بها ، كما منعتني من الحديث مع الأطفال الذين كانوا ينتقمون مني في كل المناسبات ، فيهتفون في ظهري ، اذا ما التقوا بي في الطريق ، بكلمات قذرة ، بل لقد ضربوني يوماً بكرات كبيرة من الثلج حتى دمي جبيني لكثرة ما انهالوا علي رجماً بها . كان أهالي الدار يكرهون بالاجماع ، بدافع غريزي مشترك ، هؤلاء القوم ، بحيث أننا تنفسنا الصعداء جميعاً عندما وقعت لهم حادثة سيئة — أعتقد أن الزوج قد ألقي به في السجن بتهمة السرقة — فاضطروا بالتالي الى إخلاء المكان . ولقد عُلقت لافتة الايجار طوال بضعة أيام على الباب ، ومن ثم رفعت عنه ، فعرفنا سريعاً من البواب أن كاتباً ، سيداً وحيداً وهادئاً ، قد استأجر الجناح . تلك كانت المرة الاولى التي سمعت اسمك يُذكر فيها .

« وجاء الدهانون بعد أيام قليلة ، يرافقهم عدد من الرسامين ، والمكنسين والمنجدين ، كي يصلحوا من حال الجناح الذي أفرغه أولئك القوم القذرون ، فامتلأ البيت ضوضاء غير منقطعة ، فنحن لا نسمع إلا ضربات المطارق ، وصخب الأدوات ، وضجيج تنظيف الارض وحك الجدران . ولكن أمي لم تتضايق بسبب ذلك مطلقاً ، بل كانت تقول على العكس إننا قد ارتحنا أخيراً من مشاهد الخصام العائلي وضوضائها المزعجة . أما أنت نفسك ، فاني لم أشاهدك طوال الزمن الذي استغرقته عملية الانتقال ، لأن خادمك كان يراقب كل شيء ، هذا الخادم الأنيق كل الأناقة ، الصغير القامة ، الرزين المحيا ، الاشيب الشعر ، الذي كان يشرف على كل شيء من علٍ في كثير من الخطورة والثقة بالذات ، يبعث فينا جميعاً شيئاً كثيراً من الهيبة ، أولاً لأن خادماً كثير الوقار يستشمّ منه رائحة الطبقة الراقية كان شيئاً جديداً كلّ الجدة في دارنا المتواضعة ، ومن ثم لانه كان جمّ الادب حتى

الدرجة القصوى تجاه سائر أهل الدار دون أن يتآلف على أية حالٍ مع بقية الخدم ويعاملهم كرفاقٍ له . ولقد حيا منذ اليوم الأول والدتي في كثيرٍ من الاحترام وكأنها سيدة كبيرة ، كما كان يبدي نحوي — أنا التي لم أكُ إلا طفلة بعد — كثيراً من البشاشة واللطف . وعندما كان يتفوّه باسمك ، فقد كان يفعل ذلك في احترامٍ دوماً ، في شيء من الاعتبار الخاص ، حتى ليدرك المرء مباشرة انه متعلق بك اكثر مما يتعلق الخدم عادة باسيادهم ... آهٍ ، لشدّ ما أحببته من أجل ذلك ، هو جان العجوز الطيب ، وإنْ كنت أحسده لأنه يحفُّ بك دوماً ويخدمك باستمرار !

« إني أروي لك كل هذا يا حبي ، كل هذه الأشياء الصغيرة التي تكاد تكون مضحكة سخيفة ، كي تدرك كيف استطعت أن تحصّل منذ الوهلة الأولى سلطة ليس بعدها من سلطة على الطفلة الوجلة الخجول التي كنتُ ... لقد كان يحتفُّ بك ، حتى قبل أن تدخل في حياتي ، شيءٌ أشبه ما يكون باكليلٍ من نورٍ ، أشبه ما يكون بهالةٍ من الثراء والغرابة والسرّ الدفين .. لقد كنا جميعاً ، في تلك الدار الصغيرة الواقعة في ضاحية المدينة (إن الناس الذين يعيشون حياة ضيقة ليجتاحهم الفضول دوماً نحو سائر المستجدّات التي تمرُّ من أمام دارهم) ، ننتظر قدومك في صبرٍ فارغ . وهذا الفضول الذي كنتَ توحيه إليّ ، كيف كان يمكن ألا يتضاعف في نفسي عندما شاهدت — وأنا في طريق عودتي من المدرسة بعد ظهر أحد الأيام — العربة التي تقلّ أثاثك واقفة أمام داري ! كان معظم الأثاث ، القطع الاثقل منه ، قد أدخلتْ إلى الجناح ، والحمالون قد انصرفوا في تلك اللحظة إلى نقل القطع الأخفّ منه ... بقيت واقفة على عتبة الباب كي أستطيع أن أمتع أنظاري بكل شيء ، لأن كلّ أثاثك كان غريباً جداً بالنسبة إليّ حتى اني لم

أر له شبيهاً من قبل قط ، كان هناك تماثيل هندية ؛ وقطع من النحت الايطالي ، ولوحات كبيرة متألقة ، ثم جاءت الكتب في النهاية ، وفيرة العدد جداً ، جميلة حتى الدرجة القصوى ، حتى اني لم أكد أستطيع أن أتخيل شيئاً من هذا القبيل أبداً . كدسوها جميعاً على العتبة ، وهناك كان الخادم يتناولها الواحد تلو الآخر ، وينفض الغبار عنها بمنفضة مصنوعة من الريش بعناية فائقة .

« رحت أحوم في فضول حول ذلك الكوم من المؤلفات الذي يرتفع باستمرار ، فلم يدفعني الخادم عنه ، ولكنه لم يشجعني كذلك ، بحيث لم أجرؤ على لمس أي من الكتب وإن كنت أتمنى أن أجس باصابعي الجلد الطري الذي يغطي عدداً كبيراً منها .. كل ما تمكنت منه هو قراءة العناوين بصورة جانبية وفي وجل كثير : كان في عدادها كثير من الكتب الفرنسية والانكليزية وعدد كبير غيرها في لغات مجهولة مني ، واني لا أعتقد أني لم أكن لأتعب من تأملها جميعاً طوال ساعات لو لم تنادني أمي ...

« واضطررت طوال المساء الى التفكير فيك ، وان لم أكن قد شاهدتك بعد ... كنت لا أملك ، أنا ، الا عشرة من الكتب الرخيصة والمجلدة بورق مقوى قد اهترأ كثيراً ، كنت أحبها بالرغم من ذلك أكثر من أي شيء آخر ، وأعيد قراءتها دون انقطاع ... ولقد زحمني منذ ذلك الحين فكرة معرفة كيف يمكن أن يكون هذا الانسان الذي يملك تلك الكثرة الوفيرة من الكتب الجميلة جداً التي قرأها جميعاً ، والذي يعرف كل تلك اللغات ، والذي كان ينعم بكل هذا الثراء ويملك كل هذه المعرفة في وقت واحد ! كان نوع من الاحترام فوق الطبيعي يتحد عندي الى فكرة هذا العدد الغفير من الكتب ، فأروح أسعى الى تصور كيف يمكن أن يكون محياك ، فأراك في منظر رجل

قد تقدمت السنّ به ، ذي نظارتين ، ولحية طويلة بيضاء ، شبيهاً كلّ الشبه بأستاذنا في مادة الجغرافيا ، اللهم الا أنه أكثر لطفاً ، واكثر جمالا ووداعة مما لا يقاس... لست أدري لماذا كنت على يقين ، منذ ذلك الحين ، من أنك يجب أن تكون جميلا حتى حين افكر فيك على أنك رجل عجوز . وفي تلك الليلة حلمتُ بك للمرة الاولى ، حتى دون ان اعرفك .

« واحتللت في الغداة الجناح الذي استأجرته ، ولكن عبثاً انتظرتك لأني لم أستطع ان أشاهدك ، الامر الذي ضاعف من فضولي ، وزادني شوقاً الى رؤيتك . وأخيراً بصرتُ بك في اليوم الثالث ، ولشدّ ما كانت دهشتي عميقة عند ما تحققت من أنك تختلف كل الاختلاف عما كنت أحسبُ ، وأن ليس لك أدنى علاقة بصورة الله الآب التي تمثلتها في عبث !.. لقد حلمت بشيخ طيب ذي نظارتين ، ولكن هذا أنت ، أنت كما لمّا تبرح حتى هذا اليوم ، أنت الذي لا تتبدل ، والذي تمر السنون عليك متزاقمة دون أن تنال منك مأرباً !.. كنت ترتدي زياً رياضياً رائعاً ، لونه الاسمر يضرب إلى الصفار ، وكنت تصعد الدرج عدواً برشاقتك الصبيانية التي لامثال لها ، تقفز دوماً درجتين دفعة واحدة ، وكنت تمسك بقبعتك في يدك ، وهكذا رحت أتأمل بدهشة تفوق الوصف محياك الذي يطفح حياة وضياء ، والذي يتوجه شعر مراهق صغير . لقد انتفضت دهشة في الحقيقة عند ما رأيت كم كنت فتياً ، جميلا ، مرناً ، رشيقاً وانيقاً ! وليس من عجب اذا كنت قد أحسست بوضوح تام — منذ تلك اللحظة الاولى — ما يحسه جميع الناس لدى رؤيتك ، ما يشعرون به بطريقة تسيج وحدها ، وبنوع من الدهشة الخاصة : أن فيك إنسانين ، احدهما فتى ملتهب ، مرح ، مستسلم بكليته الى العبث والمغامرة ، والآخر شخص جدي بصورة صارمة ، امين لواجبه ، واسع

الثقافة بصورة لا متناهية ، يتبدى بكل جلاء في فنك الرائع . لقد احسست بصورة غير واعية ما يخمنه سائر الناس عندما يعرفونك ، ألا وهو انك تعيش حياة مضاعفة ، حياة قد استدار احد وجهيها ، الوجه النير منها ، بكل صراحة نحو العالم ، بينما الوجه الآخر ، الغارق في الظل ، لا يعرفه أحد الا لك .. ان هذه الثنائية العميقة ، سر وجودك ، قد شعرت بها — منذ النظرة السريعة الاولى — تلك الطفلة البالغة الثالثة عشرة التي كنت ، والتي اخذت بك بصورة سحرية عميقة ...

« انك تفهم منذ الآن ، يا حبي ، أية معجزة ، أي لغز جذاب ، كنت بالنسبة إليّ — بالنسبة إليّ انا الطفلة ! هذا الكائن الذي يحترمون لأنه يؤلف كتباً ، لأنه كان شهيراً في العالم الواسع — أأكتشفه على حين غرّة في سيماء فتى في الخامسة والعشرين ، كثير الأناقة ، عظيم المرح كصبيّ صغير ؟ هل يجب أن أقول لك مرة اخرى ان شيئاً في دارنا ، في عالم الطفلة البائس الذي كنت احيا فيه ، لم يعد يثير اهتمامي منذ ذلك اليوم ، اللهم باستثنائك انت ، وانه لم يعد لي — بكل عناد طفلة الثالثة عشرة ومراسها الصعب — الا شغل واحد ، ألا وهو ان احوم حول حياتك وحول وجودك ! كنت اراقبك ، اراقب عاداتك ، اراقب الناس الذين يقدمون لزيارتك ، وبدلا من ان نقص كل هذا الفضول الذي كنت توحي به إليّ ، لم يكن يفعل على العكس الا مضاعفته ، لان كائنك الثنائي . كان يتضح بصورة تامة في تنوّع هذه الزيارات واختلافها . كان يأتي اليك فتيان في مثل سنك رفاقك الذين كنت تضحك واياهم وتبالغ في الضحك ، والى جانبهم طلاب متواضعوا الثياب بسيطوا المظهر ، ومن ثم سيدات يقدمن في سيارات .. بله مدير الاوبرا ايضاً في ذات مرة — رئيس الاوراكسترا

العظيم الذي لم أشاهده الا عن بعد فوق منصته ، والذين كانت رؤيته تفعمني احتراماً – ومن ثم أيضاً صبيّات صغيرات ما برحن يغدون الى مدرسة التجارة بعد ، واللائي كنّ يتزلقن في اضطرابٍ وضيقٍ عبر الباب : باختصار ، كثرة عظيمة من النساء ! . . . لم يكن ذلك يعني شيئاً خاصاً بالنسبة اليّ أبداً ، حتى حين رأيتُ سيدة محجّبة تخرج من لدنك ذات صباح وانا في طريقي الى المدرسة . لقد كنت في الثالثة عشرة من عمري بعد ، والفضول المتأرّث الذي كنت أتجسسّ به عليك وأترقّبك لم يكن يدري بعد – لشدة ما كنت طفلة – أنه الحب يعتمل في قلبي .

« ولكني أعرف الآن ايضاً بصورة دقيقة ، ياحبي ، اليوم والساعة اللذين ارتبطت فيهما بك بكليّتي ، والى الأبد ... كنت قد رجعت مع صاحبةٍ لي من رفيقات المدرسة من نزهةٍ خرجنا معاً إليها ، ووقفنا أمام الباب نتجاذب اطراف الحديث ، فاذا سيارة تقدم بأقصى السرعة وتقف الى جانبنا ، هبطت أنت منها برشاقتك المندفعة والمرنة التي ما برحت تسحرني حتى اليوم ، ومن ثم اتجهت نحو الباب . ولست أدري أية قوة غير واعية قد دفعتني الى أن أفتح لك ، فاعترضتْ خطواتك حتى كدنا ان نتصادم . تطلعت اليّ بهذه النظرة الدافئة ، العذبة والملاطفة التي تكاد أن تكون حناناً خالصاً ، وابتسمت لي ابتسامة لاأستطيع أن أصفها الا بأنها رؤوم جداً ، وقلت لي بصوتٍ رقيق وأليفٍ تقريباً : « شكراً جزيلاً ، يا آنسة » ...

« لم يحدث في ذلك الحين شيء غير هذا ، ياحبي ، ولكني أصبحت منذ تلك اللحظة ، منذ ان أحسست تلك النظرة الحنون العذبة تستقر عليّ ، لك بكليتي ولقد ادركت فيما بعد – لقد أدركت ذلك بسرعة طبعاً – ان هذه النظرة المشعة ، هذه النظرة التي تبعث شيئاً كالحياة فيما حولك ، هذه النظرة التي

تشمل المرء وتعريه في وقت واحد ، هـذه النظرة الخاصة بمن وُلد غادياً جذاباً ، انما أنت تنثرها على كل امرأة تمرّ بالقرب منك ، على كل مستخدمة مخزن تبيعك حاجة ما ، على كل خادمة تفتح لك الباب ، لقد أدركت ان هـذه النظرة مجردة عن الوعي عندك ، فهي خالية من كل ارادة او تعلق ، وأن حنانك على النساء عامة هو الذي يهب نظرتك ، بصورة غير واعية ، ذينك الدفء والوداعـة اللذين يطفحان منها كلما استدارت نحوهن .

ولكن هـذه الميزة التي تسم شخصيتك لم تخطر لي على بال ، أنا الطفلة البالغة الثالثة عشر ، بل اصبحت كالغريقة في نهر من النيران ، اذ حسبت ان ذلك الحنان لم يكُ الا لي ، لي وحدي . لقد كانت نصف الثانية تلك كافية كي تصيّر امرأةً الطفلة نصف المكونة التي كنتُ - تلك المرأة أضحت لك الى الأبد .

« سألتني صديقتي : « من هذا ؟ » ، فلم أستطع أن أردّ عليها رأساً . لقد استحال عليّ أن أقول اسمك ، لأنه قد أصبح ، منذ تلك الثانية الأولى الوحيدة ، سري الخاص الذي يجب ألا يطلع عليه انسان قط .

« كنت بعد ذلك متلعثمة في خراقـة : « اه ! انه سيد يقطن في الدار ههنا » فقالت صديقتي ساخرة مني ، في كل خبث الطفلة الطُلَعة : « ولمَ اذن تضرجتِ هكذا عندما نظر اليك ؟ » . ولأني احسست ان سخريتها موجهة الى سري ، فقد صعد الدم الى خديّ في حرارة أعظم من ذي قبل ، وصيّرني الضيق الذي اجتاحني فظة قاسية ، فصحت بها في وحشية : « أيتها الأورة الصغيرة ! » : كنت اذن قمينة بأن أخنقها ، ولكنها اخذت تضحك أكثر منها قبلاً ، وفي سخرية أعظم أيضاً فشعرت بالدموع تأتي الى عينيّ ، يناديها غضب عاجز مقهور ، حتى اضطررت الى الانفلات من صاحبتي والصعود الى الدار عدواً .

« منذ تلك الثانية أحببتك . إني أعرف أن النساء كثيراً ما قلن لك هذه الكلمة ، أنت طفلهن المدلل ، ولكن صدقني أن ليس إنسان قد أحبك بمثل هذه القوة - كعبد أو ككلب - وبكل هذا الاخلاص اللذين أحبك بهما ذلك الكائن الذي كنتُ يومذاك ، والذي مابرحتُ حتى اليوم أيضاً . ان شيئاً على الأرض لايشبه حباً يظل خفياً عن الأنظار ، تضمره طفلة منزوية في الظل لاتبين : إن هذا الحب لمجرد عن كل غاية ، متواضع ، خاضع ، طافح بالانتباه ، مفعم بالهوى ، حتى ان ذلك الحب المصنوع من الرغبة ، والاناني بالرغم من كل شيء ، والذي تضمره امرأة مكتملة لن يساويه أبداً . ان الاطفال المتوحدين يستطيعون وحدهم ان يحتفظوا لأنفسهم بكل هواهم ، أما الآخرون فيبعثرون مشاعرهم في ثرثرات فارغة ، ويخففون من حدتها بالاعترافات المتبادلة ، لقد سموا الشيء الكثير عن الحب ، ووجدوه في الكتب ، وهم يعرفون إنه ناموس مشترك ؛ إنهم يلهون به كما يلعبون بدمية ، ويستدرون الغرور منه كما يفعل صبي بلفافته الأولى . أما أنا فلم يكُ لي أحد أعترف إليه ، ولم يك لي انسان يثقفني ويحذرني . كنت معدومة التجربة وجاهلة ، فألقيت بنفسي في تيار مصيري مثلما يرتمي المرء في الهاوية التي لاقرار لها .

« إن كل ما كان يسمو في كينونتي ويزدهر لم يكن يعرف إلاك ، لم يكن يعرف إلا أن يحلم بك ، ويجعل منك كائناً للسر أنقل اليه لواعج نفسي واحزانها ، كان أبي قد توفي منذ زمن طويل ، أما أمي فكانت غريبة عني في حزنها الأبدي ، وانهيارها النفساني وهموم الارملة التي تعانيها ، أرملة ليس لها ما تحيا به سوى مرتب زوجها الضئيل . وكانت فتيات المدرسة ، وقد فسدن بالرغم من سنهن المبكرة ، يبعثن الاشمئزاز في نفسي لأنهن يلعبن في مجون

بما هو الهوى الأسمى بالنسبة الي . وهكذا فان كل ما هو قابل للانقسام والاقتسام عند سواي لم يشكل عندي سوى كتلة واحدة متراصة ، كما أن كينونتي بأسرها ، المركزة في ذاتها والملتهبة أبداً بحميا قلقة ، قد استدارت نحوك بكل قواها . لقد كنت بالنسبة الي - ماذا أقول ؟

إن كل تشبيه سوف يظل ضعيفاً ناقصاً - لقد كنت كل شيء بالنسبة الي ، بالضبط كل حياتي . لم يكن شيء يوجد بالنسبة الي الا بمقدار ما يتصل بك ، ولم يكن شيء في وجودي يملك معنى الا اذا كان يقربني منك . لقد بدأت اسلوبي في الحياة من جذوره ، فأصبحت بغتة الأولى في صبيي ، بعد أن كنت حتى ذلك الحين لامبالية متوسطة الاجتهاد في المدرسة ؛ وكنت أقرأ مئات من الكتب ، أسهر عليها حتى ساعة متأخرة من الليل ، لأني اعرف أنك تحب الكتب ؛ وشرعت بصورة مفاجئة ، الأمر الذي أثار دهشة عظيمة في نفس أمي ، أتمرن على البيان في مثابرة تكاد ان تفوق الادراك ، لأني كنت أحسب انك تحب الموسيقى ؛ وأصبحت ارقع ثيابي ، واعتني بزينتي كثيراً ، كي أظهر نظيفة ولطيفة في عينيك ، بينا فكرة ذلك المربع من القماش الملصق على الجانب الأيسر من صدريتي المدرسية (كانت هذه الصدرية في الأصل قميصاً داخلياً لأمي) قد أصبحت مقيتة جداً في عيني ... ماذا لو رأيت هذه القطعة صدفة ! ماذا لو ازدريتني بسبب ذلك ! ولذا فقد كنت أمسك دوماً بحقيبة كتبي مشدودة الى صدري ، عندما اصعد السلالم ، وأنا أرتعش فرقاً . ولقد كانت هذه الخشية سخيفة كل السخف لانك لم تنظر الي بعد ذلك أبداً ، أبداً تقريباً !

« ومع ذلك فقد كنت - واني أصدقك القول - أقضي أيامي في انتظارك وترقبك ، لقد كان بابنا يحمل منظاراً صغيراً من النحاس الاصفر يستطيع

المرء أن يرى من خلال ثقبته ما يجري على سطح العلم حتى بابك . هذا المنظار — كلا لا تبتسم يا حبي ، اني لا أخجل حتى اليوم من تلك الساعات! — هذا المنظار قد كان بالنسبة إلي العين التي أسبر غور الكون بواسطتها . هناك ، طوال أشهر وسنوات ، في الدهليز المتجلد ، خائفة أبداً من أن يدب الارتياب الى قلب أمي ، كنت أجلس وفي يدي كتاب ، أقضي أمسيات كاملة وأنا أترقب ، مشدودة مثل وتر الكمان ، مهتزة مثله أيضاً عند ما يلمسه وجودك . كنت أبداً مشغولة بك ، أبداً مستسلمة الى الانتظار والحركة . ولكنك كنت لا تحس ذلك أكثر مما تحس توتر نابض الساعة التي تحملها في جيبك ، والتي تعد وتقيس ساعاتك بصبر عظيم ، وهي في الظل دوماً ، وترافق خطواتك بخفقان قلبي لا يدرك ، بينا لا تلمسها نظرتك العجول ، الا حين تمر بها مر الكرام بين ملايين الدقات المتيقظة أبداً . لقد كنت أعرف كل شيء عنك ، أعرف كلاً من عاداتك ، وكلاً من ربطات عنقك ، وكلاً من أثوابك ، وسرعان ما اصبحت أعرف وأميز كلاً من زوارك الذين قسمتهم على مقولتين : اولئك الذين استلطفهم ، واولئك الذين استقبحهم ، ان ساعة لم تنقضي ، بين سنتي الثالثة عشرة وسنتي السادسة عشرة ، إلا وعشت بها فيك ، آه ، أية افعال جنونية لم ارتكبها اذن ! كنت اقبل قبضة الباب التي لمستها يدك ، وأسرق عقب سيجار رميته قبل ان تدخل بيتك لأحتفظ به ، فهو مقدس عندي ، لان شفتيك قد لامستاه . وكنت اهبط الى الشارع مائة مرة في المساء ، متذرعة بأية حجة كانت ، كي أرى النور في اية من غرفك يضيء ، بحيث أشعر هكذا بصورة أكثر حسية بوجودك ، وجودك غير المنظور . واثناء الاسابيع التي كنت تقضيها في السفر — لقد كان قلبي يتوقف دوماً عن الخفقان ذعراً كلما رأيت

جان الشجاع ينزل حقيبتك الصفراء — كانت حياتي تموت وتصبح مجردة عن كل غاية او غرض . كنت اذن اذهب وأجيء ، سيئة المزاج ، ضجرة ، ناقمة ؛ وكان يجب أن اظل يقظة دوماً كي لا ترى أمي يأسي العظيم من خلال عينيّ المرطبتين ابداً بالدموع .

«اني اعرف أني أقص عليك ههنا اندفاعات غريبة وافعالاً جنونية خطره يجب ان أخجل منها . ولكن لا ، اني لا اخجل منها . لأن حبي لك لم يكن قط اطهر واشد التهاباً منه في تلك الافراطات الطفولية . اني استطيع ان أروي لك طوال ساعات ، طوال ايام كاملة ، كيف عشت في تلك الاحيان معك ، معك انت الذي تكاد ألا تعرف محياي ، لاني عندما كنت ألقاك على السلم فلا أجد سبيلا الى تجنبك ، فقد كنت امر من امامك عدواً ، مطرقة الرأس ، كمن سيلقي بنفسه في الماء ، كي اخفي عنك نيران خديّ ، وكل ذلك خوفاً من نظرتك المحرقة .. اني استطيع ان أروي لك طوال ساعات ، طوال ايام كاملة ، تلك السنوات التي نسيتها منذ زمن طويل ؛ اني استطيع ان أنشر تقويم حياتك بأسره ، ولكني لا أريد ان ابعث الملل في نفسك ، لا اريد ان أعذبك . اني اريد فقط ان اكشف لك ايضاً عن اجمل حدث في طفولتي ، وارجوك الا تسخر من تفاهته ، لانه كان بالنسبة إلي ، انا التي لم اكن يومذاك إلا طفلة صغيرة ، لا نهاية قائمة بذاتها . كان ذلك في يوم احد بكل تأكيد ، وكنت غائباً في رحلة ، وكان خادمك يجر السجادات الثقيلة التي نفضها لتوه عبر باب جناحك المفتوح . كان يعاني الامرّين من نقلها ، ذلك العجوز الطيب ، فذهبت اليه في نوبة من الجرأة ، وسألته ان كنت استطيع ان امدّ له يد المعونة ، فدهش ، ولكنه تركني اساعده ، فرأيت هكذا — آه ! اني اريد ان اقول لك بأي تعبد مفعم بالاجلال

والتقوى ! — داخل جناحك ، عالمك ، المائدة التي تجلس اليها كي تكتب ، والتي كان يعلوها بعض الورود الموضوعه في إناء من البلور الازرق ، واثاثك ، ولوحاتك ، وكتبك . لم تكن تلك الا نظرة خاطفة عجولا الى حياتك . ذلك ان جان الامين كان يمنعني بكل تأكيد من النظر الى كل ذلك عن كثب . ولكن تلك النظرة كانت كافيه لي كي امتص جو تلك الحياة بأسره ، فزودتني بغذاء كاف كي احلم لا نهائياً بك في يقظتي وفي نومي .

« تلك الدقيقة السريعة كانت اسعد لحظة في طفولتي . لقد اردت ان ارويها لك حتى تبدأ انت ، الذي لم تعرفني ، تدرك اخيراً كيف تعلقت حياة بك حتى درجة الفناء فيك .

« اردت ان ارويها لك ، مع تلك اللحظة الاخرى ، تلك الساعة الرهيبة التي كانت ، من سوء الحظ ، قريبة جداً من الاولى . كنت نسيت — لقد سبق ان قلت لك ذلك — كل شيء في سبيلك ، فلست اهتم بوالدتي ، ولا اعير انتباهي لأي كائن على الاطلاق ، بحيث لم ألاحظان سيداً مسناً ، تاجراً من اينسبروك هو احد اقارب امي الأبعدين ، يتردد كثيراً علينا لرؤيتها ، ويقضي زمناً طويلا عندنا : بل ان ذلك كان يسرني على العكس ، لانه كثيراً ما كان يصطحب امي الى المسرح ، بحيث كنت استطيع هكذا ان اظل وحيدة وان افكر فيك واترقبك ، الامر الذي كان غبطتي الاسمى ، غبطتي الوحيدة . ولكن امي دعتني ذات يوم الى غرفتها وفي سيمائها شيء كثير من الخطورة ، قائلة لي ان هناك شيئاً تريد ان تحدثني به بصورة جدية ، فاذا الاصفرار يعلو وجهي ، وقلبي يأخذ بالخفقان بشدة عظيمة على حسين غرة .

امي ترتاب في شيء ما ؟ اتراها قد خمنت ؟ ان فكرتي الاولى قد اتجهت اليك ، انت السر الذي ارتبط بالكون عن طريقه . ولكن والدتي ، هي الاخرى ، كانت متضايقه ، فقد قبلتني — الامر الذي لم تكن تفعله ابداً — بحنان مرة ، ومرتين ، واخذتني الى جوارها على الكنبه ، ومن ثم شرعت تروي لي ، مترددة مرتبكة ، ان قريبها ، الذي كان ارملا ، قد توجه اليها بطلب الزواج ، وانها قد قررت ، من اجلي في الدرجه الاولى ، ان تقبل به زوجاً . صعد الدم الى قلبي في عنف اعظم ، فردّت عليها فكرة واحدة في صميم فؤادي ، فكرة كانت متجهه اليك وحدك .

« استطعت بصعوبة كبيرة ان اغمغم متلعثمه : ولكننا سنبقى ههنا على الاقل ؟ »

« فأجابت امي : « كلا ، بل سنذهب الى اينسبورك ، حيث يملك فرديناند فيلا جميلة . » لم استطع ان اسمع شيئاً اكثر من هذا ، فقد اظلمت عيناي تماماً على حين غرة ، واغمي عليّ كما عرفت فيما بعد ، اذ سمعت امي تحدث زوجها المقبل بصوت مخفوض — لقد كان ينتظر وراء الباب نتائج المفاوضات معي — اني قد تقهقرت بغتة ، وقد مددت يديّ الى الامام مني ، كي أتهاوى بعد ذلك ارضاً وكأنني كتلة من الرصاص . اما ما حدث في الايام التالية ، وكيف ناضلت — انا الطفلة المسكينة المستضعفه — ضد إرادتها المتفوقه ، فلست استطيع ان احدثك عنه : يكفي ان افكر في ذلك حتى ترتجف يدي الآن وانا اكتب اليك . ولما لم اكُ استطيع ان ارفع النقاب عن سري الحقيقي ، فقد بدت مقاومتي عناداً خالصاً ، وخبثاً مجرداً ، وتحدياً عديم المعنى ، فلم يعد اي منها يتوجه اليّ مطلقاً ، بل تحقق كل شيء دون علمي ، اذ استفادا من الساعات التي كنت انصرف فيها الى

المدرسة كي يشحنا الأثاث ، بحيث كنت أجد بعد كل عودة لي من المدرسة شيئاً قد اختفى من الدار أو بيع . وهكذا شاهدت الجناح يُنقل قطعة قطعة ، وحياتي تذهب في إثره أيضاً ، حتى وجدت أخيراً ذات يوم ، وقد رجعت كي أتناول غدائي ، أن الشاحنين يحزمون كل شيء ويذهبون به ، فلم يكن هناك في الغرف الفارغة سوى الحقائب المعدّة ، بالاضافة إلى سريرين من أسرّة المعسكرات جهّزا لوالدتي ولي: كنا سنقضي هناك ليلة أخرى ، الأخيرة ، ومن ثم نسافر في الغداة إلى اينسبورك.

« ولقد أدركت خلال ذلك اليوم الأخير ، في عزم مفاجيء ، أني لن أستطيع أن أعيش بعيداً عن جوارك ، ولم أعد أرى خلاصاً لي سواك .

«ولست أستطيع قط أن أذكر كيف جاءتني هذه الفكرة ، وما إذا كان التفكير في تلك الساعات من اليأس العظيم قد ظل في نطاق قدرتي حقاً . ولكني نهضت بصورة مباغتة — كانت أمي قد خرجت لبعض الشؤون — وذهبت اليك كما أنا ، في لباسي المدرسي . ولكن لا ، فكلمة «ذهبت » لا تؤدي المعنى الصحيح : انها قوة مغناطيسية بالأحرى قد دفعتني نحو بابك ، وقد تصلبت ساقاي وراحت مفاصلي جميعاً ترتعش . ولقد قلت لك ذلك آنفاً ، اني لم اكن أدرك بوضوح ماذا أريد: أن أرمي بنفسي على قدميك ، وأتوسل اليك أن تحتفظ بي كخادمة حقيرة ، كعبدة أمينة تفعل بها ما تشاء ؛ ولشد ما ذعرت أن تبتسم ساخراً من هذا الهوس البريء الذي ينتاب فتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها ؛ ولكنك لم تكن لتبتسم مطلقاً يا حبي لو كنت تدري في أي حال كنتُ في ذلك الحين، وأنا أقف خارجاً في الرواق الذى يجتاحه برد دونه برودة الجليد ، وقد

تصلبت أعضائي فرقاً ، تدفعني إلى الأمام بالرغم من ذلك قوة تفوق التصور ، وكيف انتزعت من جسدي ، إذا صح التعبير ، ذراعي المرتجفة بحيث ارتفعت حتى تمكنت ـــ لقد كان ذلك نضالاً دام طوال أبدية ثوانٍ رهيبة ـــ من وضع اصبعي على زر الباب . إن صوت الجرس ما برح حتى اليوم يرن في اذنيّ ، ومن ثم الصمت الذي تلا ذلك الرنين ، بينما قد توقف قلبي عن الخفقان ، وكفّ دمي عن الدوران ، ورحت أترقب فقط إن كنت ستأتي لتفتح لي .

« ولكنك لم تأتِ . إن أحداً لم يأتِ . لقد خرجت من دون ريب بعد ظهر ذلك اليوم ، كما ذهب جان أيضاً في بعض شؤونه ، بحيث رجعت هكذا متعثرة أجر أذيال الخيبة ـ وفي أذني المدويتين رنين الجرس دوماً ـ إلى جناحنا مضطربة قلقة ، وارتميت على غطاء السرير ، مرهقة خائرة القوى ، متعبة من هذه الخطوات الأربع فكأنني قد مشيت طوال ساعات فوق طبقة كثيفة من الثلج . ولكن العزم الملتهب دوماً ، العزم على رؤيتك والتحدث إليك قبل أن ينتزعوني من هذه الأماكن ، كان يشتعل تحت ذلك الاعياء دون هوادة . لم يكن في ذلك كله ـــ اني أقسم لك ـــ أية فكرة جسدية ، لقد كنت جاهلة حتى ذلك الحين ، بالضبط لأني لم أكن أفكر في أي شيء آخر سواك . كنت أريد بكل بساطة أن أراك ، أن أراك مرة أخرى ، وأن أتعلق بك . ولقد انتظرتك ياحبي طوال الليل ، طوال ذلك الليل الطويل المخيف ، إذ لم تكد أمي تتسلل إلى فراشها وتغط في النوم حتى انزلقتُ إلى الدهليز كي أسمعك حين تعود . لقد انتظرت طوال الليل ، وكانت تلك ليلة باردة من ليالي كانون الثاني ، كنت متعبة ، وأعضائي توجعني ، ولم يكن هناك كرسي أجلس عليه ، فتمددت عندئذ

على الأرض الباردة حيث يمر تيار الهواء من خلال الباب . ولقد بقيت متمددة هكذا ، متجلدة مرهقة الجسد ، لا أغطي نفسي إلا بلباسي الرقيق لأني لم أتناول غطاء عن سريري : لم أكن أريد أن أدفأ كثيراً خوفاً من أن أنام فلا أسمع وقع خطواتك عندما تعود . أي ألم كنت أحسه عندئذ ! كنت أشدّ بيديّ على بعضها مختلجة الأوصال ، بينما ذراعيّ يرتعشان دون انقطاع ، فاضطر باستمرار إلى النهوض على قدميّ ، لشدة ما كان البرد شديداً في تلك الظلمة الرهيبة . ولكني كنت أنتظرك ، أنتظرك ، أنتظرك مثلما انتظر مصيري ...

« وأخيراً — كانت الساعة قد قاربت الثانية أو الثالثة صباحاً دون ريب — سمعت في أسفل الدار صوت الباب الخارجي يفتح ، ومن ثم وقع خطوات تصعد السلم . غادرني الشعور بالبرودة على حين غرة ، واجتاحتني حرارة شديدة ، ففتحت الباب في هدوء ، كي اندفع نحوك وأرتمي على قدميك . . أواه ! إني لم أكن أدري في الحقيقة ما كنت تمينة بفعله عندئذ ، أنا الطفلة المجنونة . واقتربت الخطوات ، وتذبذب نور شمعة في السلم . كنت أمسك ، مرتجفة الأصابع والأعضاء ، قبضة الباب : أهو أنت حقاً الذي تأتي هكذا ؟

« بلى ، لقد كنت أنت ياحبي ، ولكن لم تكن وحيداً . سمعت ضحكاً خفيفاً مرحاً ، وصوت ثوب حريري ، وصوتك الذي يتحدث همساً . لقد كنت عائداً الى دارك برفقة امرأة ...

« كيف أمكن أن أعيش بعد تلك الليلة ، هذا مالا أدريه . في الغداة ، في الساعة الثامنة صباحاً ، أخذوني الى اينسبورك كنت قد فقدت كل قوة على المقاومة .

* * *

« لقد مات ولدي ليلة البارحة ، ولسوف أكون وحيدة من الآن فصاعداً ، ان كنت سأعيش دوماً . ولسوف يأتي غداً رجال مجهولون ، فظون ، يرتدون السواد ، ويحملون نعشاً يضعون فيه ولدي المسكين، ولدي الوحيد ... ولربما سيأتي أيضاً اصدقاء يحملون الأكاليل ، ولكن ماذا تفعل الورود فوق النعش ؟ ولسوف يعزونني ، ويقولون لي كلاماً ، كلاماً دوماً ، ولكن ما عسى ان يفيدني هذا الكلام ؟ اني اعرف ذلك ، فها أنذي وحيدة من جديد ، وليس شيء اكثر رهبة من ان اكون وحيدة بين الناس . لقد ادركت هذا منذ ذلك الحين ، خلال تلك الأشهر الأربعة والعشرين اللامتناهية في الامتداد التي قضيتها في اينسبورك ، هذا الزمن المحصور بين سنتي السادسة عشرة والثامنة عشرة ، والذي عشته مثل الأسيرة، مثل المرذولة في حضن عائلتي . لقد كان زوج امي ، وهو رجل كثير الهدوء قليل الكلام ، طيباً بالنسبة إلي ، كما ان امي كانت تلبي سائر رغباتي ، وكأنها تريد من وراء ذلك ان تصلح ظلماً غير إرادي ارتكبته بحقي . وكان عدد من الشبان يلتف حولي ، ولكني كنت ادفعهم جميعاً واردهم في عناد لا يلين ، لأني لم اكن اريد ان اعيش سعيدة راضية بعيداً عنك ، فأروح أنغمس في عالم قاتم مصنوع من الوحدة ومن العذابات التي كنت أفرضها بنفسي على نفسي . ولم اكن ارتدي الأثواب الجديدة الجميلة التي يشترونها لي ، كما كنت ارفض الذهاب إلى المسارح والحفلات الموسيقية ، او الاشتراك في نزهات خارج المدينة برفقة مجتمع مرح كثير الغبطة . كنت لا اكاد اخرج من الدار : هل تصدق ياحبي اني لا اكاد اعرف ، في هذه المدينة التي حيبت فيها طوال سنتين ، اكثر من عشرة شوارع ؟ كنت حزينة ، واريد ان اظل حزينة ، فأسكر بكل حرمان

اضيفه الى حرماني من مشاهدتك . وباختصار ، فاني لم ارد ان اسلو هواي ؛ كل ما كنت اريده هو ان اعيش فيك ، فأظل في بيتي ، لا افعل شيئاً طوال ساعات عديدة ، طوال ايام كاملة ، سوى التفكير فيك ، التفكير فيك دون انقطاع ، مستعيدة في ذهني دوماً مائة ذكرى صغيرة احفظها عنك ، كل لقاء وكل انتظار ، وانا اتصور دوماً هذه الحوادث الصغيرة كما لو كنت اشاهدها على خشبة المسرح . وإذا ظلت طفولتي بأسرها متأرثة في ذاكرتي حتى هذه الدرجة البعيدة ، فما ذلك إلا لأنني قد استثرت هكذا ما لايحصى عدده من المرات كلاً من ثواني ماضيّ ، بحيث ان كل دقيقة من تلك السنوات تحيا فيّ حتى اليوم بحرارة وعاطفة عظيمتين ، فكأنها لم تجتح دمائي إلا بالأمس فقط .

« إنما عشت حينئذ فيك وحدك . كنت اشتري سائر كتبك ، فاذا كان اسمك في الصحف ، فذلك يوم عيد بالنسبة إليّ . هل تصدق اني اعرف كل سطر من كتبك ، لكثرة ما قرأتها وأعدت قراءتها ؟ لو ان احداً ايقظني من رقادي في اثناء الليل وتفوه امامي بسطر مأخوذ من كتبك ، فاني استطيع حتى اليوم ، بعد ثلاثة عشر عاماً ، ان اكمل ذلك السطر كما يفعل المرء في حلم عميق ، لأن كل كلمة منك كانت بالنسبة إليّ إنجيلاً وصلاة في وقت واحد . إن العالم بأسره لم يكن يوجد بالنسبة إليّ الا في حدود علاقته بك ، فلا ألاحق في صحف فيينا انباء الحفلات الموسيقية والتمثيليات الا كي اعرف أيّة منها يمكن ان تثير اهتمامك ، حتى اذا هبط المساء رافقتك عن بعد ، وانا اقول في نفسي : هذا هو يدخل الصالة الآن ، وهذا هو يتخذ مجلسه حالياً . الف مرة قد حلمت بذلك ، لأنني قد شاهدتك مرة في حفلة موسيقية .

« ولكن لمَ أروي لك كل هذا ، لمَ أحدثك بهذا الهوس المجنون الموجّه في ثورته ضد نفسي ، هوس طفلة مهجورة يجتاحها اليأس بصورة مفجعة حتى الدرجة القصوى ؟ لم أرويه لشخص لم يشك به قط ، لم يعرف عنه شيئاً البتة ؟ ولكن هل كنت عندئذ طفلة دوماً ؟ كنت قد بلغت السابعة عشرة ، بله الثامنة عشرة ، وقد أخذ الفتيان يستديرون نحوي في الشوارع ، فلا يفعلون بذلك إلا تأجيج نقمتي . ذلك أن الحب — أو حتى مجرد لهوٍ بسيط ساذج به ، وهمي بصورة خالصة — مع إنسان سواك ، قد كان امراً غير معقول أبداً في نظري ، حتى كنت أعجز عن قبول مجرد فكرته : إن فتنة ذلك وحدها لتبدو لي جريمة لا تُغتفر . لقد ظل هواي لك على ماهيته ، سوى أنه قد تحول مع تحول جسدي ، فهو يزداد لهيباً ، ومحسوسية ، وانوثة ، بمقدار ما كانت حواسي تتفتح وتستيقظ ، فاذا ذلك الفعل الذي لم يكن باستطاعة الطفلة التي شدت جرس بابك فيما مضى بدافع من إرادتها الجاهلة المضطربة أن تعيه ، يصبح حالياً فكرتي الواحدة : أن اعطيك نفسي ، أن أستسلم اليك .

« كان الناس من حولي يظنونني هيابة ويصفونني بالفتاة الخجول (إني لم أحلّ أسناني عن سري قط) . ولكن ارادة من حديد كانت تنمو فيّ ، فكل أفكاري وجهودي متوترة في اتجاه غاية واحدة ، ألا وهي أن أعود الى فيينا ، أن أعود الى قربك . ولقد نجحت في فرض ارادتي ، مهما لاحت للآخرين غير معقولة ، وغير قابلة للادراك . كان زوج أمي ثرياً ، وكان يعتبرني كابنته الحقيقية ، ولكني ثابرت ، في عناد بربري ، على ارادتي كسب حياتي بنفسي ، وتوصلت أخيراً الى العودة الى فيينا ، عند قريب لي ، كي أعمل عنده مستخدمة في بيت كبير للخياطة .

« هل من حاجة أن أذكر لك أين ذهبت أولاً ، عندما وصلت —

أخيراً ! أخيراً ! ـــ الى فيينا ذات مساء خريفي مُضب ؟ لقد تركت حقيبتي في المحطة ، واندفعت في احدى الحافلات الكهربائية ـــ بأي تمهل خيل إليّ أنها تسير ! كان كل موقف يبعث اليأس في قلبي ـــ حتى ركضت أخيراً نحو دارك . كانت نوافذك مضاءة ، فطفق قلبي بأسره يخفق في عنف شديد . عندئذ فقط وجدت حياة في هذه المدينة التي كانت ضوضاؤهـــا حتى تلك اللحظة غريبة عني ، خاليـة من كل معنى ؛ عنـدئذ فقط عدت أحيا ، عندما أحسست بنفسي قريبة منك ... أنت خصمي الأبـدي . لم أكن أشك في أنني ما برحت بعيدة عن فكرك الآن ، حين لم يعد بينك وبين نظرتي المتألقة سوى زجاج نافذتك المضاءة الرقيق ، بعدي عنك حين كانت وديان وجبال وأنهار تفصل فيما بيننا . رحت أنظر الى العلاء هناك ، دوماً الى العلاء : هناك كان نور ، هناك كانت الدار ، هنـاك كنت أنت ، كوني بأسره . طوال سنتين قد حلمت بهذه الساعة ، وقـــد أعطي لي الآن أن أحياها . وبقيت طوال أمسية ، أمسية مغطاة بالخريف ، أمسية طويلة عذبة ، أمام نوافذك ، حتى انطفأ النور فيهـا ، وعندئذ فقط انطلقت أفتش عن مسكني .

« وكنت أعود كل مسـاء الى امام بيتك . كنت أشتغل في المخزن حتى السادسة مساء ، مستغرقة في عمل قاس ومرهق ، ولكني كنت أحب عملي ، لأن هذا الاضطراب من حولي يمنعني عن الشعور باضطرابي الباطني بصورة شديدة الايلام مثلها قبلاً . ولكن لا يكاد الباب الحديدي يُغلق خلفي حتى انطلق باستقامة نحو موعدي الحبيب . أن أراك مرة واحدة ، أن ألقاك مرة واحدة ، تلك كانت رغبتي الواحدة ايضاً . أن استطيع مرة اخرى تقبيل وجهك عن بعد بأنظاري ! ولقيتك بعـد أسبوع ، في اللحظة التي كنت

انتظر ذلك أقل مني في أي حين آخر ، اذ بينا كنت أراقب نوافذك هناك عالياً ، جئت في اتجاهي عبر الطريق ، فاذا بي اعود ، على حين غرة ، طفلة الثالثة عشرة التي كنت فيما مضى من الزمان ، فأحسست الدم يتدفق الى خديّ ، فأطرقت رأسي دون ارادة مني ، بالرغم من رغبتي العنيفة في أن أرى عينيك ، ومررت من أمامك وانا أعدو ، فكأنني حيوان مطارَد .

« ولقد خجلت فيما بعد من هذا الهرب المذعور القمين بتلميذة صغيرة ، لأن إرادتي كانت واضحة كل الوضوح حالياً : كنت أريد أن ألقاك ، كنت أفتش عنك ، كنت أريد أن أصبح معروفة منك بعد كل هذه السنوات التي ظل انتظاري غارقاً في الظل طوالها ؛ كنت أريد ان أقدّر من قبلك ، كنت أريد ان احبّ منك .

« ولم تلاحظني طوال فترة مديدة ، بالرغم من وقوفي بالمرصاد في الطريق كل مساء ، حتى حين تثلج السماء أو تعصف ريح فيبنا القاسية القارسة . وكثيراً ما كنت انتظر عبثاً طوال ساعات ؛ وكثيراً ما كنت تخرج من بيتك اخيراً يرافقك ضيوف ؛ ولقد رأيتك مرتين مع نساء أيضاً ، فأدركت منذ ذلك الحين اني نموت وكبرت : لقد أحسست الصفة الجديدة والمختلفة لعاطفتي نحوك بانتفاضة قلبي المفاجئة ، هذه الانتفاضة التي مزقت نفسي تمزيقاً ، وذلك عند ما رأيت امرأة غريبة تسير الى جانبك معتدة بنفسها ، وتعطيك ذراعها بكل ثقة وثبات . لم يدهشني ذلك مادمت اعرف من قبل ، منذ ايام طفولتي ، زائراتك الأبديات . ولكن شيئاً كالألم الحكمي قد أصابني حالياً على حين بغتة ، وتوتر شيء في باطني ، شيء مصنوع من العداوة

والحسد في آن واحد ، في حضور هذه الألفة العلنية والجسدية مع امرأة أخرى . ولقد تنحيت يوماً واحداً ، في كبرياني الصبياني الذي ربما قد بقي لي حتى هذا اليوم ايضاً : ولكن لشد ما كانت مؤلمة قاسية بالنسبة إلي تلك الأمسية من الكبرياء والتمرد التي قضيتها دون أن أرى بيتك ! وفي الغداة عدت الى مركزي في تواضع كلي ! كنت انتظرك دوماً ، انتظرت طوال مصيري بأسره امام حياتك التي كانت مغلقة في وجهي .

« واخيراً ، في ذات مساء ، لاحظتني ... رأيتك آتياً من بعيد ، فجمّعت كل إرادتي كي لا أحيد عن طريقك . وارادت الصدفة أن تسد الطريق عربة تفرغ حمولتها ، بحيث اضطررت الى المرور من قربي ، فاستقرت عليّ نظرتك الشاردة ، دون إرادة منك ، كي تنقلب في التوّ واللحظة ، عندما صادفت انتباه نظرتي — آه ، لشد ما انتفضت للذكرى عندئذ ! — تلك النظرة التي تحتفظ بها للنساء ، تلك النظرة الحنون ، المداعبة ، لكن التي تنفذ حتى أعماق اللحم ايضاً ، تلك النظرة العريضة والغازية منذ الوهلة الأولى التي جعلت — منذ المرة الأولى — امرأة وعاشقة من الطفلة التي كنتُ . ولقد سحرت تلك النظرة ، طوال ثانيتين او ثلاث ثوانٍ ، نظرتي التي لم تكن تريد أن تتحرر من قبضتها — ومن ثم مررت . كان قلبي يخفق ، فاضطررت بالرغم مني أن أبطىء السير حتى اذا التفت بدافع من الفضول لا يقاوم ، رأيت أنك قد توقفت بدورك ، وأنك تتطلع إلي من ورائي . ولقد عرفت في التوّ واللحظة ، من مجرد اسلوبك في مراقبتي بكل ذلك الفضول المشبع بالاهتمام ، أنك لم تعرفني .

« إنك لم تعرفني ، لا في ذلك الحين ، ولا في أي حين آخر : إنك لم تعرفني قط . كيف استطيع ، يا حبي ، ان اصف لك خيبة الأمل التي احسستها

في تلك الثانية ؟ لقد كانت تلك المرة الأولى التي تحملت فيها عبء ذلك الألم الموجع ، ألم عدم معرفتك لي ، ذلك الألم الموجع الذي لا حقني طوال حياتي ، والذي اموت معه الآن ، ألا وهو بقائي مجهولة ، بقائي دوماً مجهولة منك .

كيف استطيع أن اصفها لك ، خيبة الأمل هذه ؟ ذلك أنني تصورت ، خلال تينك السنتين اللتين قضيتهما في ايتسبورك ، واللتين لم افعل طوالهما إلا التفكير في لقائنا الأول كيف سيكون عند ما اعود الى فيينا ، لقد تصورت ، حسب حالتي النفسانية ، المشاهد الأشد إيلاماً الى جانب المشاهد الأشد إسعاداً.

لقد فكرت سلفاً ، اذا كنت استطيع ان اقول هذا ، في مختلف الامكانيات ، فتصورت في لحظات التشاؤم انك سوف تدفعني عنك ، وأنك سوف تزدريني وتحتقرني لأني كنت تافهة جداً ، قبيحة للغاية ، لجوجة حتى الدرجة القصوى.

إن سائر الأشكال الممكنة لعدم حظوتك ، ابرودك ولا مبالاتك ، هذه الأشكال جميعها قد تمثلتها في رؤى لاهبة ، ولكني لم اتصور قط ، في اشد ساعاتي سواداً وحلكة ، في اكثر لحظات وعيي لتفاهتي معاً ، هذه الامكانية ، الأرهب بين سائر الامكانيات ، ألا وهي انك لم تعر وجودي حتى ذرة واحدة من الاهتمام . اما اليوم ، فاني افهم ذلك جيداً — أواه ! لشد ما علمتني ان افهم عديداً من الأمور ! — إن محبا فتاة ، محبا امرأة ، لهو بالضرورة شيء كثير الاختلاف في نظر الرجل ، وهو ليس في اكثر الأحايين سوى مرآة ينعكس فيها هوى تارة ، وهراء صبياني تارة اخرى ، وإعياء ملول في مرة ثالثة ، وانه يتغير بسهولة عظيمة ، مثل صورة مصنوعة في الجليد ، حتى ان الرجل ليستطيع بكل يسر ان ينسى فريدته ، وذلك بمقدار ما يبدل السن من ظلاله ، وبمقدار ما تحيطه الأثواب الجديدة باطارات متباينة . ان المستسلمات القانعات ، هؤلاء هن اللواتي يملكن علم الحياة

الحقيقي . اما انا ، الفتاة الصغيرة التي كنت في ذلك الحين ، فاني لم اكن استطيع بعد ان افهم كيف يمكن ان تنساني . لست ادري كيف تشكلت فكرة وهمية في نفسي ، لشدة ما شغلت بك دون انقطاع ، وبصورة تتجاوز كل المقاييس . كان يصور لي انك ، انت ايضاً ، كثيراً ما تفكر فيّ ، وأنك تنتظرني . كيف كان يمكن ان اتنفس دوماً لو كنت على يقين من أنني لست شيئاً بالنسبة اليك ، وان ذكراي لا تأتي قط فتلامس فكرك في رقة وعذبة ؟ ان تلك اليقظة المؤلمة امام نظرتك التي اثبتت لي ان ليس فيك شيء قد عرفني ، وان ليس خيط أي ذكرى ليربط حياتك بحياتي ، كانت بالنسبة إلي اول سقوط في الواقع ، اول إحساس بمصيري .

« إذن فانك لم تعرفني . وعندما شملتني نظرتك بشيء من الألفة بعد يومين ، في لقاء جديد ، فانك لم تعرفني أيضاً كتلك التي أحببتك ، والتي أيقظتها الى حياة القلب ، بل عرفتني بكل بساطة كتلك الفتاة الجميلة البالغة الثامنة عشرة ، والتي صادفتك قبل يومين ، في المكان نفسه . ولقد تطلعت إليّ في دهشة لطيفة ، وتلاعبت ابتسامة ضئيلة حول شفتيك . ومررت من جانبي مرة أخرى ، ومن ثم تمهلت مباشرة ، فراحت اوصالي ترتجف ، أرتعش بكليتي بفرح عظيم أخرس ... إن حدثتني الآن ! أحسست اني أوجد للمرة الأولى بالنسبة اليك ، فتمهلت أنا الأخرى ورحت انتظر ، واذا بي أشعر بغتة ، دون ان ألتفت ، أنك أصبحت خلفي . كنت أعلم أني سوف أسمع الآن صوتك الحبيب يوجه الكلام إليّ للمرة الأولى ، فاذا الانتظار يصبح أشبه بالشلل بالنسبة إليّ ، أخشى معه أن أضطر الى الوقوف لشدة ما كان قلبي يخفق ويضطرب . وصاقبتني ، وحدثتني

بأسلوبك الهازل في رقة ، وكأننا صديقان منذ زمن طويل . آه ! ان أضأل فكرة عن الشخص الذي كنتُ لم تراودك إذن ! ابداً لم تعرف شيئاً عن حياتي ! لقد حدثتني ببساطة رائعة جداً حتى استطعت ان أردّ عليك ، فمشينا سوية على طول الشارع ... ومن ثم سألتني ان كنت اقبل بتناول العشاء معك ، فقبلت .. أي شيء كنت أجرؤ ان أمنعه عنك ؟

« وتعشينا سوية في مطعم صغير . هل تعرف أين ؟ كلا بكل تأكيد ، لو أنك كنت تعرف أين ، فذلك لم ترَ في تلك الأمسية إلا مغامرة شبيهة بما لا يحصى من المغامرات ، اذ ما كنتُ بالنسبة اليك ؟ امرأة بين مائة امرأة ، مغامرة في سلسلة المغامرات التي تتدحرج حلقاتها دون انقطاع . ثم أية ذكرى كان يمكن ان تحفظها عني ؟ كنت لا أتكلم الا قليلاً جداً ، لأن وجودك الى جانبي وسماعي لك تحدثني كانا سعادة لا متناهية بالنسبة إلي ، فلم أكن أريد أن أضيع أية لحظة من حديثك بسؤال أطرحه أو كلمة حمقاء أقولها . أبداً لن ينسى عرفاني بالجميل تلك الساعة ! لقد أجبت بصورة رائعة على ما كان إجلالي العميق ينتظره منك ! كنت حنوناً ، عذباً ، كثير الكياسة ، بعيداً عن كل تطفل ، متجنباً تلك الملاحظات التي يسمح البعض لأنفسهم بها بصورة مبكرة جداً ؛ لقد كان موقفك ، منذ اللحظة الأولى ، كثير الصداقة واليقين ، يلوح انه يستحق كل الثقة بحيث كنت تكتسبني بكليتي حتى إن لم أكُ لك سلفاً بكل إرادتي وكل كينونتي . أواه ! انك لا تدري أي فعل رائع قد حققت ، في ذلك المساء ، إذ لم تخيب خمس سنوات من الانتظار في الفتاة التي كنت !

« كان الوقت متأخراً ، فذهبنا . وأردت أن تعرف ، عند باب المطعم ، ان كنت في عجلة من امري ام أني أملك بعض الوقت ايضاً : كيف كان يمكن ان أخفي عنك أني كنت تحت تصرفك ؟ أجبتك إني أملك بعض الوقت ، فسألتني عندئذ ، وأنت تتغلب على تردد بسيط بدا في صوتك ، ان كنت اريد أن أغدو معك الى دارك كي نثرثر برهة من الزمن ، فأجبت من صميم قلبي : « بكل سرور » ، وكأنني أجد ذلك أمراً طبيعياً جداً . ولقد رأيت مباشرة أن سرعة قبولي قد بغتتك ، وأنها قد آلمتك أو أفرحتك — أهذا أم ذاك ، اني لم استطع أن أميز جيداً — ولكنك كنت مدهوشاً بصورة واضحة على أية حال . واني لأفهم دهشتك اليوم ؛ اني أعرف أن النساء قد اعتدن ، حتى حين يحسسن الرغبة اللاهبة في إعطاء انفسهن ، أن ينكرن ميلهن هذا ، ويدعين ذعراً ونقمة يتطلبان تهدئتها قبلاً بتوسلات ملحاحة ، وأكاذيب ، ووعود ، وأيمان . اني اعرف أن ممتهنات الحب وحدهن ، العاهرات ، ربما يجبن على مثل هذه الدعوات بقبول تام ومغتبط كما فعلت — أو أيضاً فتيات صغيرات ، مراهقات ساذجات كل السذاجة . أما عندي — كيف كان يمكن أن تشك في ذلك ؟ — فلم تك الارادة التي تعلن عن ذاتها ، الرغبة اللاهبة المكبوتة طوال آلاف الأيام ، والتي تتظاهر الآن بصورة مباغتة . لقد فوجئت بعنف اذن ! بحيث ابتدأت اثير اهتمامك ، أحس وأنا أسير الى جانبك نتبادل أطراف الحديث أنك تتفحصني بصورة جانبية ، في شيء كثير من الاستغراب والعجب . كان شعورك ، هذا الشعور الأكيد بصورة سحرية فيما يتعلق بالنفس الانسانية ، يستشم شيئاً غير عادي ، يخمن سراً في هذه الفتاة اللطيفة الرضية . واستيقظت رغبة المعرفة فيك ، فلاحظت من شكل أسئلتك اللبقة البارعة أنك تريد الامساك بذلك السر . ولكني

اتخذت موقف الدفاع ، فقد كنت أفضل أن تعتبرني مجنونة على ان أرفع النقاب عن سرّي .

« وصعدنا الى دارك . اصفح عني ، ياحبي ، اذا قلت لك انك لا تستطيع أن تفهم ما كان ذلك الصعود وهذا السلم يعنيان بالنسبة اليّ ، وأية نشوة وأي اضطراب قد اجتاحاني ، وأية سعادة مجنونة ، معذبة ، تكاد أن تكون قاتلة ، قد وقعت فريسة لها . حتى الآن لست استطيع ان افكر في ذلك دون ان أذرف العبرات ، وأنا لا املكها بالرغم من ذلك . ولكن تصوّر فقط ان كل حاجة في هذه الدار قد كانت مشربة ، اذا جاز التعبير ، بهواي اللاهب ، تمثل رمزاً لطفولتي ، لرغبتي التي اشتعلت منذ أمد طويل : الباب الذي انتظرتك أمامه الف مرة ، السلم الذي ترقبتك عليه دوماً وخمنت خطوتك عندما تصعده ـ هذا السلم الذي رأيتك عليه للمرة الأولى ـ والمنظار الصغير الذي تعلمت من ورائه أن أسبر أغوار نفسي ، والسجادة الموضوعة أمام الباب ، والتي جثوت عليها ذات يوم ، وصرير المفتاح الذي جعلني دوماً أترك مركز مراقبتي منتفضة الأوصال . ان كل طفولتي ، كل هواي ، يجدان هنا عشها ، في هذه الأمتار القليلة من الفراغ ؛ ههنا توجد كل حياتي . وهذه عاصفة تسقط عليّ ، في هذه اللحظة التي يتحقق فيها كل شيء ، كل شيء على الاطلاق ، والتي أدخل فيها معك ـ أنا معك ! ـ الى دارك ، الى دارنا . فكّر أن كل شيء ، خلال وجودي ، لم يكن حتى الآن ـ ان كلماتي لتبدو مبتذلة بكل تأكيد ، ولكني لا استطيع ان اعبر عن نفسي بصورة مختلفة ـ إلا واقعاً حزيناً كئيباً ؛ اني لم أرَ أمامي حتى تلك الساعة سوى عالم كامد رتيب ... ولكن هذه الأرض المسحورة التي يحلم الطفل بها ، جنة المدن ، تُفتح لي على حين غرة . فكر أن عيني قد شخصتا في حمية ، ألف مرة ، الى هذا الباب الذي أجتاز الآن

عتبته بخطى متأرجحة ، ولسوف تحس ـ سوف تحسّ فقط ، لأنك أبداً تعرف ذلك ، ياحبي ، بصورة تامة ! ـ كم ساعة من حياتي تتكثّف في تلك الدقيقة المدوّمة .

« بقيت عندك الليل بطوله ! انك لم تشك ابداً ان ليس رجل قد اقترب قبلك مني ، وان ليس انسان ايضاً قد لامس جسدي او رآه . كيف كان يمكن ان تفترض ذلك ، ياحبي ، ما دمت لم ابدِ لك ادنى مقاومة ، وما دمت قد منعت كل تردد يمليه الحياء ، وكل غايتي من ذلك ألا تخمن سرّ حبي ، هذا السر الذي كان يخيفك بكل تأكيد لو اطلعت عليه ـ ذلك ان الحب لا يمكن ان يكون ، بالنسبة اليك ، الا شيئاً خفيفاً ، يرتدي شكل اللهو والعبث ، ولا يتمتع بأية اهمية على الاطلاق . انك تخاف ان تخاطر نفسك في مصير ما ، تريد ان تتذوق سائر افراح الحياة دون حساب ، ولكنك لا تريد تضحية قط . ياحبي ، اذا قلت لك الآن اني كنت عذراء عندما منحتك نفسي ، فاني ارجوك الا تسيء فهم معنى كلامي ! اني لا اتهمك ، فأنت لم تجتذبني ، ولم تخدعني ، ولم تغرني ، بل هي انا ، انا نفسي ، التي ذهبت اليك ، تدفعني رغبتي الخاصة الى ذلك ، انا التي رميت بنفسي على عنقك ، التي تهاويت في مصيري . ابداً ، ابداً لن اتهمك ، كلا ! بل اني سوف اشكرك دوماً ، على العكس ، لأن تلك الليلة كانت غنية جداً بالنسبة اليّ ، طافحة للغاية باللـذة ، مفعمة بالسعادة حتى الدرجة القصوى ! عندما كنت افتح عينيّ في الظلام واحسك الى جانبي ، فقد كنت ادهش لأن الكواكب ليست فوق رأسي ، لشدة ما كانت السماء تبدو قريبة في متناول اليد . كلا ، ياحبي ، ابداً لم آسف على شيء ـ ابداً ! ـ بسبب تلك الساعة . اني لا أتذكر ذلك الآن ايضاً . كنت تنام ، وكنت اسمع صوت تنفسك ، وكنت ألمس جسدك واشعر

بنفسي قريبة كل هذا القرب منك ، فلقـــد بكيت في الظل غبطة وسعادة وهناء .

« وغادرتك مسرعة في الصباح ، في ساعة مبكرة جداً . كان لابدّ لي من الذهاب الى المخزن ، كما كنت اريد ان اترك الدار قبل قدوم الخادم: لم يكن يجب ان يراني . وعندما ارتديت ثيابي ، ووقفت هناك ، امامك ، اخذتني بين ذراعيك وتطلعت طويلاً اليّ . أهي ذكرى بعيدة غامضة تضطرب فيك ، او اني بدوت لك بكل بساطة جميلة وسعيدة ، مثلما كنت في واقع الأمر ؟ واعطيتني قبلة على فمي ، فخلصت نفسي بكل لطف كي اذهب . وعندئذ سألتني : «أفلست تريدين ان تأخذي بعض الورود معك ؟» ، فأجبت ان بلى . وعندئذ اخذت اربع زهرات بيض من إناء البلور الأزرق الموضوع على مائدة الكتابة (آه ! هذا هذا الاناء ، اني لأعرفه جيداً من النظرة الخاطفة الوحيدة التي ألقيتها على جناحك عندما كنت طفلة بعد) ، واعطيتنيها ، لقد حملتها الى شفتيّ ، هذه الزهرات الأربع ، طوال ايام عديدة .

« واتفقنا ، قبل ان اتركك ، على موعد لأمسية اخرى . ولقد جئتُ ، وكان ذلك رائعاً مرة اخرى ، ولقد منحتني ايضاً ليلة ثالثة ، ومن ثم اخبرتني انك مضطر الى السفر — أواه ! هذه الأسفار لشدّ ما كنت ابغضها منذ طفولتي ! — ووعدتني ان تتصل بي توّ أوبتك . واعطيتك عنواني على البريد الباقي لأنني لم اكن اريد ان اذكر لك إسمي ... كنت احتفظ بسري . واعطيتني مرة اخرى بضع زهرات ساعة الوداع — زهرات تقوم مقام الوداع !

« وبقيت اذهب يومياً ، طوال شهرين ، الى البريد ... ولكن لا ، لم

اصف لك هذه العذابات الجهنمية ، عذابات الانتظار واليأس ؟ اني لا أتهمك ، بل أحبك كما أنت ، لاهياً وناسياً ، مخلصاً وناكثاً للعهد ؛ إني أحبك هكذا ، هكذا فقط ، كما كنت دوماً ، وكما لما تزل حتى الآن . ولقد رجعت منذ فترة طويلة ، أخبرني بذلك نوافذك المضاءة ، ولكنك لم تكتب إليّ . إني لا أملك سطراً واحداً منك حالياً ، في ساعتي الأخيرة ، ولا سطراً وحيداً منك ، أنت الذي أعطيتك حياتي . لقد انتظرت ، انتظرت كالبائسة ، ولكنك لم تدعني ، لم تكتب إليّ سطراً .. ولا سطراً واحداً .

* * *

« لقد مات ولدي البارحة — ولقد كان ولدك أيضاً . لقد كان ولدك أيضاً ، يا حبي ، ثمرة إحدى تلك الليالي الثلاث التي قضيناها معاً ، أقسم لك على ذلك ، والمرء لا يكذب في ظل الموت . لقد كان ولدنا ، أقسم لك ، لأن رجلاً لم يلمسني منذ اللحظة التي وهبتك فيها نفسي ، حتى تلك اللحظة الأخرى حيث تلوى جسدي في آلام المخاض . إن ملامستك قدسيّرت جسدي مقدساً في نظري ، فكيف يمكن اذن أن اقسم نفسي بينك ، أنت الذي كنت كل شيء بالنسبة إلي ، وبين آخرين لا يستطيعون أن يلمسوا حياتي عن بعد إلا بصعوبة عظمى ؟ لقد كان ابننا ، يا حبي ، ابن حبي الواعي وحنانك اللامكترث ، السخي ، المسرف ، الذي يكاد أن يكون آلياً . لقد كان ولدنا ، ابننا ، ولدنا الوحيد . ولكنك تريد أن تعرف الآن — ربما مذعوراً ، وربما مدهوشاً — تريد أن تعرف الآن يا حبي ، لماذا اخفيت عنك طوال هذه السنوات المديدة وجود هذا الابن ، ولماذا أحدثك عنه اليوم فقط ، بينما هو يتمدد هناك ، راقداً في الدياجير ، راقداً الى الأبد ، وقد أتم

استعداداته للذهاب كي لا يرجع قط ، كي لا يؤوب أبداً ! ولكن كيف كان يمكن أن اقول لك ذلك ؟ انك لم تك لتصدقني قط ، انا الغريبة ، التي وهبت لك بسهولة فائقة هذه الليالي الثلاث ، أنا التي استسلمت لك دون تردد ، بله في حميا ايضاً ! إنك لم تك قط لتصدق ان تلك المرأة المتغنجة التي صادفتها برهة وجيزة فقط من الزمن ، سوف تظل مخلصة لك ، أنت الناكث للعهود — انك لم تك قط لتعترف بهذا الطفل ابناً لك دون ريبة تساورك وشكوك تدلهم عليك كيلا تزول مطلقاً ! انك لم تك لتستطيع قط ، حتى إن لاحت أقوالي لك معقولة يمكن تصديقها ، أن تبعد الريبة في أني اجرب أن ألقي على كاهلك ، انت الذي كنت ثرياً ، أبوة طفل غريب عليك . لقد كنت ترتاب فيّ ، وكان يبقى ظل بيني وبينك ، ظل من التشكك مضطرب متلاحق الأمواج . ولكني لم أكن أريد ذلك . ومن ثم فقد كنت أعرفك ؛ كنت اعرفك بصورة افضل مما تعرف انت نفسك ؛ كنت أعلم إنه سيصعب عليك ، أنت الذي تهوى ، في الحب ، اللامبالاة ، والخفة ، والعبث ، أن تصبح بغتة أباً ، وأن تتحمل بصورة مفاجئة مسؤولية مصير انساني مرهق . لقد كنت تحس إذن ، أنت الذي لا تستطيع أن تتنفس إلا بحرية تامة ، أنك مرتبط بي بطريقة ما ؛ وكنت تبغضني — بلى ، إني أعرف ذلك ، لقد كنت تفعل ذلك بالرغم من ارادتك ، بصورة غير واعية — بسبب هذه العبودية التي ستثقل عليك ؛ لقد كنت أصير مقيتة في نظرك ، وكنت تحقد عليّ ، ربما لبضع ساعات فقط ، وربما خلال دقائق قليلة سريعة الزوال ليس اكثر — أنا التي اريد ، في كبريائي ، أن تفكر فيّ طوال العمر دون سحابة واحدة أبداً . كنت أؤثر أن آخذ كل شيء على عاتقي على أن اصبح حملاً عليك ، وأن أكون بذلك الوحيدة ، بين سائر النساء ، التي تفكر فيها

بمحبة ، بامتنان وعرفان بالجميل . ولكن الحقيقة أنك لم تفكر فيّ مطلقاً ، بل نسيتني !

« اني لا أتهمك يا حبي ، كلا ، لست أتهمك ؛ اصفح عني اذا كانت قطرة من المرارة تسيل ، أحياناً ، من ريشتي ؛ اصفح عني — ولكن ولدي ، ولدنا ، أفليس هو متمدداً هناك ، تحت شعلة الشمعات المتذبذبة ؟ لقد مددت قبضتي المطبقة نحو الله ، وسميته مجرماً ! ان الاضطراب والظلمة يسيطران على حواسي . اغفر لي هذه الشكوى ، اغفرها لي . اني أعرف جيداً أنك ، في أعمق أعماق قلبك ، طيب ومستعد لتقديم المعونة دوماً ، وأنك تهب مساعدتك لمن يسألك اياها ، وأنك تقدمها حتى الى من هو غريب عليك تماماً . ولكن طيبتك لغريبة جداً ! انها طيبة مفتوحة للجميع ، وكل واحد يستطيع أن يستقي منها ويملأ يديه ! ان طيبتك لكبيرة ، كبيرة بصورة لا متناهية ، ولكنها — اعذرني — كسول كثيرة اللا مبالاة ؛ انها تريد أن يُضرب الحصار حولها ، وأن تخضع للعنف والقوة . فمعونتك ، انك تعطيها عندما تطلب منك ، عند ما يُوجه الرجاء اليك من اجلها ! وعضدك ، انك تمنحه حياء ، تمنحه بدافع من الضعف وليس من الغبطة . اسمح لي ان اقول لك بكل صراحة : ان حبك لا يؤثر الرجل الذي يعاني الحاجة ويلاقي الصعوبات على أخيك الذي يرتع في احضان السعادة . ولكن الناس الذين على غرارك ، حتى أفضلهم على الاطلاق ، يصعب جداً أن يتوجه المرء اليهم برجاء أو سؤال . لقد رأيت في ذات يوم ، وكنت طفلة بعد ، من خلال منظار الباب ، كيف تصرفت كي تتصدق على شحاد قد طرق بابك . لقد أعطيته مباشرة وبوفرة ايضاً ، حتى قبل أن يترجاك ، ولكنك مددت له صدقتك في شيء من القلق ، في عجلة تقول كل رغبتك في رؤيته يذهب عنك سريعاً . كان يلوح أنك تخاف من

التطلع في عينيه . ان هذه الطريقة الهاربة في الاعطاء ، هذا الخوف ، هذه الخشية من ان يوجه الشكر اليك ، لم أنسها قط منذ ذلك الحين . وهذا هو السبب في أني لم أتوجه اليك مطلقاً . لقد كنت تساعدني من دون ريب ، اني اعرف ذلك ، حتى دون ان تكون على يقين من أنه طفلك ؛ كنت تعزيني ، وتعطيني مالاً ، مالاً وفيراً ، ولكن تحدوك دوماً الرغبة المتعجلة الخفية في ان تبعد عنك الأشياء التي لا تسرك أو ترضيك . بلى ، اني لأظن ايضاً أنك كنت تحملني على القضاء على الطفل قبل أوانه ، الأمر الذي كنت اخشاه اكثر من أي شيء آخر ، اذ كيف يمكن ألا افعل ذلك منذ اللحظة التي تطلبه مني ، كيف يمكنني أن امنع عنك شيئاً سألتني اياه ؟ ولكن هذا الطفل كان كل شيء بالنسبة الي : لقد كان ينحدر من صلبك ، لقد كان أنت ايضاً ، ليس ذلك الكائن السعيد اللا مبالي الذي كنت والذي كنت أستطيع أن احتفظ به ، ولكن أنت إلى الأبد ، فيما كنت أفكر ، وقد أصبحت ملكاً لي ، حبيساً في صدري ، مرتبطاً الى حياتي . لقد كنت أمسك بك اخيراً ، في الوقت الراهن ؛ كنت استطيع أن اشعر بك ، في أوردتي ، تعيش وتنمو ؛ لقد أعطي لي ان أغذيك ، وأن ارضعك ، وان أغمرك بالمداعبات والقبلات عندما تلتهب نفسي وتشتاق الى ذلك . هل ترى ، ياحبي ، هذا هو السبب في أني كنت سعيدة عند ما عرفت اني أحمل في أحشائي طفلاً منك ، ولذا فقد امتنعت عن اعلان الأمر لك ، لأنك الآن لم تعد تستطيع قط أن تفلت مني .

« صحيح يا حبي ، انه لم يك الا شهور قليلة من السعادة فقط ، سعادتي حين افكر في الحادث سلفاً واغتبط به . ولقد كان هناك شهور اخرى مليئة بالرعب والعذابات ، مفعمة بالاشمئزاز تجاه دناءة البشر ونذالتهم . لم يك مركزي سهلاً ، افلم اكن استطيع ، اثناء اشهر حملي الأخيرة ، ان أغدو الى العمل خوفاً من ايقاظ

الريبة في نفوس اصحاب العمل الذين اشتغل عندهم ، ومن رؤيتهم يفضحون امري لأهلي ويشون بي عندهم . ولم اكن اريد ان اطلب مالاً من أمي ، بحيث عشت اذن ، طوال الزمن الذي انقضى حتى الولادة ، من بيع بعض الحلي التي كنت املكها، ولقد سرقت الغسالة القليل من المال الذي كنت ادخره من خزانتي ، وذلك قبل اسبوع واحد من موعد الوضع ، بحيث اضطررت أن أذهب الى دار للتوليد في سبيل ذلك . وهناك ، في ذلك المكان حيث لا يلتجىء الا اكثر النساء فقراً في تعاستهن، حيث لا يلتجىء الا المضطهدات، والمنسيات ، في وسط البؤس الأكثر مقتاً ، هناك جاء الطفل ، طفلك ، الى العالم .

« انه مميت ، هذا المستشفى ؛ كل شيء فيه غريب على المرء ، غريب ، غريب ؛ وكنا نتبادل النظر مثل الغريبات ، نحن المتمددات هناك وحيدات، طافحات جميعاً بالحقد والكراهية، لا يصل بيننا سوى وحدة البؤس والعذابات التي اجبرتنا على اتخاذ مكان في هذه القاعة الفاسدة الجو، العاجة برائحة الكلوروفورم والدم ، بالصيحات والأنين الذي لا ينقطع . ان كل ما يمكن أن يتحمله الفقر من إذلال ، من إهانات أخلاقية وحكمية على حد سواء ، قد تحملته في هذا القرب من بعض العاهرات والمريضات اللائي يجعلن من وحدة مصيرهن نذالة مشتركة . لقد تحملته تحت وقاحة اولئك الأطباء الفتيان الذين كانوا يرفعون غطاء السرير ، وقد افترت شفاههم عن ابتسامة ساخرة دنيئة ، ويروحون يجسون جسد المرأة المجردة عن كل دفاع ، مدعين اهتماماً علمياً كاذباً . لقد تحملته في حضور طمع الممرضات وجشعهن اللذين لا يحدان . أواه ! ان الحياء الانساني لا يلقى ، في هذه القاعة ، الا نظرات تصليه وكلمات تجلده ، واسم المرء المكتوب على لوحة فوق السرير هو كل ما يبقى منه ، لأن ما يتعمد

في الفراش ليس سوى حزمة من اللحم اللاهث يجسها الفضوليون ويتفحصونها ، فهي لا تزيد عن أن تكون حاجة رخيصة للاطلاع والدراسة . أواه . إنهن لا يعرفن ، النساء اللائي يعطين ازواجهن طفلاً في بيتهن الخاص ، في أحضان عناية حنون ، ما معنى أن تضع المرأة طفلاً عندما تكون وحيدة ، بعيدة عن كل حماية أو اهتمام عطوف ، وكأنها إنما تتمدد على طاولة التجارب الطبية . حتى اليوم ، عندما اصادف في كتاب كلمة « الجحيم » ، فاني أفكر مباشرة ، بالرغم مني ، في تلك القاعة التي تعذبت كثيراً فيها ، وسط الروائح الكريهة ، والأنين ، والضحك ، والصيحات الدامية المنطلقة من حناجر النسوة المكدسات هناك — في هذه القاعة التي هي في الحقيقة ، بالنسبة إلى حياتنا ، مذبح مقيت مرهق القسوة .

« اصفح عني ، اصفح عني لأني أحدثك عن كل هذا ! ولكن هذه هي المرة الوحيدة التي أفعل ذلك فيها ، ولن أحدثك عنه بعد الآن قط ، أبداً لن احدثك عنه بعد الآن . اني لم اتفوه بكلمة واحدة عنه طوال أحد عشر عاماً ، وعما قريب سوف أصبح خرساء الى الأبد . لابد لي من أن اهتف مرة واحدة بما كلفنيه هذا الطفل الذي كان فرحتي وسعادتي ، والذي يتمدد حالياً هناك ، دون حراك ، خالياً من نفخة الحياة فيه . لقد سبق فنسيتها ، تلك الساعات ، نسيتها منذ زمن طويل في ابتسامة الصغير وفي صوته ، في سعادتي ... أما الآن وقد مات ، فان عذابي قد أصبح حياً ، وكنت بحاجة الى التخفيف عن نفسي باعلان ذلك مرة ، هذه المرة الوحيدة .

« ولكني لست أتهمك أنت ؛ إني لا أتهم إلا الله ، الله وحده الذي أراد هذا العذاب المجرد عن المعنى . إني لم أتهمك ، أقسم على ذلك ، ولم أنهض ضدك أبداً ، حتى ولا في أشد ساعات تعاستي إظلاماً وإيلاماً ، حتى في الساعة التي

تلوى جسدي فيها في حمأة الآلام ، حتى حين كان يحترق خجلاً ، تحت أنظار الطلاب الشبان الفضولية الكاوية ، حتى في اللحظة التي مزّق الوجع فيها نفسي ، فاني لم أتهمك أمام الله أبداً ، ولم أندم أبداً على الليالي الثلاث التي قضيتها معك ، ولم يتحمل حبي أبداً طعنة أي عتاب من جانبي ، بل لقد احببتك دوماً ، وباركت دوماً الساعة التي لقيتك فيها . ولو اضطررت من جديد أن أجتاز جحيم هـذه الساعات من العذاب ، حتى إن كنت أعرف سلفاً ما ينتظرني ، ياحبي ، فلسوف أفعل مرة أخرى ما فعلتُ ، مرة أخرى أيضاً ، بله ألف مرة أيضاً !

* * *

« إن ولدنا قد مات ، وأنت لم تعرفه . أبداً ، أبداً حتى ولا في لمحة خاطفة مردُّها الصدفـة المحضة ، لم يلمس هـذا الـكائن الصغير المتورد ، المولود من كينونتك ، نظرتك ولو بصورة عابرة . لقد اختبأت عن عينيك طويلاً ، منذ أن أصبح هـذا الطفل لي ، إذ أضحى حبي اللاهب لك أقل ايلاماً ، بل إني لأحسب أني لم أعد أحبك بالعنف ذاته ، أو أن حبي على الأقل لم يكن يعذبني مثلما كان يفعل قبلاً . لم أكُ أريد أن أقسم نفسي بينك وبينه ، ولذا فقد منحت نفسي ، ليس لك أنت الذي كنت سعيداً ، تعيش خارجاً عني ، بل لذلك الطفل الذي كان يحتاج إلي ، الذي كان يجب أن أغذيه ، الذي كنت أستطيع أن أضمه بين ذراعيّ وأغمره بقبلاتي . كنت ألوح وقد تخلصت من الاضطراب الذي ألقيته في نفسي ، وانتُزعت من مصيري السيء ، وانقذتُ أخيراً على يد هذا الآخر الذي هو أنت نفسك ، لكن الذي كان لي حقاً وفعلاً . ولم يعد هواي يذهب بي الى أمام منزلك بكل تواضع إلا نادراً ، نادراً جداً ، فكنت لا أصنع إلا شيئاً واحداً فقط ، ألا وهو أن أرسل ، في

عيد ميلادك من كل عام ، بصورة منتظمة ، باقة من الأزهار البيض ، الشبيهة تماماً بتلك الأزهار التي قدمتها لي بعد ليلة حبنا الأولى . هل سألت نفسك ، طوال هذه الأعوام العشرة ، هذه الأعوام الأحد عشر ، من هو الذي يرسلها للك ؟ هل تذكرت — ربما — تلك التي اعطيتها ، ذات يوم ، أزهاراً مماثلة ؟ اني أجهل ذلك ، ولن اعرف قط جوابك . اما انا فقد كان يكفيني ان اقدمها إليك بصورة خفية ، واجعل ذكرى تلك اللحظة تزدهر وتتفتح مرة في كل عام .

« انك لم تعرفه قط ، صغيرنا المسكين . واني لا ألوم نفسي اليوم ، لأنني اخفيته عن عينيك ، ذلك انك كنت تحبه بكل تأكيد . ابداً لم تعرفه ، الطفل المسكين ، ابداً لم تره يبتسم ، عندما كان يرفع جفنيه رفعاً ضئيلاً ، فتلقي عيناه السوداوان الذكيتان — عيناك — نورها النقي المفرح عليّ ، على العالم بأسره . آه ! لقد كان كثير المرح ، عظيم الفتنة ، تتكرر فيه ، بصورة طفولية ، فتنة كينونتك بأسرها ، وينعكس فيه خيالك الحي الصاخب . لقد كان يستطيع ان يلهو بجنون ، طوال ساعات عديدة ، بشيء ما مثلما تسر انت باللهو بالحياة ، ومن ثم كان يعود الى الرزانة ، فاذا هو جالس امام كتبه ، مقطب الحاجبين ، مغضن الجبين . كان شبهه بك ينمو يومياً ، لا بل ان تلك الثنائية من الجد والعبث الخاصة بك قد طفقت تتطور فيه ايضاً ، فيزداد حبي له بمقدار ما يعظم شبهه بك . كان يحفظ دروسه جيداً ، ويثرثر بالفرنسية مثل عقعق صغير . وكانت دفاتره انظف دفاتر صفه اطلاقاً ، ولشد ما كان لطيفاً ورشيقاً ، بالاضافة الى ذلك ، في ثوبه المخملي الأسود ، او في بزته البحرية البيضاء ! لقد كان يفوق الجميع وجاهة أيان ذهب ، فاذا مررت معه على بلاج غرادو ، توقفت السيدات ورحن يمسحن على شعره الأشقر الطويل ؛ وعندما كان

يتزحلق في سيمرينغ ، كان الناس يستديرون دوماً نحوه في اعجاب عظيم ! لقد كان جميلاً جداً ، رقيق الحاشية كثيراً ، عظيم اللطف حتى درجة بعيدة ! وعندما اصبح ، في السنة الأخيرة ، طالباً داخلياً في مدرسة ماري-تيريز ، كنت تقول اذا رأيته انه احد النبلاء الايطاليين في القرون الوسطى ، لطريقته في ارتداء بزته وحمل سيفه الصغير . اما الآن ، فانه لا يملك سوى قميصه الصغير ، هذا الصبي المسكين ، وهو يتمدد هناك شاحب الشفتين ، متشابك اليدين على صدره .

« ولكن لعلك تريد أن تعرف كيف استطعت تنشئته هكذا ، في الأبهة ، كيف تصرفت كي اسمح له ان يعيش هذه الحياة اللامعة الفرحة التي يعيشها ابناء الطبقة الراقية ؟ يا حبي ، اني اتحدث اليك من احضان الظل ، ولست اخجل من اي شيء مطلقاً ، ولذا فسوف اروي لك كل شيء بدون تردد ، انما ارجوك الا تخاف والا تفرق ؛ يا حبي ، لقد بعت نفسي . لم اكن بالضبط ما يدعونه بنت الشارع او العاهرة ، ولكني قد بعت نفسي . لقد عرفت اصدقاء اغنياء ، وعشاقاً موسرين ، فتشت عنهم في البدء ؛ ثم كانوا هم الذين يفتشون عني ، لأنني كنت - هل لاحظت ذلك ؟ - جميلة جداً . كان كل رجل اعطيته نفسي يأخذ بالعطف عليّ ، فكانوا جميعاً ممتنين لي ، متعلقين بي ؛ لقد احبوني جميعاً دون استثناء ... جميعاً ، ما عداك ، بلى ، انت وحدك ، يا حبي .

« هل تحتقرني حالياً وتزدريني اذ رفعت النقاب لك عن اني بعت نفسي ؟ كلا ، انك لا تحتقرني ، انا اعرف ذلك ؛ اني اعرف انك تفهم كل شيء ، وتفهم أيضاً اني إذا تصرفت على هذا الغرار ، فذلك في سبيل اناك الأخرى ، طفلك ، من دون أي سبب آخر مطلقاً . لقد لمست يوماً ، في تلك القاعة من دار التوليد ، الجانب الرهيب للفقر ، فأصبحت اعرف ان الفقير هو

الضحية دوماً في هذا العالم ، هو السكان الذي يحطون منه ، ويدوسونه بالأقدام ، فلم أك اريد ، بأي ثمن كان ، ان ينمو طفلك ، طفلك الذي يشع جمالاً ، في الحضيض ، وأن يفسد من جراء الاحتكاك الفظ بأبناء الشارع ، وان يذبل في الهواء الفاسد الذي يملأ قبو منزل كنت سأضطر الى سكناه . يجب ألا يعرف فوه الرقيق طين الساقية ، وكذلك يجب ألا يعرف جسده ، جسده الناصع البياض ، البريء من كل دنس ، ثياب الفقير العفنة الخشنة . كان يجب ان يستفيد طفلك من كل شيء ، من سائر خيرات الأرض ومحاسنها ؛ كان يجب ان يرتفع ، بدوره ، الى مستوى حياتك انت .

« ذلك هو السبب ، السبب الوحيد الذي حملني على بيع نفسي . لم تك تلك تضحية مني ، لأن ما يدعونه عادة شرفاً وعاراً لم يكن له وجود في نظري . لم اكن ابالي بما يمكن ان يصنعه جسدي ، مادام الذي أخصه لا يحبني . ولم تك مداعبات الرجال ، لا بل حتى عاطفتهم الأعمق ، تلمس شغاف قلبي مطلقاً ، وان اضمرت احتراماً عظيماً لعدد كبير منهم ، وهزتني الشفقة كثيراً امام حبهم الوحيد الجانب الذي يذكرني بمصيري الخاص . ان سائر الذين عرفتهم قد عاملوني بطيبة قلب عظيمة ، ودللوني جميعاً ، واحترموني دون استثناء ، وبصورة خاصة كونت امبراطوري ، ارمل ومتقدم في السن ، ذلك الذي كلت قدماه لكثرة ما طرق الأبواب كي يُدخل الى مدرسة ماري ـ تيريز الطفل الذي لا أب له ، طفلك ... كان يحبني بصورة أبوية ، وقد طلب مني الزواج ثلاث أو أربع مرات ، بحيث كنت اكون اليوم كونتيسا ، وسيدة قصر اسطوري في التيرول ، لا أعرف الهموم والمتاعب ولا تخطر لي على بال ، لأن الطفل كان يلقى فيه اباً حنوناً يعبده ،

وأنا زوجاً وجيهاً ، طيباً ورقيق الشمل . ولكني لم أقبل ، بالرغم من إصراره وتكراره العرض باستمرار ، وبالرغم من ان رفضي قد أساء كثيراً اليه . ولربما ارتكبت بهذا الرفض فعلاً جنونياً لايغتفر ، لأني كنت اذن اعيش رخية البال في الوقت الراهن ، معتزلة الناس في مكان ما ، يرافقني دوماً هذا الطفل ، هذا الطفل الحبيب . ولكن لمَ لا أعترف لك ؟ لم أكُ اريد ان أرتبط ، لأني كنت اريد أن اكون ، في كل لحظة ، تحت تصرفك . في اعمق اعماق قلبي ، في كينونتي غير الواعية ، كان ذلك الحلم الطفولي يعيش دوماً ، ، الحلم بأنك ربما دعوتني مرة اخرى ، ولو لساعة واحدة ليس غير . وفي سبيل امكانية هذه الساعة رفضت كل شيء ، لأني كنت أرغب أن أكون متأهبة لندائك الأول . وهل كانت حياتي بأسرها ، منذ خرجت من طور الطفولة ، الا انتظاراً فقط ، انتظار ارادتك ؟

« ولقد جاءت تلك الساعة في الحقيقة ، ولكنك لا تعرف متى جاءت . انك لا تشك في ذلك ، يا حبي . وانك لم تعرفني ، حتى في تلك اللحظة — ابداً ، ابداً ، ابداً ، لم تعرفني ! بلى ، لقد لقيتك كثيراً من قبل في المسارح ، والحفلات الموسيقية ، والطرقات — وكان قلبي ينتفض في كل مرة ، ولكنك كنت تمر دون أن تراني . لقد كان مظهري الخارجي مختلفاً جداً بكل تأكيد : ان الطفلة الهيابة قد اصبحت امرأة ، امرأة جميلة فيما يقولون ، بهية الطلعة ، محاطة بالمعجبين والعباد .. كيف كان يمكن أن ترتاب في أني تلك الفتاة الحيية التي رأيتها في الفور الليلي المتسرب في حياء الى مخدع نومك ! وكان احد الرجال الذين ارافقهم يحبيك احياناً ، فترد على تحيته ، وترفع عينيك نحوي ، لكن نظرتك تظل دوماً

غريبة بمقدار ما هي بشوشة ، تقدرني فقط ، لكن لا تعرفني أبداً ؛ لقد كانت بعيدة عني ، بعيدة بصورة مبرحة . وكان ذلك النسيان لشخصي ، الذي اعتدت عليه تقريباً في تلك الاثناء ، عذاباً أليماً بالنسبة إليّ . وفي ذات يوم — إني ما برحت اتذكر ذلك — كنت في مقصورة في الأوبرا برفقة أحد أصدقائي ، وكنت انت جالساً في المقصورة المجاورة. وانطفأت الأنوار لدى بدء التمثيل ، ، فلم اعد استطيع ان أرى محياك ، ولكني كنت احس أنفاسك قريبة جداً مني ، مثلما أحسستها في تلك الليلة من الهوى ، بينما كانت يدك ، يدك الرقيقة الرائعة ، ترتاح على حافة المقصورة المكسوة بالمخمل . واجتاحتني في تلك اللحظة رغبة لا متناهية ، الرغبة في ان انحني وأطبع بكل تواضع قبلة على هذه اليد الغريبة ، هذه اليد العزيزة التي احسست ذات يوم عناقها الحنون . وفيما حولي ، كانت الموسيقى تنشر امواجها الثاقبة ، فتزداد رغبتي عنفاً باستمرار . ولقد اضطررت ان ابذل جهداً عظيماً كي اسيطر على اعصابي ، لشدة ما كانت القوة التي تجتذب شفتيّ نحو يدك العزيزة أتية لاهبة . وطلبت من صديقي ، في نهاية الفصل الأول ، ان نذهب ، اذ لم اعد اطيق ان اجدك هناك ، الى جانبي ، غريباً جداً وقريباً جداً في الظلمة الشاملة .

« ولكن الساعة المنتظرة بفراغ صبر قد جاءت أخيراً ، جاءت مرة اخرى ، جاءت تزورني مرة اخيرة في حياتي التي اصبحت نهباً للقضاء وفريسة . كان ذلك قبل سنة واحدة بالضبط ، غداة عيد ميلادك . يالالامر الغريب ! اني لم اكف قط عن التفكير فيك ، لأني كنت احتفل بذلك المولد كعيد عظيم دوماً . كنت قد خرجت منذ الصباح الباكر ، وابتعت الأزهار البيض التي ارسلها لك كل عام تذكار لحظة قد

نسيتها انت كل النسيان . ورافقت الصغير الى نزهته بعد الظهيرة ، وصحبته الى معمل حلويات ديمل ، وفي المساء أخذته إلى المسرح . كنت اريده ان يعتبر هو أيضاً ، منذ فتوته ، ذلك اليوم كعيد صوفي ، حتى دون أن يعرف معناه الحقيقي . ومن ثم قضيت الغداة برفقة ذلك الصديق الذي كنت أعيش معه في تلك الأثناء ، وهو صناعي فتى عظيم الثراء من مدينة برون ، يدللني ويعبدني عبادة منذ اتصلت به قبل سنتين . ولقد كان يريد ، هو الآخر ، أن يتزوجني ، ولكني قابلته دوماً برفض ليس ما يبرره في الظاهر ، بالرغم من أنه غمرنا بالهدايا ، الطفل وأنا ، وبالرغم من أنه كان جديراً بالحب من أجل طيبة قلبه ، الثقيلة نوعاً ما ، والمشبعة بالعبودية . وذهبنا معاً إلى إحدى الحفلات الموسيقية حيث لقينا جماعة مرحة من الأصحاب ... فتناولنا عشاءنا جميعاً في أحد مطاعم رينفستراس ، وهناك اقترحت ، في ملء الضحك والثرثرة ، ان نذهب الى أحد المراقص في تاباران . لم يك هذا النوع من المؤسسات ، بمرحها الكاذب والمشرب خمراً ، يروق لي البتة ، بحيث أن الرفض من قبلي كان نصيب سائر الذين كانوا يقترحون تسليات على هذا الغرار . ولكني احسست في تلك المرة ، على حين غرة — كان يخيل إلي ان قوة سحرية لا يسبر غورها تجتاحني ، وتدفعني بغتة الى إلقاء اقتراحي الذي ثنى عليه الجميع في هياج فرح وحماسة لاهبة — رغبة لا يمكن تفسيرها ، فكأن شيئاً خاصاً ينتظرني في ذلك المكان بالذات . ونهض الجميع ، وقد اعتادوا ان يفعلوا دوماً ما يرضيني ، وغدونا سوية الى تاباران حيث شربنا الشمبانيا ، فاذا فرح مجنون تماماً ينتابني بصورة مباغتة ، فرح يكاد ان يكون مؤلماً في

الوقت نفسه ، فرح لم اجربه من قبل ابداً ... رحت اشرب وأشرب ، وانشد مثل الباقين أغنيات بذيئة مبتذلة ، واحس حاجة لا تقاوم تقريباً إلى الرقص ، وإلى إطلاق صيحات الفرح تترى . وفجأة — كان يلوح كأن شيئاً بارداً أو محرقاً قد استقر على قلبي — انتفضت بكل جسدي: لقد كنت تجلس مع بعض الأصدقاء إلى المائدة المجاورة ، وكنت تطلع إليّ بنظرة ملؤها الاعجاب والرغبة ، هذه النظرة التي هزتني دوماً حتى اعمق أعماقي . إن عينيك تتعلقان بي من جديد ، للمرة الأولى منذ عشرة أعوام ، بكل قوة كينونتك غير الواعية واللاهبة . وطفقت أرتعش ، وكاد القدح الذي أحمله ان يسقط من يديّ . ومن حسن الحظ ان رفاق مائدتي لم يلاحظوا اضطرابي الذي امحى في ضوضاء الهتافات والموسيقى الصاخبة .

« وأصبحت نظرتك محرقة أكثر فأكثر ، تغمسني بكليتي في مجمرة لاهبة . لم أك أدري اذا كنت قد عرفتني أخيراً ، بعد طول انتظار ، او اذا كنت تشتهيني كامرأة لم تأخذها بعد بين ذراعيك ، كأية امرأة أخرى ، كامرأة غريبة . وصعد الدم الى خديّ ، فلم أعد أجيب رفاقي الا في شرود وعدم انتباه . ومما لاريب فيه أنك لاحظت مبلغ مألقت نظرتك في من الاضطراب ، فسألتني باشارة من رأسك لا يمكن أن يلحظها الآخرون أن أتفضل بالخروج برهة الى الرواق ، ومن ثم دفعت ما استحق عليك بصورة جهارية ، واستأذنت من أصدقائك ، وغادرت المكان ، ليس دون ان أن تشير لي برأسك مرة أخرى معلناً إليّ انك في انتظاري خارجاً . ورحت أرتعش ، فكأنني فريسة البرد أو الحمى ، ولم اعد استطيع ان أجيب على الأسئلة التي تطرح عليّ ، ووجدتني عاجزة عن السيطرة على دمي الذي

يغلي ويفور . وأرادت الصدفة أن يأخـــذ زنجيان ، في تلك اللحظة بالضبط ، برقصة جديدة وغريبة ، وهما يضربان الأرض بأعقابها ، ويرسلان صيحات حادة مرتفعة ، بحيث شخصت سائر الأبصار إليهما في اهتمام ، فاكتسبت هذه الفرصة ، وقلت لصديقي اني سأعود حالاً ، ولحقت بك .

« كنت تنتظرني خارجاً في الرواق ، أمام المشلح ، فاستنارت نظرتك عندما رأيتني أقدم اليك ، وأسرعت لملاقاتي . ورأيت في التوّ واللحظة أنك لم تعرفني ، لم تعرف طفلة الزمان الغابر وفتاته البريئة . لقد كنت تقدم يدك من جديـــد ، عندما مددتها كي تمسك بي ، نحو امرأة تصادفها للمرة الأولى ، نحو امرأة مجهولة منك . وسألتني في ألفة تامة : « أفلست تستطيعين ذات يوم أن تمنحيني ، أنا الآخر ، ساعة من الزمان ؟ » كنت تحسبني واحدة من اولئك النساء اللائي يبعن انفسهن ليلة اثر ليلة ويتلقين اجرهن لقاء ذلك . قلت : « بلى » ! كانت تلك نفس « البلى » المرتجفة ، والراضخة بالرغم من ذلك ، التي أجابتك بهـا في الطريق المظلمة ، قبل عشر سنوات ، الفتاة الذي كنت يومئذ . وسألتني : « ومتى نستطيـع ان نلتقي ؟ » فقلت : « مـتى تريد . » كنت لا أعرف الخجل أمامك مطلقاً ، فتطلعت إلي في شيء من الدهشة ، فريسة لذات تلك الدهشة المجبولة من الريبة والفضول التي ابديتهـا فيما مضى أيضاً تجاه قبولي السريع وسألتني في شيء من التردد : « أتكونين حرة الآن ؟ » . فقلت : « نعم ، فلنذهب » .

« وأردت ان أغدو الى المشلح كي استرد معطفي .

« وفي هذه اللحظة تذكرت أن معطفي ومعطف صديقي مرتبطان بذات البطاقة ، وأن هذه البطاقة في حوزته . كانت العودة اليه وسؤاله عنها ، دون مبرر واضح ، مستحيلة تماماً ، كما أني لم اكن أريد ، من جهة اخرى ، أن

أفلت من قبضتي تلك الساعة التي استطيع ان اقضيها برفقتك ، هذه الساعة المرجوة في حمية منذ زمن طويل . وهكذا فاني لم أتردد ثانية واحدة ، بل اكتفيت بالقاء وشاحي على ثوب السهرة الذي ارتديه ، وخرجت في الليل المضب الرطب ، دون ان اهتم بمعطفي ، ودون ان اعنى بالكائن الطيب العطوف الذي كان يقوم بأودي منذ سنوات ، الرجل الذي ألحق السخرية به تجاه اصدقائه ، إذ اهجره هكذا ، انا التي كنت عشيقته منذ سنوات ، لدى اول طرفة عين يغمزني غريب بها . اواه ! لقد كنت اعي تماماً ، في صميم نفسي ، مبلغ النذالة ، ونكران الجميل ، والرجس التي ارتكبها بحق صديق مخلص ؛ كنت ادرك اني أتصرف بصورة تحمل على السخرية ، وأني اسيء الى الأبد ، بجنوني ، الى رجل يطفح طيبة نحوي وأجرحه بصورة مميتة ؛ كنت ارى بكل وضوح اني احطم حياتي . ولكن ماذا يهمني من الصداقة ، ماذا يهمني من الوجود ، تجاه ذلك الصبر الفارغ الذي يتملكني كي احسّ مرة اخرى ملامسة شفتيك ، واسمع كلمات حنانك تصعد نحوي ؟ هكذا قد احببتك ؛ اني استطيع ان اقول ذلك حالياً بعد ان انقضى كل شيء ، بعد ان انتهى كل شيء الى الأبد . وإني لأظن انك لو دعوتني وأنا ارقد على فراش الموت ، فلسوف أجد دوماً القوة علي النهوض واللحاق بك .

« كانت عربة تقف عند باب المرقص ، فأسرعنا الى بيتك . وهكذا سمعت من جديد صوتك ، وتمتعت بقربك الحنون مرة أخرى ؛ لقد كنت سكرى ، فريسة ذات السعادة الصبيانية المضطربة ، مثلي في المرة الأولى بالضبط . بأية حال من الاشراق لقد تسلقت ، من جديد ، السلالم للمرة الأولى بعد عشرة اعوام ... كلا ، كلا ، اني لا استطيع ان اصف لك ذلك ؛ لست استطيع

أن أصف لك كيف كانت عاطفة مضاعفة تمزج في باطني ، في تلك اللحظات ، الماضي والحاضر بأسرها ، ولا كيف كنت لا أرى في كل هكذا في كل هذا إلاك وحدك دوماً . لم يطرأ على غرفتك الا تبدل طفيف ، فقد زاد عليها عدد من اللوحات ، وبعض الكتب الجديدة ، وقطع غريبة من الأثاث هنا وهناك ، ولكن كل شيء كان يوجه إلي ، بالرغم من ذلك ، تحية أليفة . وعلى منضدة العمل كان الاناء ، وفيه الزهور ، زهوري ، تلك التي بعثت إليك بها في العشية بمناسبة عيد ميلادك ، تذكار امرأة لم تعد تتذكرها بالرغم من ذلك ، لم تعد تعرفها حتى وهي تقف حالياً الى جانبك ، تمسك يدك بيدها ، وتضغط شفتاك على شفتيها . ولكني كنت سعيدة على أية حال إذ تحققت من أنك تعنى بأزهاري ، بحيث ان نفساً من حياتي ، عطراً من حبي ، يسبح هكذا ، بالرغم من كل شيء ، فيما حولك ...

« أخذتني بين ذراعيك ، وقضيت من جديد معك ليلة مفعمة باللذة . ولكنك لم تعرفني ، حتى في عربي . استسلمت سعيدة لمداعباتك العليمة ، ورأيت ان حميتك العاشقة لا تفرق أبداً بين الحبيبة وبين امرأة تبيع نفسها ، وانك تهب ذاتك بكليتك الى رغبتك ، بكل الخفة والاسراف اللذين يميزانك . لقد كنت عذباً جداً ، حنوناً للغاية معي ، مع امرأة صادفتها في ملهى ليلي ؛ لقد كنت رقيق الشمل ، عطوفاً ، كثير العناية حتى الدرجة القصوى ، ولكنك كنت تظهر في الوقت ذاته ، بالرغم من ذلك ، هوى عظيماً في التمتع بالمرأة ، هوى فريداً في نوعه . لقد أدركت مجدداً ، وانا سكرى بالسعادة القديمة ، تلك الثنائية الفريدة في كائنك ؛ لقد لقيت مجدداً في شهوانيتك ذلك الهوى العقلي النير الذي جعل ، فيما مضى ، من الطفلة عبدة لك . ابداً لم ألق عند اي رجل ، في ملاطفاته ، ذلك النسيان المطلق للبرهة الراهنة ، أبداً لم ألق

مثل ذلك الانصباب ، ومثل ذلك الاشعاع المنطلق من أعماق الكينونة – هذا الاشعاع وذلك الانصباب اللذين سينطفئان في الحقيقة بعد ذلك ، ويذوبان في نسيان لامتناه يكاد أن يكون لاإنسانياً .

« ولكني ، أنا الأخرى ، قد نسيت نفسي : أي شيء كنت عندئذ في الظلمة ، الى جانبك ؟ الطفلة الملتهبة التي كنت في الزمان الغابر ، أمّ ولدك ، الغريبة ؟ أواه ! لقد كان كل شيء أليفاً إلي ، قريباً جداً مني ، ومع ذلك كان كل شيء يرتعش بحياة جديدة ، في تلك الليلة الملتهبة ! وكنت أضرع كي لاتنتهي !

« ولكن الصباح جاء ، فنهضنا في ساعة متأخرة . دعوتني مرة اخرى الى تناول طعام الافطار معك ، فاحتسينا الشاي الذي حضره خادم غير منظور ، بصورة خفية ، في غرفة الطعام ، وثرثرنا بعض الوقت . ولقد تحدثت الي من جديد ، بكل تلك الألفة المصنوعة من الصراحة واللطف ، والخاصة بك من دون سائر الناس ، ومن جديد دون ان تطرح أية أسئلة لاموضع لها ، ودون أن تظهر أي فضول تجاه شخصي بالذات . ولم تسألني اسمي ، ولا مسكني ، فأنا لم أك بالنسبة اليك ، مرة أخرى ، سوى المغامرة ، المرأة المغفلة ، ساعة الهوى الذي يتبخر في دخان النسيان دون أن يترك أثراً على الاطلاق . وأخبرتني انك ستذهب الآن في رحلة الى افريقيا الشمالية تدوم شهرين أو ثلاثة أشهر ، فرحت أرتجف في ملء سعادتي ، لأن ضربات هذه الكلمات قد شرعت تتردد في اذني : « لقد انتهى كل شيء ، انتهى ، ولفّك النسيان ! » . وكنت أرمي بنفسي ، بكل طيبة خاطر ، على قدميك وأصيح : « خذني معك ، كي تعرفني أخيراً ، أخيراً ، أخيراً ، بعد كل هذه السنوات » . ولكني كنت خجلى جداً وجبانة حتى درجة بعيدة ، ضعيفة ومستعبدة أمام وجهك ، بحيث لم

أستطع أن أقول سوى هذه الكلمات : « يالالأسف ! » ، فاستقرت نظرتك عليّ وقد ابتسمت شفتاك ، وسألتني : « أتشعرين حقاً بالعناء من أجل ذلك ؟ » .

« وفي هذه اللحظة تملكني اندفاع مباغت ، فتطلعت اليك طويلاً ، بثبات ، ومن ثم قلت : « ان الرجل الذي أحبه يسافر ، هو الآخر ، دوماً » ، ومن ثم شخصت اليك ، مثبتة أنظاري في حدقتيك مباشرة ، وقلت في وليجة نفسي ، وأوصالي جميعاً ترتعش ، وكينونتي بأسرها متوترة بشدة : « الآن ، الآن سوف يعرفني . ولكنك لم تجبني بسوى ابتسامة ضئيلة ، ومن ثم قلت كي تعزيني : » بلى ، ولكن المرء يعود دوماً » . فرددت عليك بهذه الكلمات : « بلى انه يعود ، ولكنه يكون قد نسي » .

« لاريب أن شيئاً غريباً ، شيئاً من عاطفة متأججة الأوار ، كان يكمن في طريقتي بالتفوه بهذه الكلمات لانك نهضت تواً ، ورحت تنظر الي في دهشة وكثير من الحنان . واخذتني من كتفيّ وقلت لي : « ان ما هو حسن لايمكن ان يُنسى ، وأنا لن أنساك » . وكانت نظرتك تغوص ، في الوقت ذاته ، حتى اعماقي ، تلوح كأنها تريد أن تأخذ انطباع صورتي . واذ أحسست بها تخترقني ، باحثة ، منقبة ، ممتصة كل كينونتي ، فقد ظننت في تلك اللحظة أن السحر الذي كان يمنعك عن الرؤية قد انقطع . لسوف يعرفني ، لسوف يعرفني . كانت نفسي ترتعش بكليتها لدى هذه الفكرة .

« ولكنك لم تعرفني . كلا ، انك لم تعرفني ، بله لم أك في أي وقت آخر غريبة عليك اكثر مني في تلك اللحظة ، وإلا لم تك تفعل أبداً ما فعلت بعد دقائق معدودات . لقد قبلتني ، قبلتني مرة أخرى في هوى جامح ، حتى اضطررت الى اصلاح الاضطراب الذي طرأ على زينتي . وبينا كنت أقف أمام

المرآة – آه! لقد خيل اليّ انه يغمى عليّ خجلاورعباً! – رأيتك الى الوراء مني تدفع في معطفي، بصورة خفية، بعض اوراق النقد الكبيرة. كيف وجدت القوة العظيمة كي لا أصيح، كي لا أصفعك في تلك اللحظة، أنا التي أحبك منذ طفولتي، أنا أم طفلك. لقد كنت تنقدني ثمن تلك الليلة! اني لم أك، في عينيك، سوى عاهرة من تاباران، ولا شيء اكثر من ذلك – وقد نقدتني أجري، بلى أجري! لم يكن يكفي أن تنساني، بل لم يكن بدّ من ان تذلني أيضاً.

« جمعت أشيائي بسرعة. كنت أريدان اذهب، ان اذهب بأقصى السرعة. كنت أتألم كثيراً. مددت يدي كي أتناول قبعتي، وكانت على منضدة الكتابة الى جانب الاناء الذي يحوي الزهور البيض، زهوري، فاذا حاجة قوية، حاجة طاغية لاتقاوم، تتملكني في تلك اللحظة، فجربت مرةأخرى ان اوقظ ذكرياتك. قلت: « أفلست تريد ان تعطيني واحدة من زهورك البيض؟ ». فأجبتني: « بكل طيبة خاطر ». وتناولت زهرة في الحال، فقلت: « ولكن، لعل امرأة قد اعطتك اياها، امرأة تحبك؟ ». وكان جوابك كما يأتي: « ربما، ولكني اجهل ذلك. لقد اعطيتُ اليّ من شخص لا اعرفه، ولذا فاني احبها ». فتطلعت اليك، وقلت: « لعلها تأتي ايضاً من امرأة قد نسيتها؟ ».

« فرفعت عينيك الي في دهشة، بينا رحت بدوري انظر اليك في ثبات. كانت نظرتي تهتف بك: « اعرفني، اعرفني اخيراً! ». ولكن عينيك كانتا تبتسمان في ودّ دون ان تفهما. وقبلتني مرة اخرى، ولكنك لم تعرفني.

« وتوجهت بسرعة نحو الباب، لأني احسست العبرات تصعد الى عينيّ، وهـذه العبرات يجب ألا تراها. خرجت باندفاع عظيم، حتى كدت

اصطدم في الرواق بجان ، خادمك . ولقد ذعر المسكين ، فقفز جانباً بسرعة كبيرة ، وفتح الباب بعنف كي يفسح لي مجال الخروج . واذ نظرت اليه ، خلال تلك البرهة — هل تسمع ؟ — خلال تلك الثانية الوحيدة ، إذ نظرت الى العجوز والدموع تترقرق في عينيّ ، رأيت لمعاناً مفاجئاً يعتلج في نظرته . خلال ثانية واحدة — هل تسمع ؟ — خلال تلك الثانية الوحيدة ، قد عرفني خادمك ، هو الذي لم يرَني منذ طفولتي .

« كنت أجثو امامه ، وكنت اقبل يديه ! انتزعت سريعاً من معطفي الأوراق النقدية التي جلدتني بها ، ودفعتها في يده . كان يرتجف ، وينظر اليّ في فرق . لعله قد فهمني ، في تلك الثانية ، افضل مما فهمتني أنت طوال وجودك . ان سائر الرجال ، جميعاً ، قد دللوني ، وكانوا جميعاً عطوفين علي ؛ وأنت ، أنت وحدك ، قد نسيتني ؛ أنت ، أنت وحدك ، لم تعرفني أبداً .

* * *

« إن ولدي قد مات . ولدنا ! ولم يعد لي حالياً أي انسان في العالم أحبه ، أي انسان إلاّك . ولكن ماذا انت بالنسبة اليّ ، أنت الذي لم تعرفني ابداً ، انت الذي تمر الى جانبي مثلما يمر المرء الى جانب الماء ، انت الذي تمشي عليّ وكأنك تمشي على حجر صلد ، انت الذي تذهب دوماً ، تتابع طريقك باستمرار ، وتتركني في الانتظار الأبدي ؟ لقد ظننت ذات يوم أني امسك بك ، أني امسك في هذا الصغير بالكائن الهارب الذي انت . ولكنه كان ابنك : لقد غادرني في الليل ، بقسوة ، كي يسافر ؛ لقد نسيني ، ولن يرجع اليّ أبداً ! وهذي انا وحيدة من جديد ، اكثر وحدة مني في اي وقت مضى ، لست أملك بعد اليوم شيئاً ، لاشيء مطلقاً ، سواك — لا ولد ، ولا سطر ، ولا كلمة ، ولا ذكرى . ولو أن إنساناً تفوه باسمي أمامك ، فان هذا الاسم لن يعني إذن

شيئاً بالنسبة اليك . لمَ لا أموت اذن بكل طيبة خاطر ، ما دمت لا اوجد بالنسبة اليك ؟ لمَ لا أغادر هذا العالم ، ما دمتَ قد غادرتني ؟ كلا ، يا حبي — إني اقول لك ذلك مرة أخرى — فأنا لا أتهمك ، ولست أريد ان تلقي شكاواي الاضطراب في مسكنك . لاتخشَ ان أضايقك كثيراً بعد الآن ، بل اصفح عني ، فقد كنت في أشد الحاجة الى الصياح ، ولو مرة واحدة ، بكل قوى نفسي ، في هذه الساعة حيث يتمدد ولدي هناك ، مهملاً لا حياة فيه . لم يكن بدٌ من ان أتحدث اليك مرة ، مرة واحدة ليس غير ، ومن ثم أعود الى دياجيري ، واصبح من جديد خرساء ، خرساء مثلما كنت دوماً الى جانبك . ولكن هذه الصيحة لن تبلغ إليك ما حييتُ ، بل انك لن تتلقى هذه الوصية الا عندما أصبح في عداد الأموات ، هذه الوصية التي تكتبها امرأة أحبتك اكثر من سائر النساء الأخريات ، ولم تعرفها أبداً ، امرأة لم تكفَّ قط عن انتظارك ، ولم تنادها مطلقاً . لربما ، لربما ستناديني عندئذ ، ولكني سأكون ناكثة لعهدك للمرة الأولى ، ما دمت لن أسمع نداءك في قبري . ولست أترك لك أية صورة ، ، او أي اثر عن هويتي مثلما لم تترك لي ، أنت ، شيئاً على الاطلاق ! أبداً لن تعرفني ، أبداً على مدى الحياة ! ذلك كان مصيري في الحياة ! فليكن اذن مصيري في الموت ايضاً ! اني لا أريد ان أناديك في ساعتي الأخيرة ، ولذلك أذهب دون ان تعرف اسمي ، أو تعرف وجهي . وإني لأموت دون أسف ، لأنك لا تحسّ ، عن بعد ، أي ألم مبعثه موتي . لو كنت تتألم لموتي ، لما استطعت اذن ان أموت !

« لم أعد استطيع الاستمرار في الكتابة . . . إن رأسي لثقيل جداً . . . وأعضائي توجعني ، والحمى تنتابني . . . أظن اني سأضطر الى الاضطجاع ، حالاً ، في فراش الموت . ولربما سينتهي كل شيء قريباً . . . لربما سيكون

القدر رحيماً بي مرة ، فلا أرى الرجال السود يذهبون بولدي ... اني لم أعد استطيع أن اكتب . وداعاً ! ياحبي ، وداعاً ! اني اشكرك . لقد كان كل شيء حسناً مثلما كان ، بالرغم من كل ما حدث ... ولسوف اشكرك عليه ، حتى ألفظ نفسي الأخير ... اني لأشعر بالارتياح ، فقد رويت لك كل شيء ، وأنت تعرف حالياً — كلا ، انك تحمن فقط — كم احببتك ، ومع ذلك فان هـذا الحب لا يترك على كاهلك أي عبء على الاطلاق . انك لن تفتقدني — وهـذا يعزيني . ان اي تبدل لن يطرأ على حياتك الرائعة النيرة ... وموتي لن يسبب لك أية متاعب ابداً ... ان ذلك يعزيني ، يا حبي ! .

« ولكن من ... من سيرسل لك حالياً ، في كل عام ، من أجل عيد ميلادك ، ازهاراً بيضاً ؟ أواه ! ان الاناء سيكون فارغاً ، ولسوف يُقضى هكذا على ذلك النفس الضعيف من حياتي ، تلك النفحة من كينونتي التي كانت تحوم فيما حواليك مرة في كل عام ! يا حبي ، اصغ إلي ، أرجوك ... انه الرجاء الأول والأخير الذي اتوجه به اليك ... حباً بي ، افعل ما أسألك إياه : في ذكرى عيد ميلادك من كل عام — ذلك يوم يتذكره المرء بكل تأكيد — احصل على بعض الأزهار وضعها في ذلك الاناء . افعل ذلك ، افعل ذلك مثلما يطلب آخرون ، مرة في السنة ، من الكاهن ان يتلو صلاة من أجل متوفية عزيزة . إني لم أعـد أؤمن بالله ، ولست أطلب صلاة ؛ اني لا اؤمن الا بك . ولست أحب سواك ، ولست اريد ان احيا الا فيك ...

« أواه ! يوم واحد في السنة ليس غير ، وفي سكون تام ، في سكون مطلق ، مثلما حييتُ الى جانبك ... اني اتوسل اليك ، افعل ما أطلب منك ، يا حبي ... انه الرجاء الأول الذي اتوجـه به اليك ، وهو الرجاء الأخير ايضاً ... اني اشكرك ... اني احبك ... اني احبك ... وداعاً ... » .

* * *

أفلتت يدا الكاتب المرتجفتان الرسالة ، ومن ثم استغرق طويلاً في تفكير عميق . ان ذكرى طفلة بعيدة في الماضي ، طفلة كانت تسكن في جواره ، وذكرى فتاة ، ذكرى امرأة التقى بها في ملهى ليلي ، تصعد في ذهنه باضطراب وغموض . ولكن هذه الذكرى ظلت مبهمة غير واضحة ، مثل حجر يلمع ويرتعش في قعر المياه دون ان يستطيع المرء سبيلاً الى تمييز شكله . ان اخيلة تتقدم في ذهنه وتتراجع ، دون ان تشكل صورة جلية ابداً . انه يحرك في باطنه ذكريات حنوناً ، ولكن شيئاً لا يتضح وينجلي . كان يلوح له انه قد حلم بكل هذه الصور ، حلم بها كثيراً وفي عمق عظيم ، ولكنه لم يفعل سوى ان يحلم بها فقط . وعندئذ سقطت نظرته على الاناء الأزرق الموضوع أمامه على منضدة العمل . . . لقد كان فارغاً ، فارغاً للمرة الأولى في يوم عيد ميلاده وانقض فرقاً ، فكأن باباً غير منظور قد فتح له على حين غرة ، وتياراً متجلداً من الهواء ، قادماً من العالم الآخر ، نفذ الى سكون غرفته . وأحس ان شخصاً ما قد توفي لتوه ؛ أحس ان حباً خالداً كان يكمن هناك ، وازدهر شيء ما في أعمق أعماق نفسه ، ففكر في العاشقة غير المنظورة بصورة تسمو على المادة ، وبهوى جامح عات ، مثلما يفكر المرء في لحن موسيقي مغرق في البعد ...

في ضوء القمر

ستيفان زفايج

لم تستطع الباخرة ، وقـــد أعاقتها العاصفة واعترضت سبيلها ، أن ترمي مراسيها في المرفأ الفرنسي الصغير الا في ساعة متأخرة من الليل ، بحيث فاتنا القطار الذي كان يجب ان يعود بنا الى ألمانيا .

وهكذا لم يكن لي بدّ إذن ، بصورة لم تك في الحسبان ، من الانتظار طوال يوم كامل في مكان غريب عليّ ، وقضاء أمسية كاملة دون اية تسلية أخرى سوى « ألحان السيدات » الحزينة ، في حفلة موسيقية تحييها إحـدى الضواحي ، برفقة رفاق سفر جمعتني بهم للصدفة وحدها .

وبدا لي جو قاعة طعام الفندق الصغيرة ، الملطخة بالزيت والمظلمة بالدخان ، ثقيلاً لا يطاق ، كما أن قذارتها العكرة قد بعثت النفور في نفسي ، هذا النفور الذي ضاعف منه كون شفتيّ ما برحتا تحتفظان بعد بالرطوبة المالحـــة التي تنشرها أنفاس البحر النقية الطاهرة . وهكذا فقد خرجت من الفندق ، متبعاً على غير هدى الطريق العريضة المنارة ، حتى بلغت مكاناً تعزف موسيقى البلدية فيه ، وألقيت بنفسي في ملء الموجة المتكاسلة التي ينشرها على طول الطريق متنزهون يتزايد عددهم دون انقطاع .

ولقد أحسست الارتياح في البدء إذ رحت اتدحرج على هـذا الغرار ، بصورة آلية ، في تيار هؤلاء الناس الذين يرتدون ثياباً ريفية ، والذين كانوا

سواء لدي ، لا أبالي بهم ولا أعيرهم أي اهتمام . ولكن سرعان ما انتابني الضيق لكثرة ما شاهدت هذا المرور المستمر لقوم غرباء إلى جانبي ، بقهقهاتهم التي لامبرر لها ، وعيونهم التي تتفحصني في دهشة وعجب ، وبصورة مستغربة أو متضاحكة ؛ كنت متضايقاً من هـذه الاحتكاكات التي تدفعني ، دون أن يبدو عليها أنها تفعل ذلك ، بعيداً دوماً ، متضايقاً من آلاف هـذه الأنوار الصغيرة ، ومن قرع اقدام الجمهور غير المنقطع .

لقد كانت الرحلة متقلبة كثيرة الحركة ، فهي ما برحت تغلي في دمي بعد أشبه ما تكون بشعور من الدوار والنشوة العذبة : كنت أحس دوماً ، تحت قدميّ ، إنسلال الباخرة وتأرجحها ، فتلوح التربة لي متحركة مثل صدر يتنفس ، والطريق كأنها تريد أن ترتفع حتى تبلغ السماء .

وفجاءة ، انتابني الدوار تجاه كل هذه الضوضاء وهذا الدوران ، فانحرفت كي أخلص بنفسي منها في درب جانبي لم انظر الى اسمه ، ومن ثم في درب أضيق تلاشت فيه تلك الضوضاء المجنونة شيئاً فشيئاً . وطفقت اتابع طريقي بعد ذلك في تيه هذه الأزقة التي تتشعب مثل الأوردة ، والتي تزداد إظلاماً بمقدار ما أبتعد فيها عن الساحة العامة . ان الأقواس الكبرى للمصابيح الكهربائية — هذه الأقمار الخاصة بالجادات العريضة — لاتلهب ههنا ، والمرء يستطيع أخيراً ان يشاهد من جديد ، الى الأعلى من الضوء الضئيل ، النجوم وسماء مغمورة بالسواد من اقصاها الى اقصاها .

كنت قريباً من المرفأ بكل تأكيد ، في حي البحارة . أدركت ذلك من رائحة السمك المتعفن ، ومن ذلك العبيق الضارب إلى العذوبة ، المصنوع من النباتات البحرية والعفونة ، الفائح من الأشنيات المحمولة بالمد الى الشاطىء ، ومن هذه الرائحة الخاصة المجبولة من عطور فاسدة ومن غرف فاسدة

الهواء ، التي تسود مرهقة في هذه الزوايا من المدينة ، حتى تأتي العاصفة الكبرى بأنفاسها المطهرة .

كانت هذه العتمة المترددة تلذ لي ، وكذلك تلك الوحدة التي لم تكن في الحسبان . تمهلت في المسير قليلاً ، وقد شرعت الآن امعن النظر في كل درب بعد درب ، لأن كلاً من الأزقة يختلف عادة عن جاره ، فالهدوء يخيم ههنا ، والغزل يطغى هناك . ولكن الأزقة كانت مظلمة جميعاً ، لا يتردد فيها الا ضجيج اصم من الموسيقى والأصوات ، ينبعث من اللامنظور ، من أحضان أقبيتها بصورة سرية وخفية حتى ليعجز المرء ، الا بصعوبة جمة ، عن تخمين المنبع تحت الأرضي الذي تصدر عنه . ذلك ان سائر هذه الدور مغلقة لا يطرف فيها الا نور ضئيل أحمر أو أصفر ليس غير .

إني أحب هذه الأزقة في المدن الغريبة ، هذه السوق غير البريئة لسائر العواطف والأهواء ، هذا التكوم السري لمختلف المغريات التي تغوي البحارة ، هؤلاء الذين يأتون الى هنا ، وقد أعيتهم ليالي الوحدة التي قضوها في البحار البعيدة الخطرة ، كي يرضوا في ساعة قصيرة شهوانية أحلامهم المتعددة .

يجب ان تختبيء هذه الأزقة الصغيرة في بقعة ما من حضيض المدينة الكبرى ، لأنها تقول بكل وقاحة وصفاقة ما تخفيه الدور النيرة ذات الزجاج البراق ، حيث يسكن أناس الطبقة الراقية ، تحت ألف قناع وقناع . ههنا تتردد الموسيقى وتجتذب الناس الى غرف صغيرة ؛ ههنا يعد السينمائيون ، باعلاناتهم الصاخبة ، بروائع لامثيل لها ؛ ههنا تختفي عن الأنظار مصابيح صغيرة مربعة تحت الأبواب ، وتوجه اليك بالاشارات دعوة واضحة جلية مصحوبة بتحية خفية ؛ ههنا يلمع ، من خلال فرجة باب مسدف ، الجسد العاري الذي ألقيت عليه أسمال مذهبة الخيطان .

وفي المقاهي تزعق أصوات السكيرين ، وترتفع ضوضاء الخصومات بين المقامرين : ان البحارة يزمجرون متضاحكين عندما يلتقون في هذه الأمكنة، وتلتهب انظارهم الكئيبة بما لايحصى من الوعود ؛ ذلك ان كل شيء يوجد ههنا ، النساء والقمار ، السكر والمسرح ، المغامرة الدنيئة والمغامرة السامية على حد سواء .

ولكن كل هذا يعتصم في الظل ، كل هذا قد أرتجت عليه ، خفية ، مصاريع النوافذ المغلقة بصورة مرائية صفيقة ، كل هذا لايجري الا في داخل الدور ، بحيث أن ذلك الحذر الظاهري لمضاعف الاثارة بفتنة السر الذي يحوطه ، وسهولة البلوغ اليه والتمتع به .

ان هذه الأزقة متماثلة في هامبورغ ، او كولمبو ، أو لاهافان ؛ إنها هي ذاتها في كل مكان ، مثلما هي الشوارع الكبيرة حيث تسود الأبهة ، لأن قمم الحياة وأسافلها متشابهة الصورة في كل مكان . هذه الأزقة الوقحة ، المثيرة بما تكشف عنه اللثام ، الفاتنة بما تلقي عليه قناعاً وتخفيه ، هي البقايا الخيالية الأخيرة من عالم اضطربت حواسه ، حيث تنطلق الغرائز من قيودها بقسوة ليس ما يلجمها ، هي غابة مظلمة من الأضواء ، أجمة تعج بالحيوانات المتوحشة.. ان الحلم لينطلق ههنا على هواه دون ما يعقله .

ولقد وجدتني أسيراً ، بصورة مباغتة ، في إحدى هذه الأزقة .

كنت قد تبعت جنديين يتجرجر سيفاهما على بلاط الطريق المصقول ويرسلان رنيناً مستمراً ، واذا بعض النساء يناديهما من أحد المقاصف ، وهن يضحكن ، ويهتفن بهما ببعض الملح الفظة ، فطرق أحدهما النافذة ، ولكن صوتاً ساخطاً تقياً من مكان ما بعض الشتائم الكبيرة ، فتابع الجنديان طريقهما على أثرها . ونأت أصداء الضحك عني شيئاً فشيئاً ، وسرعان ما غابت أصوات الجنديين أيضاً عن سمعي .

أصبحت الطريق خرساء من جديد . وكانت بعض النوافذ تطرف بغموض في الضياء المقنع الذي يرسله القمر الشاحب اللون ، فتوقفت عن المسير ، ورحت أتنفس عميقاً هذا السكون الذي بدا لي غريباً جداً ، لأن اللذات والأخطار تدوي وراءه ، بكل تأكيد ، مثل سرّ دفين .

أحسست بكل وضوح أن هذه الوحدة كاذبة ، وأن بريقاً من فساد هذا العالم محضون تحت الأنخرة العكرة التي تملأ هذه الطريق . ولكني بقيت هناك ، جامداً ، انظر في الفراغ ، وقد فقدت كل شعور بأني في هذه المدينة أو هذه الطريق ، ولم أعد أعرف اسمها ولا اسمي ، بل أحس فقط أني غريب في هذا المكان ، ضائع بصورة رائعة في المجهول ، فاقد لكل غاية أو هدف ، بعيد عن كل رسالة أو علاقة بهذا المحيط ، وان كنت أشعر ، بالرغم من ذلك ، بكل هذه الحياة المظلمة من حولي ، بمثل كمال شعوري بالدم الذي يسيل في جلدي الخاص . كنت أجرب فقط الاحساس بأن شيئاً مما يجري هناك لم يجعل لي ، وان كل شيء ماك لي مع ذلك ، هذا الاحساس الطوباوي بأني أعيش الحياة الأعمق والأصح في وسط الأشياء الغريبة ، هذا الاحساس الذي يؤلف جزءاً من ينابيع كينونتي الباطنة الأكثر حيوية ، والذي يعملكني دوماً ، في المجهول ، أشبه ما يكون بلذة فائقة لامثيل لها .

وهذا انا اسمع بغتة ، بينا كنت أقف هناك مرهفاً السمع ، في الطريق المقفرة ، وكأنني أتوقع حدثاً ما ، شيئاً يخرجني من هذا التأمل في الفراغ الذي يشبه حال الرويصة الى حد بعيد ، أغنية ألمانية تنشد بصورة فظة ، وقد خفف البعد أو جدار يعترض سبيلها من ارتفاعها .

كان صوت امرأة يغني ، بصورة سيئة جداً في الحقيقة ، ولكن الغناء كان لحناً ألمانياً على أية حال بالنسبة إلي ، شيئاً ألمانياً في هذه الزاوية الغريبة من

العالم ، ولذا فقد وجدت في هذا النشيد نبرة أخوية بصورة غريبة حقاً . لقد كان تحية لي ، مهما كان مصدره ، الكلمة الأولى ، منذ أسابيع عديدة ، التي تبشرني بوطني .

وتساءلت بيني وبين نفسي : من يتكلم ، ههنا ، لغتي ؟

أي شخص يحس نفسه محمولاً ، من جراء ذكرى باطنة ، على ترديد هذه الأغنية البائسة خارج قلبه ، في هذه الدرب الضائعة المفسودة ؟

وسعيت لاكتشاف مصدر الصوت ، منقباً في مختلف الدور الغارقة هناك في نصف رقاد ، بنوافذها المرتجة المصاريع التي يطرف وراءها ، بلؤم ، نور ضئيل ، او تهتز في بعض الأحيان اشارة مقنعة تلوح بها يد مجهولة .

كانت كتابات صارخة واعلانات صاخبة معلقة في الخارج ، والكلمات : « نبيذ ، ويسكي ، جعة » تدل هنا وهناك على مقصف محرم . ولكن كل شيء كان مغلقاً ، يدفع المار عنه ويدعوه في وقت واحد . بينا تتردد بضع خطوات بعيداً في الطريق ، كان الصوت يرتفع دوماً ، هذا الصوت الذي يرسل الآن غناءه طنانا أكثر من ذي قبل ، ويقترب مني بصورة مستمرة في الوقت ذاته . وهذا أنا أكتشف الدار التي يصدر عنها الغناء ، فترددت برهة ، ومن ثم تقدمت نحو الباب الداخلي الذي تقنعه ستارة بيضاء .

ولكن ما أن انحنيت في عزم أنوي الدخول حتى رأيت شيئاً حياً ينبثق على حين غرة في ظل الرواق ، شبحاً يقف هناك بالمرصاد بكل تأكيد ، ملتصقاً بالزجاج ، منتفضاً فرقاً ، قد شحب محياه المغمور بحمرة المصباح المعلق فوقه . وهذا رجل يتأملني بعينين محملقتين ، ويهمس ببعض اعتذار مبهم ، ومن ثم يتلاشى في عتمة الطريق . كان ذلك الأسلوب في القاء التحية غريباً حقاً ، فنظرت في اتجاهه ، فلاح أثره لي يتحرك بعد ، في ظل الزقاق

الممتد بعيداً ، لكن بصورة غامضة غير واضحة . وكان الصوت نفسه يتردد في الداخل دوماً ، لكن أصفى منه قبلاً فيما خيل إلي . ولقد اجتذبني هـذا الصوت بقوة ، فدفعت المزلاج ودلفت إلى الداخل .

سقطت الكلمة الأخيرة من الأغنية في السكون ، وكأن سكيناً قـد اقتطعتها ؛ فأحسست ، في هيبة ، فراغاً أمامي ، أحسست الخرس والعداوة ، فكأنني قد حطمت شيئاً ما .

ولكن نظري اكتشف ، شيئاً فشيئاً ، ما في القاعـة التي تكاد أن تكون فارغة : مقصفاً ومائدة ، وهما فيما يبدو يجلاء مقدمة غرف أخرى ، تقع الى الوراء منها ، وتكشف حالاً ، بابوابها المسدفة ، وضياء مصابيحها المقنعة ، وأسرتها العريضة ، عن الغاية الحقيقية منها .

في المقدمة ، كانت فتاة متعبة ، مصبوغـة الوجـه بالألوان ، تعتمد بمرفقها إلى المائدة ؛ والى الوراء ، عند المقصف ، كانت صاحبة المكان ، وهي امرأة بدينة يضرب لونها إلى الرمادي الوسخ ، تقف برفقة فتاة أخرى لم تك قبيحـة مطلقاً . ووقعت تحيتي في الفراغ ثقيلة مرهقة ردّ عليها بعـد فترة صدى ضجر ، فأحسست بالضيق لقدومي على هذا الغرار الى تلك العزلة ، الى هذا السكون المتوتر والكئيب للغاية ، حتى كدت أعود أدراجي بكل طيبة خاطر . ولكنني لم أجد ، في ارتباكي ، أية حجة تدعوني الى الخروج ، بحيث اتخذت مكاني في خضوع الى المائدة الأمامية .

وإذ تذكرت الفتاة واجبها الراهن ، فقد سألتني عمـا أريد أن أشرب ، فعرفت حالاً ، من قسوة لغتها الفرنسية وثقلها ، أنها ألمانية الأصل .

طلبت قـدحاً من الجعة ، فذهبت كي تأتي به ، وقفلت راجعة في اتجاهي بتلك المشية المتعبة التي تفضح اللامبالاة أكثر مما يفعل جفاء عينيها الناعستين

في تكاسل تحت أجفانها ، فكأنهما ضوءان في سبيل الانطفاء . ووضعت قدحاً آخر لها ، بصورة آلية تماماً ، الى جانب قدحي ، كما هي العادة في مثل هذه الأماكن .

وعندما شربت نخب صحتي ، أمرّت نظرتها الفارغـــة عليّ ، وهكذا استطعت أن أتأملها . كان محياها جميلاً بعد في الحقيقة ، منتظم السمات ، لكنه أصبح مبتذلاً وأشبه ما يكون بقناع جامد ، وذلك بفعل شيء من الاعياء الباطن بكل تأكيد . كان خالياً من كل ما ينبض بالحياة ، ثقيل الأجفان ، مهمل الشعر ، بينا الخدان الملطخان بمساحيق رديئة النوع ، فقد بدآ يتهدلان ويغوران ، وطفقا يساقطان في غضون عريضة حتى الفم .

وكذلك كانت ترتدي ثوبها في اهمال ، وكان صوتها أبح محروقاً بتأثير التبغ والجعة . ولقد خمنت في كل ذلك كائنا متعباً ، لا يعيش الا بفعل العادة وحدها ، وبصورة آلية خالصة . وطرحت عليها سؤالاً ، في تردد كثير ممتزج بالرهبة ، فردت علي دون أن تتطلع إلي ، بنغمة لامكترثة بليدة ، دون أن تحرك شفتيها تقريباً . فأدركت ان وجودي غير مرغوب فيه .

وتثاءبت صاحبة المكان الى الوراء من المقصف ، بينا كانت الفتاة الأخرى تجلس في إحدى الزوايا ، وتنظر اليّ كأنها تنتظر مني أن أدعوها . وددت ان اذهب ، ولكن كل شيء فيّ قد أضحى ثقيلاً ، فأنا أجلس هناك ، في هذا الجو العكر الثقيل ، أترنح خبلاً مثل البحارة تماماً ، مقيداً بالفضول والاشمئزاز معاً ، لأن تلك اللامبالاة كانت تملك جانباً مثيراً يربطني ويقيدني .

وانتفضت على حين غرة ، وقد ذعرت لقهقهة صاخبة ارتفعت الى جانبي . وتذبذبت الشعلة في الوقت نفسه ، ففهمت من تيار الهواء الذي حدث أن شخصاً ما قد فتح الباب الى الوراء مني .

وهتف صوت المرأة الجالسة الى جانبي بالألمانية ، يقول بلهجة ساخرة مؤلمة :

– هذا أنت أيضاً ! إنك تزحف بعد حول المنزل ، أيها البخيل العجوز ؟ هيا ، ادخل اذن ، فلن أفعل شيئاً بك .

ألتفت قبلاً نحو تلك التي زمجرت بهذه التحية بحميا عظيمة فكأن النار تشتعل في جسدها . ومن ثم استدرت نحو الباب .

عرفت الشبح المترنح ، وعرفت النظرة المفعمة ذلاً التي تنبعث من عيني الرجل الذي كان متعلقاً بالباب قبل برهة من الزمن . كان يمسك بقبعته في يده ، مذعوراً ، مثل شحاد ذليل ، ويرتعش بفعل قهقهات المرأة ، التي تهز جسدها بأسره بصورة متلاحقة مثل نوبة من الصرع ، بينما طفقت صاحبة المكان ، الى الوراء ، تردد أصداءها بوشوشات سريعة النبرات .

وعندما اقترب ذلك الشيطان المسكين بخطى هيابة متسللة ، أصدرت اليه أمرها قائلة :

– أجلس هناك ، مع الفرنسية . إنك ترى جيداً أني اجلس برفقة سيد .

رمته هذه الكلمات بالألمانية ، فطفقت صاحبة المحل والفتاة الأخرى تضحكان ملء شدقيها ، وإن لم تكونا تستطيعان ان تفهما مما قالت الألمانية شيئاً . لكن يبدو أنهما كانتا تعرفان جيداً القادم الجديد .

صاحت برفيقتها ، وهي تضحك :

– اعطه شمبانيا ، يا فرنسواز ، زجاجة من النوع الأثمن .

ومن ثم توجهت اليه ، قائلة في سخرية لاذعة :

– اذا كنت تجد هذه الزجاجة ثمينة جداً ، فابقَ خارجاً ، أيها البخيل البائس ! إنك تريد ان تلتهمني مجاناً ، إني أعرف ذلك . إنك تريد كل شيء مجاناً !

وبدا الشيخ الطويل كأنه ينقسم جزئين بفعل هـــذا الضحك القاسي ، وتكوم ظهره على هيئة الكرة ، فكأنه يريد ان يتمثل بالكلب المتذلل ، وارتعشت يده عندما أمسك بالزجاجة ، ودلق بعض محتوياتها على المائدة وهو يصب منها في كأسه . لم تك نظرته تستطيع — وهي تريد دوماً ان ترتفع الى محيا المرأة — أن تغادر الأرض ، فهي تتنقل فوق بلاط الغرفة دون انقطاع ، وكأنها تتلمس شيئاً وتفتش عنه عبثاً .

وعندئذ رأيت للمرة الأولى بكل وضوح وجلاء ، تحت النور الذي ينثره المصباح ، ذلك الوجه المتلف ، المهزول والشاحب ، والأشعار الندية النادرة المتبعثرة على قحفه المتعظم ، والمفاصل المرتخية فكأنها متكسرة ، رأيت بؤس انسان قد غادرته كل قوة ، ولكنه لم يخلُ من بعض الشر رغماً عن ذلك .

كان كل شيء فيه منحرفاً ، منعطفاً ، ذليلاً ؛ وكان بريق شرير يخترق عينيه اللتين نجح أخيراً في رفعهما مرة ، ولكنهما لم تلبثا ان انخفضتا من جديد ، بأقصى السرعة ، في ذعر وهلع .

هتفت بي الفتاة في سلطة ، معبرة عن نفسها بالفرنسية :

— لا تقلق له .

وامسكت بذراعي في عنف ، فكأنها تريد ان تقلبني ارضاً ، وأضافت :

— انها قصة قديمة بيني وبينه ، لا يعود تاريخها الى اليوم مطلقاً ...

وصاحت به من جديد ، واسنانها تلمع بياضاً ناصعاً فكأنها على أهبة أن تعضه :

— بلى ، اسمع ايها الخبيث العجوز . إنك تريد ان تعرف ما قلت . لقد قلت إني أرمي بنفسي في البحر بالأحرى من اللحاق بك .

واخذت صاحبة الحانة والفتاة الأخرى تضحكان من جديد في صخب

وغباوة . كان يلوح ان تلك تسلية معهودة عندهما ، دعابة يومية تتكرر دون انقطاع . ولكن القرف اجتاحني عندما رأيت كيف أسرعت الفتاة الأخرى اليه على حين غرة ، وطفقت تلاطفه بحنان كاذب ، فيرتعش هو لمداعباتها دون ان يجد الجرأة على صدها . وتملكني الرعب عنـــدما رأيت نظرته المترددة تلاقي نظرتي ، نظرته المصنوعة من الخشية ، والارتباك ، والتذلل . وارتجفت أوصالي عندما رأيت المرأة الجالسة الى جانبي ترسل البروق من عينيهـا ، وقد خرجت أخيراً عن خمولها في خبث عظيم حتى لترتجف يداهـا . ألقيت بعض المال على المنضدة وأزمعت الرحيل ، ولكنها رفضت ان تتناول المـال الذي القيت به اليها .

قالت :

– اذا كان يضايقك ، فاني ارمي به خارجاً ، هـذا الكلب العجوز . إنه ههنا كي يطيع ! هيا اشرب قدحاً آخر معي .

واقتربت مني في نوع من الحنان المباغت المهووس الذي لم يك – لقد عرفت ذلك حالاً – إلا ادعاء خالصاً تريد منه أن تعذب الرجل الآخر . كانت تتطلع إليه بصورة منحرفة لدى كل من حركاتها ، فأحس ألماً مبرحاً إذ أرى كيف يأخذ الرجل المسكين بالارتعاش لدى كل حركة تقوم بها فكأن تياراً كهربائياً يخترق أوصاله . كنت أتطلع إليه وحده وأقشعر إذ أحس الآن غضباً مهتاجاً ، مشوباً برغبة وهوى عظيمين ، يغلي في كينونتيه ويفور ، كي يتلاشى سريعاً كلما أدارت رأسها نحوه . وهذه هي حالياً قربة كل القرب مني ، ألمس جسدها الذي يرتجف بفرحـــة هذا اللهو الشريرة . كان محياها الفظ ، العابق برائحة المسحوق الرخيص ، وكذلك رائحة جسدها المتعطن ، يرسلان الهلع في قلبي ، فتناولت سيجاراً كي احفظها بعيدة عن وجهي ، وبينما طفقت

نظرتي تطوف أرجاء المائدة تفتش عن عود ثقاب عليها ، اصدرت المرأة امرها الى الرجل ، قائلة في قسوة وعنف ، :

– هاتِ ناراً !

وارتعت اكثر من الغريب لهذه النبرة الفظة في حمله على خدمتي ، فجهدت حالاً في الحصول على النار بنفسي .

ولكنه كان يتقدم نحوي اثناء ذلك ، وقد حنته هذه الكلمات التي وقعت عليه مثل لسع السياط ، منحرف الخطى ، مترنح الساقين ، ووضع قداحته سريعاً على المنضدة ، وكأنه يتعرض لخطر الاحتراق لدى الاحتكاك بها .

والتقت نظرتي بنظرته طوال ثانية واحدة ، فقرأت في عينيه خجلاً عظيماً ونقمة مزبدة . إن هذه النظرة المستعبدة قد لمست الكائن الانساني فيّ ، لمست الأخ في شخصي ، فأحسست الانحطاط الذي تسببه المرأة ، وقاسمته خجله .

قلت بالألمانية ، الأمر الذي جعله ينتفض :

– أشكرك كثيراً . كان يجب الا تزعج نفسك .

ومددت له يدي ، فتردد طويلاً في البده ، ومن ثم أحسست احتكاك اصابع رطبة متعظمة ، وضغطاً مختلجاً مفاجئاً من الامتنان ، صدر عنه على حين غرة ، وبصورة لم تك في الحسبان أبداً . ولمعت عيناه برهة وهو يتطلع الي ، ومن ثم اختفيتا تحت اجفانه المرتخية . وأردت ، تحدياً ، أن أدعوه الى الجلوس إلى مائدتنا ، ومما لاريب فيه ان اشارة الدعوة قد مرّت بيدي ، لأن المرأة أسرعت فأمرته بسلطان ، قائلة بلهجة تعودت أن تطاع :

– ارجع واجلس هناك ، ولا تزعجنا .

وتملكني الاشمئزاز بغتة تجاه هذا الصوت العاض ، وتجاه هذه القسوة المتوحشة .

ما هذه الحانة الداخنة ، وهذه العاهرة المقرفة ، وذلك الأبله ، وذلك الجو المشبع بالجعة ، والتبغ ، والعطر الرديء ، بالنسبة إلي ؟

احسست الحاجة الى الهواء ، فمددت يدي بالمال الى المرأة ، ونهضت عن مقعدي ، وشرعت أتراجع في عزم في اتجاه الباب ، فاذا هي تقترب مني من جديد مداعبة مغرية .

كنت خجلاً من الاشتراك في إذلال كائن إنساني ، فأفهمت المرأة بجلاء ، بثبات تراجعي ، ضعف السلطان الذي تملكه على حواسي .

وعندئذ فارت دماؤها في خبث ، وارتسم غضن فظ حول فمها ، ولكنها تمالكت نفسها عن التفوه بالكلمة التي خطرت لها . التفتت اليه في حقد لم تجرب ان تخفيه ، فأسرع يضع يده في جيبه - متوقعاً منها أسوأ الأمور ، مذعوراً بوعيدها - وتناولت أصابعه المرتعشة كيساً من النقود .

كان يخاف الآن ، فيما يبدو بكل وضوح ، من البقاء وحيداً معها ، فلم يستطع ان يحل عقدة الكيس في اضطرابه . كان ذلك كيساً محاكاً ومزيناً بلآلىء زجاجية ، كتلك الأكياس التي يحملها الفلاحون والفقراء . وكان من السهل ان يلاحظ المرء انه لم يعتد إعطاء المال بسرعة ، على نقيض البحارة الذين يخرجونه من جيوبهم بحركة سريعة ، ويلقون به على المائدة بحيث يتردد رنينه عالياً ؛ بل كان من البين انه اعتاد ان يعده بعناية فائقة ، وان يزن القطع طويلاً بين اصابعه .

قالت في سخرية ، وهي تتقدم منه خطوة :

- اشد ما يرتجف من اجل قروشه المذهبة ! ألم تنجح في إخراجه ؟ انتظر قليلاً !

فتراجع القهقرى مذعوراً ، اما هي فقالت إذ رأت ذعره ، وهي تهز

كتفيها وتتطلع اليه في اشمئزاز يفوق الوصف .

– لن آخـذ شيئاً منك ؛ إني ابصق على مالك . اني اعرف جيداً أنها معدودة ، قروشك الصغيرة الطيبة ، وأنه يجب ألا يضيع واحد زائد منها في هذا العالم . ولكن الحذر قمين قبل كل شيء بهـذه الأوراق الصغيرة التي خطتها ههنا ، كي لا يسرقها إنسان قط !

وضربت على صدره بصورة مفاجئة ، وهي تتفوه بهذه الكلمات الأخيرة .

والواقع أنه رفع اصابعه ، شاحباً متردداً ، الى موضع ما من ثيابه ، مثل المقلوب الذي يشد بيده على صدره ، اثناء نوبة من الخناق ، وتلمست تلك الأصابع ، دون وعي منها ، العش الخفي ، ومن ثم سقطت على جانبي الجسد مطمئنة البـال .

قالت المرأة ، وهي تبصق على الأرض :

– أيها البخيل !

ولكن هذا احمرار مباغت يمر على محيا المذنب المسكين ، فيرمي الكيس بعنف الى الفتاة الأخرى التي اطلقت صيحة مذعورة في البدء . ومن ثم انفجرت ضاحكة في صخب عظيم ، بينا مر هو من أمامها ، عـدواً ، متجهاً نحو الباب ، مجتازاً عتبته وكأنه يفر من وجه حريق هائل .

ظلت الفتاة برهة أخرى واقفة في مكانها تتمتم عباراتها ناعمة وخشناً ، ومن ثم سقطت أجفانها متراخية ، وأفسح تورد جسدها المكان للاعياء من جديد ، فبدت في دقيقة واحدة وقد شاخت وأثقلها التعب المرهق . إن شيئاً ما متردداً غامضاً قد خفف من حدة النظرة التي ألقتها علي ، وهي تقف هناك أشبه بامرأة سكرى تفيق من سكرها ، يجتاحها بصورة مبهمة إحساس من الخجل والمذلة جميعاً .

قالت:

— لسوف يبكي الآن على ماله ، ولربما اسرع إلى الشرطة يشكو لها أننا سرقناه .. ولسوف يكون ههنا غداً ، ولكنه لن يحصل علي . الجميع ، أما هو فلا ! ...

وتقدمت من المقصف ، وألقت بعض القطع المالية عليه ، ومن ثم ابتلعت قدحاً آخر من الخمر دفعة واحدة ، فاشتعل حريق من الحبث مجدداً في عينيها ، لاح كأنه مضطرب بدموع النقمة والخجل . لكن الاشمئزاز الذي أحسسته تجاهها اعترض سبيل رثائي لها .

قلت بالألمانية :

— طاب مساؤكم !

وذهبت ...

فأجابتني صاحبة الحانة بالفرنسية :

— طاب مساؤك !

ولم تلتفت ، بل اكتفت بأن ضحكت في ضوضاء واستهزاء .

كانت الطريق تموج ، عندما خرجت ، بالأخيلة والظلال ، والسماء تموج بظلمة كثيفة مرهقة الثقل يتخللها ضياء القمر ، عن بعد ، من خلال السحب المتراكمة . ورحت أتنفس في نهم هذا الهواء الفاتر ، لكن القوي بالرغم من ذلك ، وأفكر باختلاف المصائر وتنوعها ، فتحلُّ دهشة عظيمة مكان الرعب الذي كنت أحس به . وشعرت من جديد — وذلك احساس يجعلني أبداً سعيداً حتى درجة البكاء — ان مصيراً يقف دوماً بالمرصاد خلف كل من الواح الزجاج ، وان كل باب يفتح أمام حدث انساني ما ، وان تنوع هذا العالم حاضر في كل مكان ، وان الزاوية الأدنى من هذه الأرض يمكن ان تحوي

حياة معتلجة عنيفة ، مثلما يتضوأ لمعان الخنافس على سطح العفونة والأقذار.

كان الاشمئزاز الذي بعثه في هذا اللقاء قد أضحى بعيداً عني ، والتوتر الذي احسسته ينتهي بي حالياً إلى إعياء عذب سعيد ، يطمح إلى تحويل هذا المشهد حلماً أسبغ عليه شيء كثير من المثالية .

وتلفت حولي دون ارادة مني ، تفتش نظرتي المتسائلة عن طريق العودة خلال هذا التيه من الأزقة الملتوية . ولكن هذا خيال ينبثق قريباً مني على حين غرة — مما لاريب فيه أنه اقترب مني دون ضوضاء ، وبهدوء عظيم حتى لم أشعر به .

قال ، وقد عرفت فيه حالاً ذلك الصوت الذليل :

— اعذرني ، ولكن أظن أنك لاتعرف طريق العودة . هل استطيع أن ادلك على دربك ؟ إن السيد يسكن ؟ ...

فذكرت اسم فندقي .

فأضاف الرجل في الحال :

— إني أرافقك ... اذا سمحت بذلك .

ذعرت ، وتملكني خوف شديد . ان الخطوة المنزلقة ، وكأنها شبحية ، إلى جانبي ، غير المشعور بها تقريباً ، لكن القريبة جداً مني بالرغم من ذلك ، وهذه الظلمة التي تكتنف شارع البحارة ، وذكرى ما قد رأيته لتوي ، ان هذه الأمور جميعاً قد أفسحت في نفسي المكان شيئاً فشيئاً لشعور مبهم ناعس لايقاوم ، لكنه ليس على شيء من الجلاء أيضاً . كنت أحس كم تصبح عينا الرجل ذليلتين ، حتى دون أن أراهما ؛ وكنت الاحظ ارتعاش شفتيه ؛ وكنت أعرف انه يريد أن يجاذبني أطراف الحديث ، إنما لا أفعل شيئاً كي أساعده على ذلك أو أمنعه عنه ، لشدة ما كانت الحال التي تملكتني تقترب من الخبل ،

يختلط فيها فضول القلب وخمول الجسد ويتفوق كل منهما على الآخر بصورة متناوبة .

وسعل صاحبي مرات عديدة .

ادركت الجهد العديم النفع الذي يبذله كي يتكلم ، ولست أدري أية قسوة قد انتقلت بصورة عجيبة من تلك المرأة الي ، قسوة تغتبط برؤية الذل والبؤس الأخلاقي يتصارعان فيه على هذا الشكل . وتركت هذا السكون الأسود الثقيل يثقل فيما بيننا بدلاً من أن أسهل عليه الأمر ، فظلت خطواتنا تتردد طويلاً على بلاط الشارع ، تنزلق خطاه بهدوء فكأنه عجوز هم ، بينما ترن خطواتي ، عن قصد ، عنيفة ثابتة ، فتختلط مع خطواته في صدى مبهم ، تريد جميعاً ان تفر بذلك من هذا العالم القذر المقرف .

كنت أحس بصورة متزايدة القوة ما بيننا من توتر . ان هذا السكون الصارخ والمفعم بالصيحات الباطنة لأشبه بوتر الكمان المشدود حتى يكاد ان ينقطع . وأخيراً مزقت كلمته هذا السكون ، وهي ما برحت مترددة فرقاً في البدء ...

قال :

— لقد .. لقد ... رأيت هناك مشهداً غريباً ... ياسيدي ... اعذرني ... اعذرني ... اذا كنت اذكّرك به ... ولكنه قد بدا لك غريباً بكل تأكيد ... هذه المرأة ... انها في الحقيقة ...

توقف ، وقد شدّ شيء ما على حلقه حتى ليكاد أن يخنقه ، ومن ثم انخفض صوته للغاية ، وهمس بنبرات متسارعة :

— هذه المرأة .. انها في الحقيقة ، زوجتي .

ومما لا ريب فيه اني انتفضت دهشة ، لأنه استرسل متعجلاً ، وكأنه يريد أن يعتذر :

- يعني انها كانت زوجتي ... قبل خمسة أعوام ... قبل أربعة أعوام... في جيراتزيم ، هناك، في مقاطعة الهيس حيث تقيم عائلتي ... لست أريد ، ياسيدي، أن تفكر سوءاً فيها ... لعلها خطيئتي اذا انتهت الى هذه الحال ... انها لم تك دوماً هكذا ... لقد عذبتها ... لقد أخذتها بالرغم من فقرها ، فلم تك تملك حتى الثياب ... لم تك تملك شيئاً أبداً .. مطلقاً .. . أما أنا فغني ... يعني أني ميسور الحال ... وليس غنياً ... او اني كنت هكذا فيما مضى على الأقل ... وهل تعلم ، ياسيدي ... لربما كنت - انها على حق - مقتصداً نوعاً ما ... ولكن ذلك قد كان فيما مضى ، ياسيدي، قبل الفاجعة ، واني لألعن نفسي من أجل ذلك . . ولكن أبي كان كذلك ، واخي أيضاً ؛ لقد كنا جميعاً هكذا ، بحيث كلفني كل فلس عناء عظيماً مرهقاً ... أما هي ، المرحة ، فقد كانت تحب الأشياء الجميلة ، بالرغم من فقرها ... ولقد انتقدتها على ذلك دوماً ... الأمر الذي كان يجب ألا أعمد اليه - اني اعرف ذلك الآن - لأنها كانت عزيزة النفس ، ياسيدي ، عزيزة النفس جداً ... يجب ألا تظن انها فعلاً مثلما تحاول ان تبدو في أعين الآخرين ... ذلك كذب ، وهي تسيء الى نفسها بنفسها ... كي تسيء اليّ فقط ... بكل بساطة كي تعذبني ... و... لأن ... لأنها تخجل أيضاً . ربما إنها قد أصبحت شريرة حقاً ، ولكني لا أصدق ذلك ... لأنها كانت ، ياسيدي ، طيبة ، طيبة جداً ...

وجفف عينيه ، وتوقف فريسة لانفصال عنيف جداً .

تطلعت اليه بصورة تخرج عن ارادتي ، واذا به يبدو لي ، بغتة ، بعيداً كل البعد عن ان يكون هزأة ، بل اني لم أعد أجد فيه مطلقاً ذلك التعبير الغريب والمفعم عبودية الذي يتصنعه، وتلك الطريقة في النفوه بكلمتي «ياسيدي»، الخاصة في المانيا بالطبقات الدنيا .

كان الجهد الباطن الذي يبذله كي يتكلم ينعكس على وجهه ، ونظرته

مثبتة في بلاط الشارع ، بعد أن عاود حالياً مشيته المترنحة ، فكأنه يفك في ذلك البلاط ، بعناء عظيم ، تحت النور المتأرجح ، رموز ما ينطلق من حلقه المتشنج على تلك الصورة الموجعة .

قال عندئذ ، متنفساً بعمق ، وبصوت قاتم ، يختلف عنه قبلاً كل الاختلاف ، يلوح أنه يصدر عن منطقة أقل قساوة من كينونته الداخلية :

— بلى ، ياسيدي . لقد كانت طيبة جـــداً ، حتى فيما يتعلق بي ، وكانت عظيمة الامتنان لي ، لاني انتزعتها من البؤس الذي كانت تعانيه .. . وكنت اعرف أيضاً امتنانها هـــذا ، ولكن كنت .. أريد أن أسمعها تقوله لي ... بصورة متجددة دوماً .. باستمرار ... كنت أشعر بالارتياح عندما أسمع اليها تشكرني . . فانه لأمر حسن ، ياسيدي ، أمر حسن بصورة لامتناهية ، أن يعتقد المرء ... أن يعتقد أنه أفضل عندما ... عندما يعرف انه أسوأ في في الحقيقة .. كنت أعطي كل مالي كي أسمعها تردد دون انقطاع هـــذه الآيات من الشكر .. ولكنها كانت عزيزة النفس جـداً ، تريد دوماً ان تختصر من شكرها لي عندما لاحظت أني أطلب ذلك ، أطلب هذا الشكر .. ومن أجل هذا ، .. من أجل هذا فقط .. ياسيدي ، كنت أحملها دوماً على التوسل إلي .. ولا أعطي شيئاً من تلقاء نفسي .. كنت سعيداً اذ أجدها مجبرة على القدوم الي كي تسألني ، مثل شحاذة ذليلة ، من اجل كل ثوب ، من أجل كل شريط .. ولقد عذبتها دوماً أكثر فأكثر ، على هذا الغرار ، طوال ثلاث سنوات .. ولكن ذلك لم يكن ، ياسيدي ، الا لأني كنت أحبها فقط .. كانت كبرياؤها تسرني ، ولكني كنت أريد ، بالرغم من ذلك ، أن أذلها دوماً ، أنا المجنون ! وعندما كانت ترغب في شيء ما ، فقد كنت أغضب ؛ أما في صميم قلبي ، ياسيدي ، فاني لم أكن اغضب فعلاً . كنت سعيداً بكل فرصة

سنح لي كي أذلها ، لأني .. لأني لم أكن ادري مقدار حبي لها ...

وتوقف من جديد .. ثم عاود المسير بمشية مترنحة . كان من البين انه قد نسيني ، فهو يتكلم بصورة آلية ، كما في حلم ، بصوت يزداد ارتفاعاً باستمرار :

— هذا .. لقد عرفته فقط عندما منعت عنهـا عندئذ ، في ذلك اليوم المشؤوم .. المال الذي طلبته من أجل امها ، القليل من المال، القليل جداً .. يعني اني قد حضرت المال سلفاً ، ولكني كنت أريد ان تأتي من أجله مرة أخرى .. مرة أخرى كي تتوسل الي .. بلى، ماذا كنت أقول ؟ ..

« بلى ، لقد عرفت ذلك عندئذ ، عندما رجعت في المساء الى بيتي فاذا هي قد رحلت ، وكانت هناك قطعة صغيرة من الورق على المائدة . « احتفظ بمالك اللعين ، فلست أريد شيئاً منك بعد الآن » . هذا ما كان مكتوباً في الورقة، ولم يكن شيء آخر مطلقاً !

« ياسيدي ، لقد كنت أشبه بالمجنون طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال . لقد استأجرت قوماً كي ينقبوا النهر ، وكذلك الغابة .. لقد أعطيت مئات الفرنكات لرجال الشرطة .. لقد ركضت الى سائر الجيران ، ولكنهم لم يفعلوا الا الضحك والسخرية مني ... لاشيء ، اننا لم نجد شيئاً على الاطلاق ... وأخيراً حمل لي بعضهم خبراً من القرية المجاورة .. لقد رآها .. في القطار برفقة جندي .. لقد ذهبت الى برلين !

« وغدوت في اليوم ذاته أسعى وراءها . مهملاً أعمالي ، مضيعاً ألوف الفرنكات .. ولقد سرقوني ، خدمي ووكيل أعمالي ، الجميع دون تفريق ..

« ولكني اقسم لك ، ياسيدي ، اني لم أبال بكل ذلك مطلقاً ..

« ولقد بقيت في برلين اسبوعاً كاملاً حتى اكتشفتها اخيراً في ذلك

الاعصار من البشر .. ولقد ذهبت اليها ..

وتنفس في ثقل :

– اني أقسم لك ، ياسيدي .. لم أقل لها اية كلمة قاسية .. لقد بكيت .. وجثوت على ركبتيّ ، وعرضت عليها مالاً .. كل ثروتي التي ستشرف هي عليها ، لأني لم أكن أستطيع – كنت أعرف ذلك منذ تلك الأثناء – أن أحيا من دونها . اني أحب أضأل شعراتها .. وفمها .. وجسدها .. كل شيء ، كل شيء فيها .. واني أنا الذي ألقيت بها في الهاوية ، انا وحدي ..

« كانت شاحبة مثل الموت عندما دخلت عليها بغتة ..

« كنت قد رشوت صاحبة الدار التي تقيم فيها ، وهي امرأة شريرة سافلة ... لقد كانت هناك ، عند الحائط ، بيضاء كالكلس ... وكانت تصغي الي .

« ياسيدي ، أظن انها كانت .. بلى .. فرحة تقريباً لرؤيتي .. ولكن عندما تحدثت عن المال .. وأنا لم افعل ذلك ، اقسم لك ، الا كي ابين لها اني لم أعد افكر في المال مطلقاً .. فقد اخذت تبصق دون هوادة ، ومن ثم ... لأني لم أشأ بعد ان اذهب ، دعت عاشقها ، وطفق كلاهما يسخران مني ..

« ولكني عدت ، ياسيدي ، يوماً بعد يوم . ولقد حدثني المستأجرون بكل شيء .. فعرفت ان ذلك الوغد قد هجرها ، وأنها في حاجة الآن ، فرجعت اليها عندئذ مرة أخرى .. مرة أخرى ، ياسيدي . ولكنها عنفتني ، ومزقت ورقة مالية وضعتها في عجلة على المائدة ، وعندما رجعت بعد ذلك ، كانت قد ذهبت ..

« أي شيء لم أفعله ، ياسيدي ، كي اعثر عليها ؟ .

« طوال سنة كاملة ، اني اقسم لك ، لم أعش ؛ لم أفعل سوى البحث ؛ ولقد دفعت مبالغ طائلة للوكالات حتى اللحظة التي علمت فيها انها هناك ، في الأرجنتين .. في .. بيت للبغاء ...

وتردد برهة ، فقد كانت الكلمة الأخيرة أشبه بالحشرجة ، ومن ثم ازداد صوته إظلاماً وهو يقول :

— يئست .. للوهلة الأولى ، ومن ثم فكرت اني انا الذي ألقيت بها في ذلك المكان .. وفكرت كم تتألم ، تلك المسكينة ، من دون ريب هناك ... ذلك انها عزيزة النفس قبل كل شيء .. وذهبت الى محاميّ الذي كتب الى القنصل وأرسل مالاً .. دون ان يقول له من معطي المال .. وكتب لها أن تعود فقط ..

« وابرقوا الي ان كل شيء تكلل بالنجاح .. كنت أعرف اسم الباخرة . وانتظرتها في امستر دام.

« كنت قد وصلت قبل الموعد بثلاثة أيام ، فكنت أتحرق انتظاراً .. وأخيراً دقت الساعة . كنت أطفح فرحاً من مجرد رؤية دخان المركب عند الأفق ، حتى لقد خيل الي اني لن أستطيع قط ان أنتظره حتى يلقي مراسيه ويتصل بالشاطىء .. بكل هذا البطء ، بكل هذا البطء . ومن ثم اجتاز الركاب السلم ، وأخيراً هي .. اني لم أعرفها في التو واللحظة .. لشدما تغيرت .. مبرجة .. ومنذ ذلك الحين هكذا .. هكذا كما رأيتها .. وعندما رأتني في انتظارها ، اصفرّ وجهها .. واضطر بحاران الى سندها ، والا كانت وقعت عن السلم ... وما وصلت الأرض حتى كنت الى جانبها .. لم أقل شيئاً .. فقد كان حلقي مغلقاً .. وهي الأخرى لم تقل شيئاً .. ولم تكن تنظر الي .. كان الحمال يسير بالأمتعة الى الأمام منا ، ونحن نمشي ، نمشي .. وهذه هي تتوقف على

غرة ، وتقول ... ياسيدي، كيف تفوهت بهذه الكلمات ! .. لقد آلمني ذلك بصورة قاسية ، لما كانت عليه رنة صوتها من عميق الحزن .. « أتريدني زوجة لك دوماً ، حتى في الوقت الراهن ؟ » .. امسكت بها من يدها . وارتعشت ، ولكنها لم تقل شيئاً .

« هكذا شعرت أن كل شيء قد أصلح الآن .. كم كنت سعيداً اذن ، ياسيدي ! رحت ارقص حواليها ، مثل طفل صغير ، عندما أصبحت في غرفتي ؛ وسقطت عند قدميها .. وقلت لها ، من دون ريب ، أشياء مجنونة ، لأنها كانت تبتسم من وراء عبراتها ، وكانت تمسح علي ... بحياء عظيم ، كما هو طبيعي ..

« ولكن ، ياسيدي .. لشد ما أسعدني ذلك ! لقد ذاب قلبي دموعاً .. كنت أصعد السلالم واهبطها عدواً ، أطلب غداء في المطعم ... غـــداء عرسنا . وساعدتها على ارتداء ملابسها .. ومن ثم نزلنا الى قاعة الطعـام ، وأكلنا، وكنا سعيدين .. أواه ! لقد كانت مسرورة جـــداً ، مثل طفل صغير ، دافئة وطيبة ، وكانت تتكلم عن منزلنا .. وعن كيف سنأخذ بالحياة من جديد .. عندئذ ! ..

وبُح صوته بغتة ، وقام باشارة من يده ، فكأنه يريد أن يحطم رأس إنسان ما .

– عندئذ .. لقد كان هناك .. إنسان شرير ،شقي .. ظن إني سكران، لأني كنت مجنوناً ، وكنت أرقص وأضحك حتى أتلوى .. بينا الواقع ان الفرح وحده كان يحملني على هـــذا السلوك .. اواه ! لقد كنت مسروراً جداً ، ولكن هذا هو .. عندما دفعت ، يرد الي حسابي ناقصاً مبلغ عشرين فرنكاً . عنفته ، وطالبته بالبقية ، فارتبك ووضع القطعة الذهبية على المائدة ..

وعندئذ .. شرعت هي تضحك ، على حين غرة ، بأعلى صوتها .. تطلعت إليها بثبات ، ولكن محياها كان قد تبدل .. لقد أضحى بغتة ساخراً ، قاسياً ، شريراً .

« قالت في برود شديد ، بتلك اللهجة الحادة القاطعة ، وبشيء .. بشيء كثير من الرثاء : « ما أشد تقتيرك .. حتى في يوم عرسنا » .

« انتفضت ، ورحت ألعن خوفي ذلك من الافراط والاسراف . جهدت أن اضحك من جديد ، ولكن مرحها قد تلاشى .. قد مات .. وطلبت غرفة خاصة بها .. أية رغبة لم أكن ألبيها لها اذن ؟ وقضيت الليل وحيداً ، أفكر فيما سأشتريه في الغداة صباحاً .. هدية أقدمها إليها .. كي أبرهن لهـــا اني لست بخيلاً .. وأني لن أكون كذلك قط تجاهها بعد الآن . وفي الغداة خرجت في ساعة مبكرة جداً ، وعندما دخلت غرفتها .. كانت .. كانت فارغة . مثلها في المرة الأولى . وكنت أعرف ان قطعة من الورق ستكون على المائدة .. تقدمت راكضاً ، ضارعاً الى الله ألا تكون تلك الحقيقة ... لكن .. لكن .. كانت تلك الورقة هناك مع ذلك .. وكان مكتوباً فيها ..

تردد برهة . كنت قد توقفت ، دون قصد مني ، ورحت أشخص اليه ، فأطرق برأسه ، ومن ثم همس بصوت مبحوح :

– كان مكتوباً فيها : « دعني في سلام ، فانك تثير الاشمئزاز في نفسي » .

كنا قد بلغنا المرفأ ، فاذا تنفس البحر المزمجر يتردد ، على حين غرة ، في السكون ، قريباً منا .

وكانت السفن هناك ، قريبة جداً ، وعلى بعد متفاوت ، مثل حيوانات كبيرة سود تتضوأ أعينها . وكان صوت غناء يتردد في مكان ما .

لم يك شيء واضحاً ، ولكن المرء يلمس بالرغم من ذلك أن هناك العديد

من الأشياء ، ان هناك ما يشبه رقاداً واسعاً ، ما يشبه حلماً مثقلاً يراود ذهن مدينة عظيمة وكنت أميز بالقرب مني حضور خيال هذا الرجل المرتجف بصورة غريبة عند قدميّ ، متكسراً تارة ، متكوماً تارة أخرى ، تحت النور المتبدل الذي تنشره المصابيح العكرة . ولم استطع ان اقول شيئاً ، حتى ولا ادنى كلمة عزاء او اي سؤال عارض ، وان يكن صمته يلتصق بي ، ثقيلاً مؤلماً . ولكن هذا هو يمسك بذراعي على حين غرة ، ويقول مرتعش الأوصال :

— ولكني لن اذهب من هنا بدونها . لقد لقيتها بعد شهور طويلة .. إنها تعذبني ، ولكن لن أكل قط .. استحلفك بالله ياسيدي ، ان تتحدث إليها .. يجب ان تكون لي ، قل لها ذلك .. إنها لا تصغي إلي .. إني لا استطيع بعد الآن ان اعيش هكذا .. اني لم أعد استطيع ان ارى الرجال يذهبون اليها .. وانا انتظر خارجاً عند الباب حتى يخرجوا .. سكارى ضاحكين .. ان الشارع بأسره قد اصبح يعرفني . وهم يضحكون عندما يرون اني انتظر .. ان ذلك يصيّرني مجنوناً ، ومع ذلك فاني أعود .. في كل مساء .. ياسيدي ، استحلفك بالله ... تحدث إليها . افعل ذلك بالرغم من انني لا اعرفك ، افعله محبة بالله .. تحدث إليها ..

وسعيت ، دون وعي مني ، الى تخليص ذراعي من قبضته . وانتفضت ، بينما سقط هو فجأة على ركبتيه في وسط الشارع ، شاعراً اني أحيد بوجهي عن مصيبته ، وقبل قدميّ .

قال :

— استحلفك بالله ، ياسيدي .. يجب ان تتحدث اليها .. ذلك واجب .. وإلا .. وإلا سيحدث شيء رهيب .. لقد صرفت كل مالي كي أجدها ،

ولن أتركها ههنا .. ههنا حية .. لقد اشتريت سكيناً .. ان لدي سكيناً ، ياسيدي .. لم أعد أريد ان تبقى ههنا .. حية .. اني لم أعد استطيع احتمال هذا العذاب .. تحدث اليها .. ياسيدي ..

كان يتدحرج كالمجنون أمامي . وفي هذه اللحظة ، تقدم شرطيان نحونا عبر الشارع ، فرفعته عن الأرض بعنف . تطلع الي برهة كمن فقد صوابه ، ومن ثم قال بصوت متبدل تماماً ، وبجفاء عظيم :

— انك تنعطف في هذه الطريق ، ومن ثم تكون في فندقك .

وشخص الي بثبات مرة أخرى ، بعينين تلوح حدقتاهما غارقتين في بياض مخيف وفراغ يبعث على الرهبة ، ومن ثم اختفى .

تدبرت بمعطفي ، فقد كانت أوصالي ترتعش . كنت مرهقاً بالاعياء ، تجتاحني نشوة مبهمة ، باليدة سوداء ، يرافقها نعاس متردد ، لونه لون القرمز . كنت أريد أن أفكر قليلاً ، أن أتأمل في كل ما حدث ، ولكن تلك الموجة السوداء من الأعياء كانت ترتفع في دوماً وتجرفني . ودخلت الفندق أتلمس طريقي تلمساً ، وتهاويت على سريري ، واستغرقت في نوم ثقيل أشبه ما أكون بحيوان اعجم .

* * *

لم أعد أدري ، في صباح الغداة ، مبلغ ما في مغامرة البارحة من الحلم ومن الواقع . كان شيء ما في باطني يمنعني من التساؤل عن ذلك . لقد استيقظت ضحى ، غريباً في مدينة غريبة ، فذهبت أزور كنيسة تضم فسيفساء عظيمة الشهرة .

ولكن عيني ظلتا ضائعتين في الفراغ ، وذكرى الليلة المنصرمة تعود الى

ذهني بقوة متزايدة دوماً ، وتجرني بصورة لاسبيل الى مقاومتها ، بحيث رحت أفتش عن الشارع وعن الدار في حمية عظيمة .. ولكن هذه الأزقة الغريبة لاتحيا الا في الليل ، اما في النهار ، فهي تحمل اقنعة رمادية باردة لايستطيع الا المتدرب وحده ان يعرفها من ورائها . ولقد فتشت طويلاً عن ذلك الشارع ، ولكن عبثاً ، فقد باءت سائر جهودي بالفشل الذريع ، حتى قفلت الى الفندق أخيراً ، متعباً خائب الآمال ، تلاحقني تلك الصور التي يحركها فيّ الانفعال أو الذكرى .

... كان قطاري يرحل في التاسعة مساء ، فغادرت المدينة آسفاً . جاء حمال كي يأخذ أمتعتي ، ومن ثم توجهنا معاً ، وهو يسبقني بخطوات ، نحو المحطة . وفجأة شعرت بصدمة باطنة عند تصالب بعض الطرق ، فقد عرفت الزقاق الجانبي الذي يؤدي الى ذلك المنزل . قلت للحمال أن ينتظرني ، وبينا طفق هذا الحمال ، الذي دهش للرحلة الأولى ، يضحك فيما بعد في وقاحة وألفة ، ذهبت ألقي نظرة اخيرة على ذلك الشارع الذي قادتني المغامرة في الأمس اليه .

كان الشارع يستلقي هناك ، في الظلمة ، قاتماً مثله في العشية ، فرأيت ألواح زجاج باب تلك الدار تلمع في ضياء القمر الكامد . وأردت ان اقترب منه مرة اخيرة ، عندما انزلق شبح انساني خارجاً من الظل ، عرفت فيه — مقشعر الأوصال — رجل البارحة الذي التصق هناك بالجدار ، عن العتبة تماماً ، وراح يشير الي أن أقترب منه . ولكن ارتعاشاً قد انتابني بصورة مباغتة ، فوليت الادبار بأقصى السرعة ، في جبن ، خشية أن أجدني مقحوماً فيما لاتحمد عقباه ، فيفوتني القطار مرة اخرى .

ولكني تطلعت مع ذلك الى الوراء مني ، قبل ان انعطف ، عندما بلغت زاوية الشارع . وعندما وقعت نظرتي على الرجل ، شدّ هذا الأخير من

جذعه ، ورأيته يتكوم على نفسه في عجلة ، ومن ثم يقفز على الباب ويفتحه بعنف وقوة . وفي هذه اللحظة التمع ضياء معدني في يده ، لم أستطع أن أميّز، عن البعد حيث كنت ، ان كان مصدره المال أو تلك السكين التي تتضوأ بغدر ، في ضوء القمر ، بين أصابعه ...

مشتمل الكتاب

		صفحة
مقدمة		٣
لهو القدر	: جوهان فون شيللر	١٧
سندريللا	: الأخوان جريم	٣٥
آلهة في المنفى	: هنريخ هايني	٤٧
اعترافات رأس السنة الجديدة	: هرمان سودرمان	٧٧
الدرب إلى المقبرة	: توماس مان	٩٣
لاعب الشطرنج	: ستيفان زفايج	١١٣
رسالة من مجهولة	: ستيفان زفايج	١٨٩
في ضوء القمر	: ستيفان زفايج	٢٤٩

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

تقدم الى قرائها في الأقطار العربية

رومان رولان

الكاتب الفرنسي الذي كان قبلة انظار الأوروبيين طوال ثلاثة اجيال كاملة

في

حب وحرب

إحدى قمم الأدب الانساني المعاصر .

قصة الفتوة التي ترهقها وطأة الحرب في كل مكان وتضنيها .

قصة الشباب الذي يحطم جنون البشر ومطامعهم طموحه وآماله ويذريها .

قصة الحب الذي يتفتح تحت انفجارات القنابل ويقضي تحت انقاض الغارات.

نقلت إلى العربية عن الطبعة الفرنسية الستين .

DATE DUE

833.08:A98rA:c.1
ايوب، فؤاد
روائع من الادب الالماني
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01831852